

الأدب الإسلامي

المفهوم والقضية

تأليف

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي

الدكتور
عبد العزيز شرف

الدكتور
علاء عاي صبح

دار الحديث

بيروت

جميع الحقوق محفوظة لإدار الجليل

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

فهرس موضوعات الكتاب

تصدير..... ٥

الباب الاول

معالم الأدب الإسلامي: د. علي علي صبح

الفصل الأول: مفهوم الأدب الإسلامي ٩

تمهيد ٩

حقيقة الأدب الإسلامي ١١

- التجربة الشعورية ١٢

- بين الحرية والالتزام ١٥

الفصل الثاني: موضوعات الأدب الإسلامي ٣٩

تمهيد ٣٩

القيم الأخلاقية في القرآن والسنة الشريفة ٤٢

فقه التشريع في العبادات والمعاملات والعقود ٤٢

سيرة الرسول عليه السلام والصحابه رضوان الله عليهم ٤٤

التاريخ الإسلامي ٤٥

تاريخ الحضارة الإسلامية في العالم ٤٥

٤٦	التضامن الإسلامي
٤٧	مواجهة حرب اللغة العربية
٤٨	حل مشكلات المسلمين في أنحاء العالم
٤٩	محااربة التخلف الثقافي
٥٠	حرب البدع والخرافات
٥٠	مواجهة العدو الصهيوني
٥١	مواجهة التبشير الصليبي
٥١	مواجهة الإلحاد
٥٣	الفصل الثالث: التصوير الأدبي
٥٣	خصائص الكلمة والأسلوب والنظم
٥٧	الفصل الرابع: الأغراض الأدبية في الأدب الإسلامي
٥٧	تمهيد
٥٨	القيم التشريعية الأخلاقية
٥٩	الحضارة الإسلامية
٥٩	التكامل الاجتماعي
٦٠	التضامن الإسلامي
٦٠	البناء النفسي للفرد المسلم
٦١	البناء الاجتماعي للفرد والأسرة
٦١	الدعوة الإسلامية
٦١	شعر الجهاد في سبيل الإسلام
٦٢	الشعر الوطني
٦٢	التأمل في الطبيعة
٦٣	رثاء الزعامات
٦٤	الأناشيد الإسلامية

الباب الثاني

مصادر الأدب الإسلامي للدكتور محمد خفاجي

٦٧	الفصل الأول: عصر صدر الإسلام
٧٠	أثر الإسلام في حياة العرب الاجتماعية
٧٢	أثر الإسلام في الأدب
٧٣	أثر الإسلام في اللغة
٧٧	الفصل الثاني: القرآن الكريم: بلاغته وإعجازه
٩٠	الصور القرآنية في القرآن الكريم
١٠٧	أثر القرآن في اللغة والأدب
١١٠	القرآن: كتاب الله الخالد المعجز
١١٧	الفصل الثالث: الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب
١١٧	تمهيد: بلاغة الرسول
١٢٢	أثر الحديث في اللغة والأدب
١٢٦	خطبة نبوية في بدر الكبرى
١٣١	الفصل الرابع: الشر الإسلامي
١٣١	تمهيد
١٣٣	* الخطابة الإسلامية
١٣٣	دواعي الخطابة الإسلامية
١٣٤	أسباب قوتها
١٣٥	موضوعاتها
١٣٦	مميزاتها
١٣٨	نماذج الخطابة الإسلامية
١٤٢	* أدب الرسائل في صدر الإسلام
١٤٢	تمهيد
١٤٣	حالة الكتابة في عصر النبوة

١٤٤	الكتابة بعد عهد النبوة
١٤٤	بواعث الكتابة في هذا العصر
١٤٥	تدوين الدواوين
١٤٦	أسلوب الكتابة في صدر الإسلام
١٤٦	نماذج الكتابة
١٥٠	* خصائص النثر الإسلامي
١٥٠	تمهيد
١٥١	موضوعات النثر الفني
١٥٢	معاني النثر الإسلامي
١٥٢	أسلوب النثر الإسلامي
١٥٣	ألفاظ النثر الإسلامي
١٥٥	الفصل الخامس : الشعر الإسلامي
١٥٥	ما طرأ عليه في أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه
١٦٦	صور من الشعر الإسلامي
	الفصل السادس : النقائض الشعرية بين شعراء المدينة
١٧١	ومكة في عصر الرسالة

الباب الثالث

الإعلام في الأدب الإسلامي،

للدكتور عبدالعزيز شرف

١٨٩	الفصل الأول : القرآن الكريم ونظرية الاتصال الأدبي
٢٠٣	الفصل الثاني : محمد عليه الصلاة والسلام و بلاغة الاتصال
٢٢٥	الفصل الثالث : الأشكال الاتصالية في الأدب الإسلامي
٢٣١	الأحاديث النبوية الشريفة في الاتصال الشخصي والجمعي والحضاري
٢٣٣	الاتصال الشخصي بالقبائل العربية

٢٣٤	العوامل الوسيطة ومقاومة المضمون الاتصالي
٢٣٦	الاتصال الجمعي
٢٣٨	الخطب النبوية والاتصال الجمعي
٢٤١	خطبة الوداع وحقوق الإنسان
٢٤٣	صلاة العيد والاتصال الجمعي
٢٤٥	الحج والاتصال الإعلامي
٢٤٧	الاتصال الحضاري والأدب الإسلامي
٢٥٥	الفصل الرابع: الأدب وتطور الإعلام الإسلامي
٢٥٥	منهج الإعلام الإسلامي
٢٥٦	الدعوة الإسلامية لم تنتصر بالسيد
٢٥٨	الفتوحات الإسلامية وانتصار الدعوة
٢٦٤	الإعلام الدولي والاتصال التدويني
٢٦٨	الجهاد وحرية الإعلام الإسلامي
٢٧٢	الإعلام الإسلامي في افريقية
٢٧٧	الفصل الخامس: الإعلام الإسلامي في حاضره
٢٧٧	تطور الإعلام الإسلامي في وسائله
٢٧٩	الإعلام الإسلامي في العصر الحديث (محمد عبدالوهاب)
٢٩٣	النهضة الإعلامية الحديثة
٢٩٤	الإعلام الإسلامي والجامعة الإسلامية
٢٩٦	الأفغاني وتجديد الإعلام الإسلامي
٢٩٩	«العروة الوثقى» والصحافة الإسلامية
٣٠٣	انطلاقة جديدة للإعلام الإسلامي
٣٠٤	إقبال والإعلام الإسلامي
٣٠٤	إقحام القومية والعنصرية على الإسلام
٣٠٥	إقبال يهاجم القاديانية
٣٠٥	محمد عبده يهاجم الاستشراق
٣٠٦	حملات الاستشراق الصليبي

٣١٥	سليات الإعلام المعاصر في الأمة الإسلامية
٣١٥	الصهيونية: الخطر الدعائي الإسلامي
٣٢٢	محاورة الصهيونية للإسلام
٣٢٣	الأدب الإسلامي مهمة إسلامية
٣٢٥	الفصل السادس: الأدب بين الإعلام الإسلامي والإعلام الدولي
٣٢٦	الإعلام الإسلامي وادعلام الدولي
٣٢٨	الإعلام الإسلامي والرأي العام الدولي
٣٢٩	الإعلام الإسلامي وحقوق الإنسان
٢٣٢	الإعلام الإنساني في الإسلام
٣٣٣	الإعلام الإسلامي والمذاهب الوضعية
٣٧٧	الفصل السابع: الأدب والأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية
٣٣٧	تمهيد
٣٣٩	الإعلام الإسلامي والفطرة الإنسانية
٣٤٦	الأسس الاتصالية في الإعلام الإسلامي
٣٤٨	مصدر الاتصال
٣٤٩	الصدق
٣٥٠	الصبر والثبات
٣٥٢	الرحمة والعفو والتواضع
٣٥٥	الفهرس

تصدير

الأدب الإسلامي فكر يتمثل روح الإسلام وجوهره، وروح حضارة الإسلام ومضمونها، وروح تراث الإسلام وتاريخه وثقافته ومدنيته.

والأدب الإسلامي جوهر أصيل في تراث الإسلام وفكره ونهضته وتاريخه. فهو الذي سجل انتصارات الإسلام، ونضال أبطاله، وجهاد رواده، وكفاح مفكره، وهو الذي نطق بمآثره، وتحدث عن مفاخره، وصور أيامه وسجل أروع بطولاته، وامتداد نهضاته..

الأدب الإسلامي هو الذي غذى مشاعر الأمة الإسلامية على امتداد العصور بكل قيم الإسلام، وفكر الإسلام، ومثل الإسلام... وهو الذي كان نشيد المسلمين في كل مكان، وحذاءهم في كل زمان... ليعملوا ويكافحوا من أجل شعوب الإسلام، ومن أجل نهضتها ورفاهيتها وتقدمها وقوتها...

وهذا الكتاب حلقة جديدة من حلقات الأدب الإسلامي الرفيعة، وتقصد منه إضاءة السبيل أمام دارسي الأدب الإسلامي، والراغبين في الوقوف على كل ما جاش في صدور الأدباء الإسلاميين من فكر رفيع، ومضمون جليل، وقيم عالية، ومثل سامية.

إننا نقدم هذا الكتاب إلى القراء، مع الاعتزاز الكبير بالغاية التي دفعتنا إلى إصداره، وبالهدف الجليل الذي نشأه من ورائه، وبالله التوفيق، وهو العون والنصير.

المؤلفون

في رمضان المبارك ١٤٠٨ هـ / مايو ١٩٨٨ م

الباب الأول

معالم الأدب الإسلامي

د. علي علي صبح

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

مفهوم الأدب الاسلامي

تمهيد

يتميز الأدب من بين العلوم والفنون الأخرى كالرسم والنحت والتصوير «الفوتوغرافي» وغيره بخصائص لا توجد في غيره، تجمعها غايتان كبيرتان، وهما:

١ - التأثير على النفس والوجدان.

٢ - الإقناع للعقل والفكر بالقياس والبرهان الحسي.

وماعدا الأدب ليس له إلا غاية واحدة، فالعلوم غايتها الاقتناع بالأدلة والبراهين العقلية والمنطقية فقط، والفنون الأخرى كالرسم وغيرها لها غاية واحدة فقط، وهي التأثير بالاستمتاع الوقتي المحدود بقدر الرؤية للمنظر أو التمثال، أثناء التمتع بالنظر والعين. وتأسيساً على ذلك تميز الأدب بكثرة معابره ووسائله التي تجيد الوصول إلى الغايتين السابقتين، وهذه الوسائل هي منافذه المتعددة التي تستقبل الأدب وهي: العاطفة، والوجدان، والشعور، والإحساس بالحواس الكثيرة، والخواطر، والعقل، والخيال.

بينما العلوم ليس لها إلا طريق واحد فقط للإقناع وهو العقل، وكذلك الفنون الأخرى ليس لها إلا معبر واحد فقط، فالرسم والتصوير والنحت ووسائله للتأثير هي النظر والرؤية بالعين، ووسيلة الموسيقى هي الأذن والسمع.

بهذا تميّز الأدب بفنونه عن سواه، وصار ولا زال أخطر المعارف تأثيراً وإقناعاً في النشاط الإنساني، ما دام الأدب قد تميز بهذه الحظوة فالواجب علينا أن نتعامل معه بحذر شديد، فالخطر الداهم المدّمّر حين يساء استخدام الأدب، فيوجه في غرس الشر ونشيدان القبيح، وحينئذ يكون أداة للهدم والتدمير، وحينما يستخدم الأدب لنشر القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة بيني المجتمع ويسمو به إلى مدارج الرقي والتقدم، فالقصة المعاصرة التي تقوم على التغني بالجنس ووصفه المكشوف وتصويره الهابط، وإيقاظه في النفس البشرية أدّت إلى انهيار الشباب وانحلاله خلقياً، والقصة التي تقوم على تمجيد القيم الفاضلة، وتصوير الحضارة الإسلامية تبني جيلاً قوياً أصيلاً يحافظ على أمجاده وتراثه.

هذاما أقصده من خطورة الأدب إيجاباً أو سلباً، وفي ضوء هذه الخطورة يتحدد مفهوم الأدب الإسلامي، وعلى النقيض يتحدّد مفهوم الأدب الهابط المنحرف، فإن استخدمت الكلمة استخداماً نافعاً صالحاً وجاداً وبناءً في الأدب، كان أدباً إيجابياً، وإن استخدمت الكلمة استخداماً خبيثاً ومنحرفاً كان الأدب سلبياً مدمراً، ومفهوم النفع والإصلاح والجدة والبناء يختلف من أمة إلى أمة ومن بيئة إلى أخرى، فهذا المفهوم في أمتنا الإسلامية له معالم تختلف عن مفهوم الأدب لنشر القيم النبيلة الفاضلة، يبني المجتمع ويسمو به عن الدرك المادي.

وإذا كان النقاد القدماء جعلوا الأدب الإسلامي قاصراً على أدب عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، فلإننا لا نفرق بين عصر وعصر، حتى العصر الحديث في مفهوم الأدب الإسلامي، فشوقي شاعر إسلامي، وحسان كذلك، ومصطفى صادق الرافعي أديب إسلامي، والإمام علي بن أبي طالب بليغ من أعظم بلغاء الأدب الإسلامي... والمهم أن يكون مضمون أدب الأديب - شعراً ونثراً - حكمة وقيماً إسلامية..

حقيقة الأدب الإسلامي

هي التجربة الشعورية التي تنبع من الوجدان والخواطر المفعمة بالقيم الإسلامية في بناء غني يعتمد على وسائل التأثير والإقناع: من الألفاظ الفصيحة، والأسلوب البليغ، والنظم الدقيق والتصوير المحكم بالخيال والعقل معاً، والاتساق في الإيقاع المتدفق بأشكاله المتعددة سواء أكان وزناً وإيقاعاً في الشعر، أو نمواً وتطوراً في الأحداث كالفصصة والأقصوصة، أو قصراً في العبارات والجمل كأنواع المقالة الأدبية.

وبهذا المفهوم تتحدد معالم الأدب الإسلامي وأساسه على النحو التالي:

- ١ - التجربة الشعرية إزاء موقف إنساني معين.
- ٢ - الخواطر والأفكار التي تمتد جذورها إلى شريعة الإسلام.
- ٣ - العاطفة الصادقة التي تعبر عن إخلاص الأديب وصدقه.
- ٤ - اللفظ الفصيح الصحيح المجرد من الخطأ واللحن والسوقية والعامية.
- ٥ - الوجدان المفعم بالقيم الإسلامية الثري بخلق القرآن والسنة.
- ٦ - الأسلوب البليغ والنظم الدقيق، الذي يتخذ القرآن مثله الأعلى.
- ٧ - التصوير الأدبي المحكم بالخيال والعقل معاً، فلا يترك العقل الخيال منطلقاً في جموحه ومبالغاته، ولا يترك الخيال العقل يعتمد على مقاييسه المجردة وبراهينه الجافة المترتبة على المقدمات والمسلمات، وإنما يتعاون العقل والخيال معاً في توازن واتزان لصوغ الصورة الأدبية المتنوعة من استعارة وكناية وتشبيه ومجاز، أو غير ذلك من تقديم وتأخير، وتعريف وتنكير، واسمية أو فعلية وما شابهه من أبواب «علم المعاني» وروعة النظم.

- ٨ - الإيقاع والموسيقى، وهذا يختلف حسب اختلاف الفنون الأدبية فالموسيقى في الشعر تنصرف إلى الوزن العمودي من البحور العروضية والقافية، والإيقاع في الفصصة والأقصوصة والمسرحية النثرية وفن السيرة

الأدبي ينصرف إلى جمال النسق في التعبير، وتسلسل الأحداث ونموها وتطورها تطوراً واقعياً، يترتب الحدث على الحدث حتى تأزم الأحداث في العقدة والأزمة مما يدفع القارئ إلى تشوق الحل واستعجاله. والإيقاع في المقال الأدبي ينصرف إلى روعة التصوير الأدبي، وقصر الفقرات والجمال، ووضوح المعاني وجللاء الأفكار.

وهذا المفهوم للأدب الإسلامي، على النحو السابق، يلزم منه ارتباط الأدب بمضمون معين يستمد روافده من التشريع الإسلامي، وهذه قضية على جانب كبير من الأهمية في تحديد نظرية الأدب الإسلامي لضرورة مناقشة عدة قضايا، لا بد من التعرف على خصائصها، وارتباطها بالأدب، وهذه القضايا هي:

- ١ - التجربة الشعرية في الأدب الإسلامي.
- ٢ - التمييز بين التقليد والتجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة، ومواقف المستشرقين والمستغربين من ذلك.
- ٣ - المناسبات الأدبية.

وبتوضيح هذه القضايا والوقوف على معالمها ومناقشتها وتفنيد آراء المستشرقين والمستغربين حولها وردّ دعواهم الباطلة، تتجلى نظرية الأدب الإسلامي وتتضح معالمها الأدبية وأسسها الفنية.

أولاً: التجربة الشعرية

والتجربة الشعرية في الأدب الإسلامي لها خصائصها التي تميّز بها عن التجارب الشعرية العامة، فهي، وإن اتفقت معها في جوانب، فإنها تختلف عنها في جوانب أخرى.

فأما الجوانب التي نتفق فيها التجريبتان، أنهما تحدثان نتيجة لمفجر خاص عن نفس الأديب، وهذا المفجر إما أن يكون فكرة، أو حدثاً، أو مشهداً، أو فاجعة، أو إعجاباً، أو تقديراً وتأملاً، وما أشبه.

وأنهما معاً نتيجة افتعالٍ لهذا المفجر، يتجاوب مع العاطفة القوية، التي تتخذ الشكل المناسب للمفجر، والغرض الأدبي الذي يتلاءم معه.

وأن موطنها واحد وهو نفس الأديب حين تتحرك الخواطر والمشاعر من منطقة اللاشعور في النفس إلى منطقة الشعور موطن العقل والخيال.

وأما الجوانب التي تختلف فيها التجريبتان: التجربة في الأدب الإسلامي والتجربة في الأدب العام، فتكون على النحو التالي:

١ - ما يتصل بالتراث الإسلامي العربي هو غني بعلوم الإسلام ومعارفه، وحضارة الشريعة وقيمها، وثراء اللغة والاشتقاق والعروض والقافية، التي ترجع في النهاية إلى المصدرين الكبيرين القرآن الكريم والسنة الشريفة.

أما حقل التجارب الأدبية العامة فهو عامر بغير ذلك من الثقافات والمعارف الغربية عن الإسلام، وعن لغته العربية لغة القرآن الكريم، كما هو الشأن عند المستشرقين وتلامذتهم من العرب الذين كانوا ولا زالوا أبواقاً لهم في عالمنا العربي والإسلامي، أو كالشأن في المتغربين الذين طعموا من فئات الغرب وفضلاتهم الزائفة، وكرعوا من سمومهم القاتلة ليكونوا جميعاً وسيلة من وسائل الغزو الفكري للإسلام والمسلمين في العصر الحديث.

٢ - الخيال متزن ومتوازن في الأدب الإسلامي، لأنه مشدود إلى عقل المسلم، يضبطه ويوجهه ويسد خطاه، ويحدد انطلاقه، فليس خيلاً جموحاً ولا محلقاً في برج عاجي بعيد عن الحياة والناس، ولكنه خيال يسير مع العقل جنباً إلى جنب، ليعيش مع الواقع ويساير الناس في اتجاهاتهم، ويتجاوب معهم في قضاياهم ومشاكلهم.

لكن الخيال في التجارب العامة قد يكون شروداً ينطلق بصاحبه إلى آفاق بعيدة عن الحياة والناس، ويجعل الأديب من طبيعة أخرى فوق الأحياء جميعاً، كما جنح بالشعراء الغربيين في مذاهبهم: «السيرالية» و«البرناسية» وغيرها من المذاهب التي تجافت مع الواقع والناس.

٣ - مقياس الصدق الفني أيضاً يختلف في التجريبتين، فالتلاؤم في تجربة الأدب الإسلامي يتم بين المشاعر والعواطف والخواطر، وبين البناء الفني للنص الأدبي القائم على :

- اللفظ العربي الفصيح والصحيح، والأسلوب المحكم والنظم الدقيق.
 - الصورة المتوازنة الموحية القوية.
 - المعاني والأفكار والأغراض التي تنبعث من القيم الإسلامية في شتى المجالات بعد امتزاجها بوجدان الشاعر وعواطفه.
 - الإيقاع والموسيقى العمودية التي تنبعث من تراثنا العربي الأصيل.
- بينما الصدق الفني في التجارب الأدبية العامة غير ما سبق؛ فالتلاؤم فيه قد يتم بين المشاعر والخواطر والعواطف وبين البناء الفني للنص الأدبي الذي قد يتصف بما يأتي :

- * اللفظ العامي الخاطي الملحون والأسلوب المبتذل الركيك.
- * الصور المجنحة المسرفة في المبالغة والإغراق.
- * الإيقاع الهابط مثل الشعر الحر وشعر التفعيلة.
- * المعاني والأغراض الهابطة عن القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة كالإلحاد والبوذية والمارقة والمادية والمسرفة.

ومع ذلك يتحقق الصدق الفني في التجربة، لأن هذه الأخطاء والسقطات تنفق تماماً مع حقل الشاعر في الأدب العام في مشاعره ووجدانه ولا حيلة له في هذا الأمر، لأنه يفرغ ما في جعبته، ويعبر بصدق عما في نفسه.

هذه هي أهم خصائص التجربة في الأدب الإسلامي كما نراها لكي يتميز أدبها عما سواه من الأدب العام، وبذلك تكون له شخصيته المتميزة التي يستقل بها، لتقيم أدباً إسلامياً جاداً له، يكون له دور كبير في أداء رسالته نحو شريعة الإسلام ونشرها والدعوة إليها والجهاد في سبيلها وتثبيت القيم والخلق الإسلامي لتتمكن من قلوب المؤمنين.

ثانياً: بين الحرية والالتزام وموقف المستشرقين والمستغربين

لكي تتضح نظرية الأدب الإسلامي ومعالمها في العصر الحديث، كان من الضرورة أن نوضح مدى ارتباطها بتراثنا العربي الإسلامي القديم، ومدى تجاوبه معه، والتزامه بقواعده وأصوله وأأسسه، وتحرره من كل ذلك، وهذا يؤدي إلى توضيح الموقف من التقليد، والتجديد والأصالة، والعراقة والمعاصرة.

ويقتضي تحديد علاقة الأدب الإسلامي بالعصر ومعاصرة الأحداث الإسلامية، وصداها فيه، وهذا يؤدي إلى توضيح قضية الالتزام والحرية والتحرر، وقضية المناسبات الأدبية.

وفي هذه القضايا دس المستشرقون أنوفهم كعادتهم وتبعهم تلامذتهم من الغرب المستغربين، ليدلوا برأيهم فيها بنظرات مغرضة مسمومة، تطل منها العداوة والحقد على الإسلام، وهذا أيضاً يقتضي تعرية مواقفهم وتجلية الأخطاء في آرائهم ووجهات نظرهم المغلفة المدمرة.

١ - التقليد

في التراث العربي الإسلامي أدب إسلامي غزير بشقيهِ الشعر والنثر الأدبي، يصور الغزوات والفتوحات الإسلامية مثل شعر عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وعمورية أبي تمام وغيرها. ومن النثر الأدبي أحاديث الرسول ﷺ وخطبه وخطب الصحابة رضوان الله عليهم ووصاياهم المتعددة الأغراض والفنون مثل وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، حين وجهه على رأس الجيش الإسلامي في فتوحاته، وغيرها من الصور الأدبية التي تعبر عن قيم التشريع، أو الحضارة الإسلامية، وقد اتسع لها الشعر والنثر الأدبي في مختلف العصور: الأموي، والعباسي، والدويلات حتى في خلال الحكم العثماني للأمة الإسلامية.

وحينما يلتزم الأديب هذا الأدب الإسلامي في التراث القديم ويسير على نهجه مقلداً، فهل يكون عمله الأدبي تقليداً؟ هذا يحتاج إلى تجلية وتوضيح .

فالتقليد الأعمى، الذي يجعل الشاعر يدور في فلك التراث القديم بلا افتعال ومشاركة بالوجدان للأحداث المعاصرة، وبلا تجارب مع اصداؤها وإنما يقوم بنقل القديم في أسلوب هابط، يهيم فيه بالزخرف والتكلف والتصنع، مع ضحالة الفكرة وضعف المعنى وغموضه، فهذان الأدب والشعر مرفوضان في الأدب الإسلامي الحديث، وهو التقليد الأعمى الذي لا نقبله فيه بحال وسماء العقاد: التقليد للتقليد كما سيأتي .

وإذا كان التقليد محكماً، يتبع فيها الأديب منهج السابقين فيتناول المعاني بأسلوبهم وخيالاتهم، لكنه يفيض عليهم من شعوره إذا كان العمل الأدبي شعراً، أو يقوم بالتنسيق والتبويب مع قدم المعاني والأسلوب إذا كان العمل الأدبي نثراً، فهذا مقبول في الأدب الإسلامي الحديث، وسماء العقاد التقليد المحكم . وذلك مثل قصيدة البارودي «كشف الغمة في مدح سيد الأمة»، فهي شعر إسلامي يصور سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته حتى وفاته، عارض فيها الشاعر بردة البوصيري، وهي وإن كانت من شعر المعارضات والتقليد، لكنها معارضة قوية للشعر القوي وتقليد محكم برزت فيها شاعرية البارودي، ودلت على قدرته في صياغة الشعر.

ويميز العقاد بين مراحل تطور الشعر عند البارودي فيقول^(١):

أولها: دور التقليد الضعيف، أو التقليد للتقليد،

وثانيها: دور التقليد الذي للمقلد فيه شيء من الفضل، وشيء من

القدرة . .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، عباس محمود العقاد ص ١٢٠، الطبعة الثالثة، القاهرة.

وثالثها: الابتكار الناشئ عن شعور بالحرية القومية...

ورابعها: الارتكاز الناشئ من استقلال الشخصية أو من شعور بالحرية الفردية.

وعلى ذلك فال تقليد المحكم في الأدب الإسلامي الحديث للتراث القديم ليست مرحلة مرفوضة رفضاً كاملاً، وإنما يمثل في نظرنا المرحلة التي تسبق التجديد والأصالة والمعاصرة، ولها ميزانها النقدي، الذي يكون دون المستوى المطلوب، ومرحلة التقليد المحكم كان لا بد منها في أدبنا الإسلامي.

رأينا أن قضية الالتزام والحرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحديث عن التجديد والأصالة والعراقة والمعاصرة؛ وهذه المصطلحات في الأدب والنقد تكاد تلتقي في مفهومها ومعانيها، إلا أن بينها خيوطاً رفيعة هي التي تميز الواحد عن الآخر. ويظهر هذا التمييز في ميزان المقابلات. فحينما نذكر التجديد يقابله التقليد، وحينما نذكر الأصالة يقابلها الوافد على ذات الشاعر وحضارته الإسلامية العريقة، وحينما نذكر العراقة يقابلها الغريب والمعاصر، ومن خلال هذه المتقابلات يمكن التمييز بين المصطلحات النقدية الأدبية السابقة على النحو التالي كما وضحنا التقليد.

٢ - التجديد:

التجديد أقدم المصطلحات النقدية في العصر الحديث بعد التقليد، لأنه كان رد فعل للتقليد الذي هو أول مراحل التطور في الأدب الحديث، ثم تتابعت المصطلحات الأخرى بعد التجديد مثل: الأصالة، والعراقة، والمعاصرة، والالتزام والتحرر، وغيرها.

والتجديد هو تطويع ما يجول في العصر الحديث بما يتناسب مع الموروث الحضاري عن الحقب السابقة، فالقديم الصرف ليس جديداً، إلا إن استمد الشاعر من روافد القديم، وعمقها في حياته المعاصرة بما ينداح من

هذه الروافد، ويناسب متلائماً معها، ولا يناقضها، أو يختلف معها، حتى لا يصطدم مع التيار القديم في روافده وحينئذ يُسمى تجديداً.

فالتجديد تطور وبناء، وليس تقليداً ولا هدماً، وهذا ما قام به النقد الحديث، فقد جعل التجديد يقوم على تطويع القديم ومدى الاستجابة للمعاصر والجديد.

فالمجددون حينما يثرون على القديم لا يرفضون، وإنما يرفضون الساقط منه والرديء، وحينما يهتمون به إنما يعنون بما هو جدير بالبقاء، وهم يتطلعون إلى التجديد لأنهم يحبون التطور والاستحالة، والجديد يدفعهم إلى الاتصال بالغرب والأخذ عنهم^(١).

وهذا قول غير مسلم به على إطلاقه، فليس معنى التجديد الأخذ المطلق من الغرب، لأن الحضارة الإسلامية تختلف في قيمها واتجاهاتها عن ثقافة الغرب، التي تختلف كثيراً في جوانبها. «ولكن مسار التاريخ العربي والإسلامي يختلف عن مسار التاريخ في أمم الغرب. إذا فلا يجب أن يكون حاضر ثقافتنا صورة من ثقافة الغرب بل لا يمكن أن يكون كذلك»^(٢).

وهذا أقرب إلى قول بعضهم: «وهذه نتيجة طبيعية إذا سلمنا بأن التجديد تطور واستحالة، لأن التطور عملية حيوية تسير وفق نمط خاص بالكائن الحي، وليست نقلاً عن كائن حي آخر»^(٣).

ومن أشكال التجديد في الأدب الإسلامي، الذي اتخذ منهجاً جديداً، وطريقة جديدة تتناسب مع العصر في العرض والأداء، مع الاحتفاظ بالجواهر والقيم في الحضارة الإسلامية، ورعاية التراث العربي الإسلامي القديم مثل: كتب فن السيرة التي سائرت عصر التطور والتجديد في الأدب كما حدث في

(١) حديث الأربعاء، طه حسين، ص ١٣.

(٢) ثورة الأدب، محمد حسنين هيكل ص ٢٥، القاهرة ١٩٤٨ م.

(٣) الرؤيا المفيدة، د. شكري عياد، ص ٢٥، القاهرة ١٩٧٨.

عبريات العقاد: عبقرية محمد، عبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية خالد وغيرها.

وكذلك من الشعر «الإلياذة الإسلامية» للشاعر أحمد محرم، فليست مثل خرافات وأساطير هوميروس، ولكنها تقوم على حقائق الإسلام وبطولات الرسول ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم.

ومن الشعر الإسلامي الجديد أيضاً الشعر القصصي، مثل: قصيدة «هزيمة الشيطان»، وقصيدة «عام جديد»، وكلاهما من الهجرة الإسلامية للشاعر علي محمود طه، وكذلك الملحمة القصصية: «أمير الأنبياء» للشاعر عامر بحيري، والملحمة الإسلامية «دول العرب وعظماء الإسلام» للشاعر أحمد شوقي، و«ملحمة الجهاد» و«ملحمة النصر في ١٠ رمضان» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وغير ذلك كثير في أدبنا العربي الإسلامي الحديث، الذي اتسم بطابع التجديد لكنه ما زال موصولاً بالتراث العربي والإسلامي وصلاً تاماً ومربوطاً به ارتباطاً وثيقاً.

ولا يعني قول المستشرقين وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ العرب المستغربين أن هذه ليست ملاحم، ولا قصصاً، ولا فنّاً، للسّير الأدبي لأن الخيال لم يسيطر عليها، ولم يخرج بها عن واقعها وحقائقها في الوجود التاريخي، بل غرب الخيال الأسطوري عنها، وسيطرت الحقائق على هذه الفنون الأدبية، لا يعني هذا الاتهام في شيء، ولا يعوقنا عن المضي في التجديد على النحو الذي يتناسب مع قيمنا وحضارتنا الإسلامية العريقة، التي من أجل خصائصها أنها تعتمد على الحقائق لا الخرافات والأساطير والأوهام، لأن لكل مجتمع اتجاهه، ولكل حضارة سماتها وسموها وخاصة إذا كانت الحضارة هي للإسلام، التي جاءت لتبني الأمة الإسلامية في كل عصر، وفي كل جيل.

٣ - الأصالة :

هي التعبير عن ذات الأديب بالأصالة عن نفسه، وحينما يعبر عن ذاته ونفسه، لكي يكون أدبه أدباً أصيلاً، لا بد أن تتشكّل الذات والنفس في بناء

فردى وقومى وإسلامى حضارى يساير كل عصر، يترسب فيهما، وتمتزوج بهما، فلا تنفك عنها، حتى تصير الذات والنفس هي القيم ذاتها، فهما خليط من شخص الشاعر وقوميته وحضارته الإسلامية، فإذا عبر عن ذلك في شكل أدبي صار فناً أدبياً أصيلاً، وصحَّ أن نطلق على منشئه الشاعر الأصيل، وعلى أدبه الأدب الأصيل، هذا هو معنى الأصالة وهو موصول بالمعنى اللغوي للكلمة كما وردت في معاجم اللغة: فالأصل: بمعنى أسفل كل شيء ومجد أصيل: أي ذو أصالة.

وقد اختلف النقاد حديثاً منذ الخمسينات في تحديد مفهوم الأصالة، فتارة يفسرونها بعدم التقليد، وتارة بالابتكار، وتارة بالذاتية، وتارة بالعراقة وتارة باجتماع الذاتية والشخصية.

فالدكتور إبراهيم السامرائي يعتبر أن الأصالة هي الابتكار، وعدم التقليد، حين يوضح أصالة الشاعر الجواهري فيقول: «وربما لا نعدم أن نجد في شعر الجواهري آثار هذه المدرسة الفنية على الرغم من أصالة الجواهري في الشعر وقدرته على الابتكار في نطاق الشعر المعروف». ويقول في أصالة الزهاوي: «الزهاوي يعتمد في ثقافته على ما ثقفه من الثقافة الشرقية لا العربية والإسلامية، وعلى ما جد من أفكار ونظريات في العلم الحديث المنقول إلى العربية، ومن هذا المزيج تكوّن فكر الزهاوي، ولكنه ظلّ محتفظاً بطابع الأخذ والتبعية، مفتقراً إلى الأصالة والطبع»^(١).

وأما توفيق الحكيم فحينما يفسر الأصالة بمعنى الابتكار بعد النقل والمحاكاة وهي التقليد، فيقول عن فن التمثيل العربي هو: «المسار الطبيعي لكل فن بشري. يبدأ الفن دائماً من النقل، وينتهي إلى الأصالة، يبدأ من المحاكاة وينتهي إلى الابتكار...»^(٢).

(١) لغة الشعر بين جيلين، ص ٣٠ - ٤٧، بيروت.

(٢) قالينا المسرحي، ص ١٠، القاهرة ١٩٦٧.

وحيثما يفسر الأصالة بالعراقة يقول: «وإن ما يسمونه العراقة في شعب ليس أفضاله المتوارثة... وإن الأصالة في الأشياء والأحياء هي ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة كابراً عن كابر، وحلقة بعد حلقة. وهكذا يقال في شعب أوجزل أوجواد، وهكذا يقال في فن أو علم أو أدب. عراقة الأدب هو طابعه المحفوظ المنحدر إلينا من بعيد»^(١).

ولست متفقاً مع الحكيم في إطلاق الأصالة بمعنى العراقة أو تساويها في المعنى تماماً، بل الأصالة تتمثل العراقة من جانب واحد فقط، وتفترق عنها في جانب آخر، فأما الجانب الذي يلتقيان فيه حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من القيم النبيلة، والفضائل المتوارثة من الماضي العريق؛ وأما الجانب الذي تنفصل فيه العراقة، ولا تلتقي مع الأصالة، حينما تستمد أصالة الشاعر روافدها من تراث الأمة المنحل، فلا ينبغي أن نصف هذا العمل الأدبي بالعراقة، وإن صحَّ أن نطلق عليه أدباً أصيلاً، وعلى هذا فالعراقة أخص من الأصالة، وليست هي مساوية لها تماماً كما ذكر ذلك الحكيم.

وفسر العقاد الأصالة بمعنى الابتكار الناشئ من شعورين:

أحدهما: الشعور بالحرية القومية...

وثانيهما: الشعور الناشئ عن استقلال الشخصية، أي الشعور بالحرية الفردية^(٢).

فالعقاد يميز بين الفردية والقومية، ويجعل كلاهما مرحلة، وتكون الفردية عنده هوقمة الابتكار، وليس التمييز هنا من باب الاستبدال والمغايرة ولكن من باب الاستحالة والتطور، وإنما تتحول إلى فردية وشخصية على

(١) الملك أوديب، ص ١٤، القاهرة.

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٢٠.

حسب تعبيره، أو ذاتية على أساس تعبير الدكتور محمد حسين هيكل حين عبر عن الأصالة بقوله: «بروز الذاتية»^(١).

فالفردية عند العقاد هي قمة الأصالة والابتكار، وهي تجمع بين التراث القومي والمؤثرات الوافدة، على أساس من الاستقلال والاعتداد بالرأي. يكشف العقاد عن هذا بقوله:

«وكان الأدباء المصريون، الذين ظهرُوا في أوائل القرن العشرين يعجبون بهازلت ويشيدون بذكره، ويقرأونه ويعيدون قراءته يوم كان هازلت مهملاً في وطنه مكروها من عامة قومه، لأنه كان يدعو في الأدب والفن والسياسة الوطنية إلى غير ما يدعون إليه، فكان الأدباء المصريون مبتدعين في الإعجاب لا مقلدين ولا مسوقين، وأعانهم على الاستقلال بالرأي، عندما يقرأون الآداب الأجنبية أنهم قرأوا أديهم قبل ذلك وفي أثناء ذلك، فلم يدخلوا عالم الآداب الأجنبية مغمضين أو خلوا من الرأي والتميز»^(٢).

وهذا نفسه هو ما اتجه إليه الدكتور شكري عياد حينما وضع مفهوم الأصالة، ولا يفترق كثيراً عما وضعه العقاد سابقاً من أصالة الأدباء المصريين حين تأثروا بالتيارات الأجنبية، فقد احتفظوا بتراثهم العربي القديم، وقرأوا أدب هازلت بعد أن تمكنوا من تراثهم، وخرجوا برأي مستقل هو في نظر العقاد «الأصالة» بعينها. وهذا هو نفسه مفهوم الأصالة عند الدكتور شكري حين يقول عنها: «إنها تمت بنسب قريب إلى الموقف الحضاري الذي تعيشه الأمة العربية الآن بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها». ويقول أيضاً في مكان آخر عن مفهومها: «ولكننا نرى أن القومية والفردية صفتان تجتمعان في الأدب المبتكر بنسب متفاوتة، والأدب المبتكر يوصف بالأصالة على الاعتبارين، فيكون معبراً عن الخصائص القومية للشعب الذي أنتج فيه واللغة التي كتب بها، كما يكون معبراً عن ذات صاحبه، التي تجعل ما ثقفه من تراث لغته،

(١) ثورة الأدب، ص ٩، القاهرة.

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ص ١٩٢.

وما أفادت من ثمرات الثقافة الأجنبية عناصر جديدة تذوب في كيان جديد مختلف عن سابقه... فإننا نستطيع القول بأن الأصالة تلخص مشكلة الثقافة العربية المعاصرة^(١).

وواضح أن الأصالة بهذا المعنى الذي أتجه إليه العقاد لا يتفق مع ما نبتغيه من الأصالة في أدبنا الإسلامي، لأنهم لا يقصدون بالقومية التي ذابت في الفردية، أو الذاتية هي القومية الإسلامية، وإنما يريدون بها القومية العربية، وهذا ما لا يصح أن نطلقه على أصالة الأدب الإسلامي، وإنما الذي ينبغي أن يطلق على الأصالة فيه هو ما وضحته منذ البداية، وهو أن تذوب الحضارة الإسلامية بقيمها ومبادئها السامية في ذات الشاعر ونفسه ويصير كل منهما مزيجاً من هذه الحضارة، وهي بطبيعتها تسير كل عصر وتتجاوب مع كل حين، لأنها قيم ثابتة صالحة لكل زمان ولكل جيل.

وبذلك نخرج بهذا المفهوم العتيق المحدود للأصالة عند النقاد إلى ما وضحته من المفهوم الشامل العميق الذي يتجاوب مع المكان والزمان، والشاعر هنا أيضاً يعبر عن الذاتية أو الشخصية أو الفردية التي يعنيها النقاد، ولكنها تختلف في تفسيرها وتوضيح معالمها وأسسها التي تقوم عليها فيما اتجهت إليه، وهذا التفسير يختلف عما اتجهوا إليه.

والأصالة في الحضارة الإسلامية تختلف عن الأصالة التي يعنيها «فيشته» في أدب الغرب فيرى أن الأدب الأصيل غير الزائف هو الذي يقف على آداب لغته، وأن يحيط بعلوم عصره وفلسفته وآدابه، ويحقق من الحق والجمال على قدر بلوغه منها. يقول فيشته: «والحق والجمال اللذان هما غاية الأدب بوصفه جميلاً ينكشف للناس من صورهما في كل جيل، ما لم يكن معروفاً في الجيل الذي سبقه، أو يختلف عما كان معروفاً في الجيل الذي سبقه، وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الأجيال المختلفة في

(١) الرؤيا المفيدة، ص ٢٧ و ٢٤.

اللغة الواحدة، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة، ولذلك كان لا مفر لمن يريد أن يكون أديباً حقاً، أديباً أصيلاً، غير زائف، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً، وأن يحيط ما استطاع بعلم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة، وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى إلى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل، وإلى تبليغه للناس في صورة أقرب إلى الكمال، مما أوتي مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه^(١).

وهذا المفهوم للأصالة في الأدب الغربي لتحقيق الغاية منها، وهي الخير والجمال، تختلف في قيمها ومبادئها عما نشده من تحقيق الأصالة في أدبنا الإسلامي، فلها قيمتها ومبادئها النابعة من حضارة الإسلام لا الحضارة الغربية، وتختلف أيضاً من حيث الأداة واللغة، فلا تعنيها اللغة وإنما تعنيها آداب اللغة، لتصل إلى الناس في صورة أقرب إلى الكمال نابعة من مواهبه لا من علمه وعلمه ولا من لغته الخاصة بقومه البليغة.

أما الأداة واللغة في أصالة الأدب الإسلامي فهي نابعة من فصاحة اللغة ودقة مخارجها ولطف أسرارها. وهذا يقتضي أن يكون الأديب عالماً باللغة العربية وأسرارها وبلاغتها، فلا يعتمد على الموهبة التي تأثرت بالوافد وحدها، لأن التأثير قد يكون باللغة الأجنبية مختلطة بالعربية، أو يكون باللغة العامية لا الفصيحة، وهذا ما يقع فيه المستغربون من العرب وغيرهم من المستشرقين، مثل الدكتور طه حسين فيرى أن التحرر من اللغة في مجال الأدب أمر متعارف عليه في الأمم الغربية، لأن للدين لغة وللأدب لغة ولهجة أخرى، وهذا القول يتنافى بالتأكيد مع الأصالة في أدبنا الإسلامي، لأنها مرتبطة بلغة الإسلام اللغة العربية البليغة الفصيحة. انظر إلى قوله:

«وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون، وليست أقل منا إثارة لدينها، ولا احتفاظاً به، ولا حرصاً عليه، ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها، ولها في

(١) ثورة الأدب، د. محمد حسين هيكل ص ٢٧ و ٢٨.

الوقت نفسه لغتها الدينية التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي منها صلواتها، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع، وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية، ولا تفهمها، ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم، ولغتها الدينية هي اللغة العربية، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام وإكباراً له وزياداً عنه وحرصاً عليه...»^(١).

فالدكتور طه حسين يرى أن للدين الإسلامي لغته وهي اللغة العربية وللأدب لهجة أخرى ولسان آخر غير العربية، ولا أدري أيريد بذلك غير لغة العرب من اللاتينية التي أحبها أو اللغات الأجنبية الأخرى، أم يريد لهجة الناس العامة الشائعة، لتصير هي لغة الأدب المعاصر، لا أدري ماذا يقصد؟ أحلاهما مرًا... كما يقولون.

٤ - المعاصرة:

والمعاصرة والقدم متقابلان، فإن تجاوب الأديب مع ثقافة العصر، واعترف منها بما يحقق رغباته الذاتية، ونبضت تجاربه الأدبية المعاصرة بثقافة العصر، التي يُثري بها تصويره الأدبي، أطلق على هذا الأدب أدباً معاصراً. فقد تجمعت فيه روافد المعاصرة، بعد أن امتزجت بالروافد الأصيلة في نفسه، واتخذت مجرى واحداً يغذي الحياة والناس بما يتناسب مع عصرهم الجديد، وما يحدث فيه من تطور وتقدم ورقّي.

ومفهوم المعاصرة هذا يلتقي مع الأصالة إذا ميز الأديب بين الغث والسمين، ليتجاوب السمين منه مع المخزون الأصيل في ذات الشاعر وينبذ الغث من التيارات المعاصرة، لأنها لا تنسجم مع أصالته وعراقته.

ويلتقي أيضاً مفهوم المعاصرة مع التجديد، حينما يحيل الشاعر

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ص ٢٣، دار المعارف ١٩٤٤.

التيارات المعاصرة إلى ما يستجيب مع الموروث الحضاري، فيظهر العمل الأدبي في شكل جديد، يجمع بين متطلبات العصر، لكنها من خلال القيم الموروثة من تراثنا القديم.

وعلى هذا فالمعاصرة محيط زاخر تنبع منه الأصالة والتجديد، والعراقة والتحرر وغيرها، لكنها، كما رأينا، تختلف فيما بينها حين تشكل المأخوذ من هذا المحيط بما يتناسب مع كل مصطلح من المصطلحات السابقة فيصير هذا الأدب أصيلاً، أو جديداً، أو متحرراً، أو غير ذلك.

وقد لاحظ الدكتور شكري عياد احتكاكاً أو تصادماً بين مفهوم الأصالة ومفهوم المعاصرة فقال: «لقد انتهينا إلى أن الأصالة تتضمن معنى الديمومة والاستمرار، أما المعاصرة فعلى الرغم من استعمالها المبهم من حيث التحديد الزمني، فإن معناها يتضح بملاحظة نقيضها وهو القدم، ومن هنا يبدو أن المعاصرة تمثل جانب الحركة التقدمية في مركب الديمومة الذي يكون الأصالة... إذن فالتصادم الذي يبدو أحياناً بين الأصالة والمعاصرة إنما يرجع إلى نسيان عنصر الحركة في الأصالة، أو نسيان انتماء المعاصرة إلى مركب الديمومة، وعندى أن خير تحديد للمعاصرة هو البدء بالحاضر^(١).

ويوم تقوم المعاصرة على هدم القديم كله، بل هدم الذي يسير على نمط القديم، تكون على هذا النحو هدماً لا بناءً، وتدميراً لا تطوراً وتجديداً، وهذا ما وقع في خطورته الشاعر خليل مطران، حينما تفاخر بمعاصرة الشعر الذي يقوم على أنقاض القديم يقول ما نصه:

«هذا شعر عصري وفخره أنه عصري، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر، هذا هو شعر ليس لناظمه بمبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده^(٢).

(١) الرؤيا المفيدة، ص ٢٩.

(٢) ديوان خليل مطران ج ١، صدر عام ١٩٠٨ م.

٥ - بين الالتزام والحرية وبين التحرر

التمييز بين مفاهيم التقليد والتجديد والأصالة والمعاصرة يَسُرُّ لنا الحديث عن قضية الحرية والالتزام، وساعدنا كثيراً على توضيح معالم الحرية والالتزام أو التحرر، فكل منها لها ارتباط وثيق بالتقليد أو التجديد أو الأصالة أو المعاصرة.

وقضية الحرية والالتزام تناولها الكثير من النقاد العرب والمستشرقين انتهوا فيها إلى اتجاهين:

أولاً: إن الأدب الجيد هو الذي لا يلتزم فيه الأديب بشيء من واقع عصره، ولا يرتبط بمشاكله وقضاياه، بل يعبر فيه عن ذاته ومشاعره متجرداً عما يدور في الحياة من معالجة لمشاكلها ووضع الحلول لقضاياها العديدة، وعلى ذلك فلا ارتباط بين الأدب والحياة. ومن هنا نشأت المذاهب الأدبية الغربية الحديثة كالرومانسية والسيرالية والبرناسية، ومذهب الفن للفن، والأدب للأدب، فهذه المذاهب تجردت من معالجة المشاكل في الواقع، وعزلت الشعراء عن الحياة والناس، وحينئذ يكون الأدب حراً وليس مقيداً ولا ملتزماً.

ثانياً: إن الأدب ينبغي أن يكون ملتزماً، وليس متحرراً كالاتجاه الأول بل ينزل الأديب إلى الحياة والناس، ليعيش مع مشاكل العصر وقضايا الحياة، فيتجاوب معها، وتتردد أصداؤها في نفسه الشائرة فيصورها، ويتجه الناس إليها، ويشاركهم في وضع الحلول لمشاكلها ويبحث عن الدواء الناجع لها، وهذا ما يُسمَّى بالأدب الواقعي أو المذهب الواقعي أو الأدب للحياة، أو الفن للحياة، أو الأدب الملتزم.

ولكل من هذين الاتجاهين عشاقه ورواده، ولكني لست من هؤلاء ولا أولئك. فلا أعترف بالحرية في الاتجاه الأول، بل أسميه تحرراً؛ ولا أوافق الاتجاه الثاني في فهمهم وتفسيرهم للالتزام، لأنهم جردوه من الحرية للأديب. ولذلك وضعت عنواناً لهذا الموضوع يدل على مرادي، وهو

الالتزام والحرية هما معاً في مقابل التحرر، فالالتزام والحرية كُلٌّ لا يتجزأ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر أمام التحرر من الالتزام والحرية معاً. وهذا ما ينبغي أن يقوم عليه التفسير للأدب الإسلامي في العصر الحديث: فهو أدب يقوم على الالتزام والحرية معاً ويسمو عن «التحرر» ويتجافى معه، وسنوضح القول في ذلك حتى يتميز هذان المتقابلان تميزاً فاصلاً من وجهة نظرنا.

قبل أن نحدد معنى الالتزام ينبغي أن نفرق بين الحرية والتحرر: فالتحرر هو الخروج على القيم والأصول، والتخلص مما يتصل بالتراث القديم، ومما يمتُّ إليه من أصالة وعراقة، فيتحرر الأديب من الأسلوب والمنهج والتصور الأدبي والوزن والقافية في التراث القديم، ويتحرر من كل الروابط التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان. ومن كل القضايا والمشكلات التي تربطه بالحياة وبالإنسان. فالتحرر ينسلخ من ماضيه ومن حاضره، ليعيش في برجه العاجي مستغرقاً في (هبولاته) وأحلامه وآماله وهو يلهث من سراب إلى سراب، ويغوص في أعماق الأوهام والخيالات بلا قيود ولا ضابط، أو عقل يضبطه ويسدد خطاه، هذا هو أدب التحرر بسماته وخصائصه.

أما الحرية فهي على نقيض التحرر: فحقيقة الحرية لا تتشكل إلا في معيار العقل المضبوط والفكر السديد، ويوم أن يجمع العقل ويشرد الفكر، لا يتصف صاحبه بالحرية، بل بالتحرُّر والجنون، أما إذا انضبطت المشاعر والخواطر والخيالات في النفس بالعقل والفكر اتسم العمل الأدبي بالحرية، لأنه تحرر من الطيش والإغراق في الأوهام وتحرُّر أيضاً من الجنون والخروج عن المألوف في نظر العقول والأفهام، ومن هنا كانت الحرية مقيّدة بالعقل والفكر السديد، بينما التحرر انطلاق عن حدود العقل، وجموح عن الخيال، والجموح شرود في الأوهام.

والحرية بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من الالتزام، فإذا قلنا بأن الأدب الإسلامي ملتزم، ليس معناه أنه مجرد من الحرية، التي يجب أن تتحقق في

الشاعر عند النقد، بل التزام الأديب في أدبه معناه: أن أدبه ينبع من الحرية الملتزمة بواقع الحياة التي يعيشها الشاعر في إطار تجاربه الشعرية، التي تحررت من الجموح والشروء بالتوازن بين العقل والخيال.

والالتزام بالقيم والقواعد والأصول في التراث العربي الإسلامي، أو الالتزام بوضع الحلول وعلاج المشكلات المعاصرة، لا يتحقق إلا من خلال الحرية التي يسددها العقل والخيال معاً هذه المشاكل، ووضع الأمور في نصابها، كالحرية في عتق العبد الرقيق ترده إلى نصابه الطبيعي في الحياة، ليعود إنساناً ملتزماً بقيود الحياة ومعاييرها في ظل تسديد العقل وحكمته، وليس معنى ذلك أنه تحرر من هذه القيود وتلك المعايير، وإلا كان خارجاً عن حدود الإنسان الحر إلى صفة الجنون أو التحرر المطلق عن نصاب الإنسانية المتعارف عليها بقيمتها وحدودها.

وبهذا المفهوم للالتزام والحرية معا يجب أن يكون الأدب الإسلامي ملتزماً بمعنى أن له قيمه ومبادئه وأصوله ومعالمه وأسسَهُ وروافده التي بها يعيش مع الحياة والناس في قضاياهم ومشاكلهم وأحداثهم ومعاركهم واقتصادهم وجهادهم وسياستهم وعلومهم وتقدمهم وفكرهم وآمالهم وآلامهم، ليصورها من خلال هذه القيم، ويعالج مشاكلها ويضع لها الحلول، ويوجهها إلى الحق والصواب، ويحدد النتائج ويصور النماذج الإنسانية الرفيعة، التي تلتزم بأخلاق الإسلام وآدابه، لكي يكون نموذجاً سامياً وقُدوةً صالحةً لغيره. وهكذا ينبض الأدب الإسلامي بما يجول في العصر من خواطر وأحداث ومشاهد ووسائل للتقدم والرفق والحضارة، ويتخذ من فنونه أسلحة ذات حدين يتوجه بأحدهما إلى المسلمين ليحثهم على التعمير والبناء للأمة الإسلامية، والأخرى يصد بها أعداء الإسلام الذين يتربصون به الدوائر في كل حين، وبذلك يكون الأدب الإسلامي في التزامه الحر متنوعاً في أهدافه، وتحقيق المراد منه.

ففيه أدب البطولات الإسلامية والإشادة بأمجاد الأمة، وتاريخها العريق وحضارتها الراسخة مثل ديوان «دول العرب وعظماء الإسلام»، للشاعر أحمد

شوقي، و«الأدب الإسلامي في القرآن والحديث»، و«الحضارة الإسلامية» للمرحوم سيد قطب والأستاذ محمد قطب وغيرهم. وفيه أدب السيرة النبوية والسيرة للصحابة والتابعين ليكون قدوة شاخصة أمام الجيل المعاصر وكل جيل، يتخذون منه نبزاً يضئ لهم الطريق مثل ديوان «من وحي النبوة» للشاعر محمد عبدالغني حسن...»^(١).

وفيه أدب التشريع والقيم الإسلامية التي جاء بها الإسلام ليطور الحياة ويسير بها قدماً دائماً لتحقيق العزة للإسلام والمسلمين ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) مثل: «ديوان الحق المبين» للشاعر خير الدين وانلي^(٣) وديوان «مع الله»، و«ألوان طيف» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري^(٤).

وفيه أدب الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي جاء بها الإسلام لتقيم به الأمة صروحها وحضارتها الحديثة، كما أقام السلف حضارتهم على أساسها، ولا زالت شاخصة في التاريخ على الرغم من تقادم العهد بها مثل شعر شوقي وحافظ وأحمد محرم والرصافي خاصة في قصيدته «يقولون» التي يصور فيه حضارة الإسلام.

وفيه أدب التقدم والبناء الاقتصادي والعسكري والاجتماعي للأمة الإسلامية، لتكون أقوى الأمم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٥)، وخاصة ونحن في عصر القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والعلمية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما قال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

(١) نشر مكتبة الآداب، ١٣٦٩ / ١٩٤٩.

(٢) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٣) منشور عام ١٣٩٩ / ١٩٧٩ م.

(٤) منشور عام ١٣٨١ / ١٩٦٢.

(٥) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

وفيه أدب الاعتزاز باللغة العربية وفصاحتها، وأنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، والشريعة الإسلامية، فالحفاظ عليها حفاظ على القرآن وعلى التشريع، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

وفيه أدب التضامن الإسلامي ووحدة الأمة الإسلامية، التي بها يتحقق النصر على أعداء الإسلام وخاصة الصهاينة والملحدين والشيوعيين والماديين الغربيين ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٢).

وغير ذلك من مجالات الأدب الإسلامي، التي يلتزم بها في العصر الحديث، فقوة الكلمة مثل قوة السلاح والمال والاقتصاد والسياسة سواء بسواء، وسنوضح ذلك بالتفصيل عندما نتحدث عن مضمونه الإسلامي وأغراضه وخصائصه وسماته التي ينبغي أن تتحقق فيه.

أما التحرر فهو مرفوض كل الرفض في الأدب الإسلامي، لأنه يتنافى مع قيمه وآدابه واسمه وأصوله، ومن أخطر قضايا التحرر على الأدب الإسلامي قضية أثارها المستشرقون وتبعهم تلاميذهم من العرب المستغربين... وتلك العوبة مسمومة تبناها المستشرقون وروجوا لها ووضعوا لها أصولاً وقواعد ونسبوها إلى مذهب أدبي ونقدي معاصر وهو «المذهب الواقعي» وغير ذلك مما ستراه.

ولا اهتمام المستشرقين بالعامية واللهجات المحلية الحدودية وحرب اللغة العربية الفصحى أنشأوا لها المدارس والمعاهد، والمجلات والجمعيات وألفوا لها الكتب بلغات أجنبية ونقلوها إلى العربية، ووضعوا فيها القواعد والأصول للهجة العامة واللهجات المحلية، حتى تكون لغة مشهورة بأصولها وقواعدها.

واهتم الأوروبيون بذلك فقد أنشأوا في عام ١٧٢٧م مدرسة نابولي للدروس الشرقية باللغة العامية، وفي عام ١٧٥٤ أنشئت مدرسة فيينا في

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

النمسا للغة العامية العربية، وفي عام ١٧٥٩م أنشئت مدرسة باريس للغات الشرقية في فرنسا، وحدث مثل هذا في إنجلترا وروسيا وألمانيا والمجر وغيرها.

وكان أول مؤلف أجنبي بالعامية هو «قواعد اللغة العامية في مصر» للدكتور ولهم سبيتا في عام ١٨٨٠ م، وترجمات بالعامية العربية لمؤلفات شكسبير، وتراجم للإنجيل بالعامية المصرية، وكتاب «الأكل والإيمان» ورسالة بعنوان «سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية»، وغيرها مما ألفه بالعامية وليم ولكوكس المبشر الإنكليزي^(١).

وصنع مثل هذا الصنيع المدمر المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون وتبعه الآباء اليسوعيون في لبنان وسوريا، مثل الأب رافائيل نخلة، الذي ألّف في الدعوة إلى العامية، وإلى الكتابة بالحروف اللاتينية لا العربية، وتبقى العربية لغة المساجد فقط، كما أن اللاتينية لغة الكنائس^(٢).

وباسم «مذهب الواقعية» في الأدب العربي نادى المستشرقون ومن تبعمهم بالعامية لا العربية الفصيحة، لتحقيق أهدافهم الهدامة للإسلام وهي:

١ - القضاء على لغة القرآن الكريم، فإذا ما اشتغل العالم العربي باللهجات العامية المحلية المحدودة شق عليهم فهم القرآن الشريف وكتب التراث الإسلامي، لأنها تعتمد على اللغة العربية الفصيحة.

٢ - قَطْعُ الصلات بين الشعوب الإسلامية، لأن لكل شعب لهجته الخاصة به، التي تتعلق أمام الشعوب الأخرى، فيتعسر عليه فهمها والتعامل بها، فتزداد الجفوة والتباعد بين دول الأمة الإسلامية الواحدة.

٣ - بَعْثُ النعرة الجاهلية والعصبية القديمة لكل دولة، فإنها ستعصب

(١) انظر كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ، مصطفى الخالدي، بيروت ١٩٧٠، كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية د. نفوسة ذكريا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٠٤، وغيرها.

(٢) نفس المراجع السابقة.

لحضارتها القديمة، فالعراق يمجّد الحضارة البابلية والأشورية، وسوريا تشيد بالحضارة الفينيقية، ومصر بالفرعونية واليمن بالحميرية، والمغرب بالبربرية، وهكذا كل دولة تنصرف عن الأخرى بالنعرة القديمة.

٤ - اللغة العربية الفصيحة لا يستطيع المستشرقون أن يقفوا على أسرارها، ولا أن يصلوا إلى لطائفها ومكنونها البليغ، فهم عاجزون عن فهمها والكتابة بها كما ينبغي، فلا يحسنون التعبير عن أفكارهم وسمومها بها، لذلك لجأوا إلى العامة لسبيين:

أولهما: إنها سهلة منقادة لأفكارهم المسمومة.

ثانيهما: إنها تمكنهم من تحقيق الصدارة لهم على العرب الذين يستعملون العامة في مؤلفاتهم، فيظلوا تابعين لهم ومقلدين لا مبتكرين، فهم عيال عليهم.

٥ - أنهم يغلفون دعوتهم باسم المذهب الواقعي في الأدب، لأن الواقعية في نظرهم أن يستخدم البطل في القصة لغته العامة في الشارع وكذلك بقية الشخصيات، فيستخدمون اللغة التي يتعاملون بها مع الناس لكي يكونوا واقعيين؛ فالحداد يتكلم بلغة الحدادين، والنجار يتكلم بلغة النجارين، والخباز يتكلم بلهجة الخبازين... وهكذا.

وتلك مغالطة سافرة ومسمومة في فهم الواقعية، وليست الواقعية في الأدب كما يزعمون، فالمقصود منها في القصة مثلاً أن تعبر الشخصيات عن مواقفها من الأحداث والحكاية، فالفيلسوف يتحدث بلغته الفلسفية التي تعتمد على المقدمات والنتائج، والزارع بلغته الريفية السهلة المناسبة العذبة الرقيقة، والمهندس بلغة المثلث والمسطرة، والطبيب بأسلوب الوقاية والعلاج، والخادم بلغة التواضع والاستجابة، فلا يصح للخادم أن يتكلم بلغة الفيلسوف، ولا العكس، وكذلك بقية الشخصيات لا تتبادل في مواقفها من الحكاية وإلا تحطمت الواقعية في القصة. فينبغي لكل شخص أن يعبر عن

موقفه بلغة سهلة يفهمها المتعلم والجاهل، والقريب والبعيد، والمتقعر والبسيط، فلغتنا العربية غنية بالفاظها ومترادفاتها ومشتقاتها بما يتناسب مع كل مقام ومقال، فأدب نجيب محفوظ في القصة يقرؤه الجميع ويفهمه العامي والجاهل والمتعلم والمتخصص، وقصص علي أحمد باكثير يفهمها الجميع وهكذا.

والقرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز والبلاغة، ومع ذلك يفهمه الجاهل والمتعلم، ويستقي منه كل المستويات كل على قدر إدراكه وفهمه للغة وألفاظها، ولا يتعسر الفهم أمام سحر القرآن مهما تسفل في الجهل وعدم العلم.

ومن أخطر مظاهر التحرر في الأدب الإسلامي أيضاً ركوب السهل من الشعر الحر وهو هيام الشعراء المحدثين بشعر التفعيلة لأنه يتناسب مع عجزهم وتبلدهم، وهذا مركب سهل وطيء، ينحدر بهم بعد ذلك لاتباع الأسهل والقريب إلى التكاسل والتبльд، والأخطر من الأسهل استخدام العامية في شعر التفعيلة، ومخالفة الإعراب النحوي، فيلجأ الشعراء إلى تسكين آخر الكلمات هروباً من الإعراب النحوي آخر الكلمات إما عجزاً عن فهم النحو وتطبيقه، أو عجزاً عن فهم علوم الصرف والاشتقاق واللغة والالتزام بقواعدها وأصولها، حفاظاً على استمرار التفعيلة الواحدة في القصيدة إلى آخرها، وسواء أكان هذا أو ذاك فهو انحراف عن الجادة، وإعلان الحرب على اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والشريعة الإسلامية.

ومن العجيب أن إسرائيل تبذل الجهود والطاقت لإحياء اللغة العبرية، وهي لغة ميتة، ولغة اندثرت بالإسلام خاتم الديانات والرسالات، وكذلك الشعوب الأخرى تحيي لغاتها، وكل تدفع لغتها إلى أن تسود العالم لتكون لغة عالمية كالانجليزية، والفرنسية والألمانية والروسية وهي لغات رسالة انتسخت برسالة الإسلام، لأنه دين الحياة إلى قيام الساعة. إذا كانت هذه الشعوب تجاهد في سبيل تثبيت لغتها وإحيائها ونشرها، فإن لغتنا، نحن

العرب، وهي جذيرة بالشيوع والانتشار والحياة والبقاء والخلود والقوة، ندفعها بأيدينا ونقبرها بالأسنتنا مع أنها لغة الرسالة السامية، والشرعية الخالدة ورسالة الإسلام العامة التي جاءت للبشرية كافة، ولكل الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كل هذا يدفعنا إلى أن نحافظ على لغة القرآن فنقيم الأسنتنا على الفصاحة والصواب لنؤدّي واجبنا نحوها كما أدت للسلف الصالح ما عليها من حقوق لهم، فردوا لها الصاع صاعين لكي يزدادوا إيماناً بها وحفاظاً عليها وحرصاً، وتركوها لمن بعدهم تحمل تراثاً ضخماً وحضارة راسخة يستقي منها الصديق والعدو.

٦ - شعر المناسبات

والمناسبات الأدبية في شعر قضية تناولها كثير من النقاد في العصر الحديث، لأنها ترتبط بالأغراض الشعرية من ناحية، وبالصدق الفني في التجربة الشعرية من ناحية أخرى.

تناول العقاد والمازني وطه حسين في مصر، وعبدالعزیز الرفاعي في السعودية، وغيرهم شعر المناسبات في معارك أدبية ونقدية مع الشعاعين الكبيرين شوقي وحافظ في مصر، وكذلك في مقدمة ديوان الشاعر زاهر عواض الألمعي للأستاذ عبدالعزیز الرفاعي، فقد عارض شعر المناسبات عند زاهر ووصفه بالخطابية، كما أسقط من قبل العقاد والمازني وطه حسين شعر حافظ وشوقي لارتباطه بالمناسبات، فهبط شعرهما عن ساحة الشعر الجيد، الذي يعتمد على الصدق الفني في التجارب الشعرية، والنابعة من ذات الشاعر ووجدانه المفعم بالأفكار العميقة، والمعاني الدقيقة في وحدة عضوية بين الشكل والمضمون.

ولكن العقاد بعد هذه المعارك اعترف بأنها كانت من حماقة الشباب، ولم يتنكر هو ولا غيره لإمارة شوقي في الشعر، ولا للتاج الذي خلع على جبين حافظ وهو «شاعر النيل»، الذي كان يزود عن قضايا مصر الوطنية

والإسلامية ضد أعدائها في الداخل والخارج^(١).

والمناسبات في الشعر لا تضعف الصدق الفني في تجاربة ولا تهتز بها القيم الفنية، لأن الشاعر حينما ينظم قصيدة لا يأتي إليها من فراغ، بل لا بد من دافع يحث الشاعر على نظم الشعر ولا يستغني عن مفجر يشعل فتيل العاطفة، حتى تشتد الحركة في المشاعر، وتهتز الأحاسيس، وتومج الخواطر والأفكار لتفيض في وجدان الشاعر بتجربة شعرية.

كانت المناسبات هي المفجر الأول للعاطفة، وهي السبب المباشر في بناء التجربة الشعرية، وتكوينها، وتنظيمها، واختيار الصور لها، وانتقاء الألفاظ والأساليب والإيقاع والموسيقى، حتى تخرج من النفس في بناء فني هو القصيدة.

فالتجربة الشعرية لا بد فيها من مفجر كما وضحنا، وهذا المفجر لا بد أن يرتبط بمناسبة معينة، تختلف باختلاف الظروف والأحوال التي تتجارب مع الشاعر في حياته، قيهتز الشاعر لفكرة، أو مشهد، أو تثيره مواقف الإعجاب والبهجة والفرح، فيتجه إلى المدح والوصف أو الفخر أو الحماس وغيرها، وقد تثيره مواقف الحزن أو الألم والمعاناة العنيفة في وجدانه الملهب، فيتجه الشاعر إلى الرثاء أو الشعر الوجداني، أو التأمل الفلسفي أو النفسي وغيرها من الأغراض الأدبية.

ولا يستطيع الناقد أن يفصل بين المفجر للتجربة، وبين ارتباطها بها بالمفجر والغرض، فجميعها كانت ثمرة ناضجة للتجربة التي استمرت بمفجرها، فتقوم القصيدة حينئذ على الصدق الفني، ولن يتجرد الشعر من الذاتية التي يعتمد عليها الشعر الجيد، فالمناسبة لا تمنع من ذاتية الشاعر في شعره، لأنها مجرد مفجر لمخزون الشاعر في معاملة نفسه من الداخل،

(١) انظر الديوان للعقاد، حصاد الهشيم للمازني، شوقي وحافظ ود. طه حسين، ديوان الألمعيات، المقدمة لعبد العزيز الرفاعي، الأدب الحديث في البلاد العربية.

ولا من خارجها، فهي التي حركت هذا المخزون من منطقة اللاشعور في داخل النفس، إلى مناطق الشعور فيها أيضاً، ليقوم العقل والخيال والعاطفة والوجدان والشعور والإحساس بتنظيم وتعميق وتنسيق هذه التجربة في بناء فني متلاحم ومتربط، كل ذلك داخل ذات الشاعر ونفسه، فإذا نمت التجربة في شكلها الفني خرجت من ذاته في القصيدة.

ولهذا لا يستطيع أحد أن ينكر ذاتية الشاعر في هذا البناء الفني على النحو السابق، ولا تتعارض المناسبة المفجرة للتجربة مع تغني الشاعر بذاته وأحاسيسه ومشاعره، فكلها كانت مخزون نفسه، لا من خارجها، وإنما الذي طرأ على المخزون هو المفجر فقط، وهو ما يطلق عليه بالمناسبة، فهي لا تؤثر على المشاعر الذاتية ولا على الصدق الفني في التجربة.

أما إذا كانت المناسبة التي ينطلق منها الشاعر في نظمه بلا افتعال قوي، ولا عاطفة ملتهبة، ولا وجدان يغتلي، ولا مشاعر فياضة، فهذا لا يُسمَّى صدقاً لما بينه وبين المشاعر الذاتية الداخلية من حواجز تهبط به إلى الشر الأدبي الذي يكتب بمداد العقل والمنطق، لا بالمشاعر الذاتية، ولا بعاطفة الشاعر ووجدانه، وحينئذ يهبط الشعر إلى درجة النظم والرصف والنثر، أي نثر، بل دون ذلك، فتكون المناسبة حينئذ المعول للشعر ونضارته وحيويته وإبداعه، وهذا ما لا يتصوره الشاعر، ولا يقع في خاطره، إلا إذا كان من شعراء التقليد والرصافين في العصور الميته الجامدة في الفكر والأدب. وعلى ذلك لا يضر الشعر الإسلامي والأدب بصفة عامة أن يقال في مناسبة إسلامية معينة، بل تستشعل هذه المناسبات الشعور حرارة وتدفعاً وخاصة إذا كانت المناسبة تعين المشاعر على الحماسة مثل الجهاد في سبيل الله، ومحاربة البدع والخرافات، وتحرير القدس الشريف، والثورة على من يعتدي على المسلم أو على عرضه أو ماله، فتلك مناسبات توجب العاطفة في الأدب الإسلامي، ولا تنال من قدره، بل تسمو به إلى درجات الجودة والاقتدار.

موضوعات الأدب الإسلامي المضمون

تمهيد

والأدب الإسلامي يقوم في بنائه الفني على المضمون وعلى الشكل، فأما المضمون فنحن بصده الآن ويضم الموضوعات الرتيبة التي يشتمل عليها الغرض في الأدب الإسلامي، وتقوم على القيم الإسلامية والأخلاقية الفاضلة، والنظام التشريعي في كل مجالات الحياة، ومقتضيات الإنسان.

وليس المقصود أن يحتوي الأدب الإسلامي هو الآخر على موضوعات الفقه وأحكام التشريع، ويحتوي على سرد الأخلاق في القرآن الكريم والقيم في السنة الشريفة، ويحتوي على موسوعات في السيرة والتاريخ الإسلامي. ويحتوي على موسوعات في علم التفسير والحديث وعلوم القرآن الكريم، وبذلك يتحول الأدب إلى مكتبة إسلامية... ليس هذا هو المقصود فهذه العلوم موجودة في تراثنا العربي والإسلامي قبل وجودها في العصر الحديث.

لكن الأدب له طريق آخر، واتجاه آخر، يتناسب مع طبيعته، ومنهجه فالفنون الأدبية تمتاز عن سائر العلوم بأنها تتسلل إلى النفس من منافذ عديدة، وهي العقل والعاطفة والخيال والشعور والوجدان والإحساس، عن طريق العين والسمع والرائحة والطعم والذوق، فالعين تأخذها الألوان وتشدها الحركة في التعبير، والأذن تهتز للموسيقى والإيقاع والتصوير، والأنوف تشم

الرائحة الزكية التي تفوح من الأسلوب، والأذن والقلب يشعران بحلاوة الإيمان وطيب الإخلاص.

هذه منافذ عديدة ينفذ منها الأدب، ليصل إلى غايته من قوة التأثير وبراعة الإقناع، سواء أكان الأدب شعراً أم قصة، أم أقصوصة، أم مقالة، أم مسرحية، أم فن السيرة الأدبي، أو خطابة، أو غير ذلك من فنون الأدب المتنوعة، التي تخالف العلوم في اتخاذها طريقاً واحداً، ومنفذاً فريداً في الإقناع وهو العقل وحده. وإن هذا المنفذ واحد للإدراك من المنافذ العديدة له.

وهذا المنهج في الفنون الأدبية لا يحوّل الأدب إلى موضوعات في العلوم كما وضحنا، وإنما على الأديب أن يستوعب هذه الموسوعات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وسيرة وتاريخ، وسائر علوم القرآن والتشريع، ويستوعب علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وعلوم اللغة وغيرها من سائر العلوم العربية، ويستوعبها كلها قراءة وفهماً وإدراكاً عن حبٍّ واقتناع ومعايشة ومؤاخاة، حتى تمتزج مع نفسه وروحه، وتختلط بدمه وأحاسيسه، لا أن يحفظها عن ظهر قلب، كما يحفظ القرآن، ولا أن يؤلف فيها كتباً علمية.

وإذا ما امتزجت بخواطر الأديب ومشاعره وأحاسيسه، وأصبحت مخزونا في منطقة اللاشعور والشعور معا، فينطلق الشاعر في تجاربه الأدبية، ليعبر عنها ويصورها في فن أدبي، لكن كيف يصورها؟؟ أذكرها في القصيدة على النسق الفقهي كشروط التيمم وأركان الصلاة مثلاً؟

ليس الأمر كذلك، وإنما يصور سماحة الإسلام ويسره في مشروعية التيمم رخصة بدلا من الماء، لكي يغرس في نفس المؤمن غريزة الطاعة والانقياد لله عز وجل معبوده، وفي أركان الصلاة يصور الغاية التشريعية منها، فهي تصل العبد بربه خمس مرات في اليوم والليلة لكي يجدد العهد مع ربه

في أوقات متفاوتة، وتنزع نفسه من أثقال المادة والحياة في اليوم خمس مرات ليظهر النفس من أعماقها، وكذلك فالصلاة تطهر البدن والثوب من أوساخ الحياة خمس مرات، ليظل المؤمن نظيفاً ظريفاً طاهراً نقياً عفيفاً. وهكذا يتخذ الشعر طريقه في فقه التيمم وأركان الصلاة، وكذا في بقية العلوم الإسلامية والعربية.

وفي القصة حينما يصور القصاص مقطعاً من مقطعات الحياة الاجتماعية، أو الحب العفيف الطاهر، يتسلل من خلال الأحداث والحوار ليقوم البطل وقت الصلاة فيصلي بالحاضرين، ويقرأ على أسماعهم آيات من القرآن الكريم، تنمي فيهم الأخلاق، وتغرس القيم التشريعية، أو يتسلل القصاص من خلال أحداث القصة والحكاية ليوجه المصلين إلى نواقض الوضوء، ويأمر من صلى بوضوء منقوض بإعادة الصلاة بعد أن يتوضأ من جديد ويحسن وضوءه. وهكذا لو أقام الأديب أحداث القصة على هذا النحو بحيث تتسلل بعض الأحكام الشرعية في مواقف مختلفة يفرضها الزمان أو المكان فيها وتقتضيها طبيعة الحدث أو الحكاية، مما لا يؤثر على الحكمة القصصية والفنية في القصة، مثل هذا الصنيع تتمكن الأحكام التشريعية من النفس أيتها تمكن، وتستقر في أعماقها بلا جهد ولا معاناة وتنفذ إليها من منافذ عديدة لا عن طريق العقل وحده مما لا يتحقق في موسوعات الفقه الضخمة، وكتب التاريخ الجافة.

هذا ما أقصده من منهج الأدب في تناول علوم الشريعة الإسلامية والأخلاق القرآنية والقيم في السنة التشريعية والسيرة والتاريخ الإسلامي، وغيرها من الموضوعات المثيرة من علوم الإسلام، فيصور حكمة التشريع، والغاية منها في بناء الإنسان والأمة الإسلامية بناء حكمة التشريع، والغاية منها في بناء الإنسان والأمة الإسلامية بناء صالحاً، يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وأبرز هذه الموضوعات في الأدب الإسلامي، الصالحة له في خصائصها الفنية وسماتها الأدبية هي بإيجاز:

أولاً: القيم الأخلاقية في القرآن والسنة الشريفة

وهذا الموضوع يشمل قيماً عديدة جاءت في القرآن والسنة النبوية الشريفة، ومن هذه القيم:

الإيمان بالله هو المثل الأعلى، حاجة الإنسان إلى العقيدة، مفهوم الإيمان والعقيدة، معرفة الله تعالى، معرفة العوالم الغيبية، الكتب السماوية، أنبياء الله ورسله، اليوم الآخر، القضاء والقدر، وحدة العقيدة، متاع الحياة الدنيا وخطره على الأخلاق، سلطان الغريزة وسلطان الإيمان، انتصار الإيمان على حب الذات والأنانية، فشل الأساطير أمام سلطان الإيمان، أثر الإيمان في تكوين الضمير، علاقة ضمير المؤمن في مجال الحياة، الضمير ومكانه من الأخلاق، الضمير لا يصلح بلا إيمان، أثر الضمير في أداء الحقوق المالية، أثر الضمير في الاعتراف بالجريمة وتحمل تبعاتها من العقوبات، أثر الضمير في الالتزام بالقوانين وأداء الأمانات، أثر الضمير في الجوانب السياسية والتجارية والاقتصادية، الإيثار والأخوة والبذل والتضحية، تعرية الفلسفة المادية الأخلاقية، مصادر القوة عند المؤمن هي: الإيمان بالله وبالحق، وبالقدر، وبالإخلاص في القول والعمل، وبالتحرر من الخوف ومن الشح والحرص والبخل، وعدم التواكل وتداعي الضعف. ومن القيم: الرحمة، والعطف، والمواساة، والوفاء، والجود، والسماحة، والسخاء والمودة والمحبة، وحسن الجوار، وتجنب الغيبة والنميمة، وعدم اللغو في القول، والتواضع، ولين الجانب، والعفة، وحسن السلوك، وغيرها مما يبيّن أخلاق المسلم على أساس من القيم النبيلة.

ثانياً: فقه التشريع في العبادات والمعاملات والعقود

واستخدم فقه التشريع في العبادات والمعاملات والعقود وصحته سابقاً، وهو بإيجاز أن تقوم فنون الأدب بتصوير آثار هذه العبادات والمعاملات والعقود في تهذيب النفس وبنائها على أساس من الأخلاق، ومبداً شمول

الإسلام في أبواب الفقه لجميع ما يقتضيه النشاط الإنساني في حياة الإنسان وعلاقته مع ربه ونفسه وأسرته ومجتمعه الكبير والعالم من حوله، فيصور الأدب الإسلامي هذه القيم الفقهية التشريعية وأثرها في النفس على النحو التالي :

أثر الطهارة الحسية والمعنوية من الاغتسال والوضوء والتطهير من النجاسة بشتى أنواعها، والتميم، ولبس الخفّين، والتطهر من الحدث الأصغر والأكبر والتطهير من الحيض والنفاس والولادة، وتطهير الأواني، وتحريم الذهب والحديد على الرجال والتزين بها للنساء.

ويصور الأدب أثر الصلاة جماعةً أو منفرداً، وصلاة الجمعة والعيدين والاستسقاء والخوف، والحرب، والجنائز، وأثر الصيام، وأثر الزكاة والتكافل الاجتماعي، وأثر الحج والعمرة واجتماع المسلمين في صعيد واحد كل عام.

ويصور الأدب الإسلامي أثر المعاملات والعقود القائمة على نظم التشريع الإسلامي في البيع والشراء والخيار والهبة، والإعارة والإجارة، والمزارعة وإحياء الموات، وتحريم الربا والغش والخداع والغرر، وتحريم الكنز والإسراف والاحتكار، وتحريم استغلال المناصب والجاه، وتحريم التطفيف والبخس، والتلاعب بالأسعار، والسلب والغصب والسرقة، والخمر والميسر والأنصاب والشعوذة والدجالة، وغيرها من المعاملات.

ويصور الأدب الإسلامي في نظام الأسرة في الإسلام القائم على أساس شريعة الزواج وتحريم الزنا، وشروطه اللازمة في صلاح الزوجين، وما لهما من حقوق وواجبات نحو أنفسهما ونحو الآباء والأبناء مما يحفظ كيان الأسرة ويشيع فيها الأمن والطاعة والسعادة، وكيف عالج الإسلام مشاعر الكراهية والنشوز علاجاً حكيماً قائماً على الخلق الإسلامي السامي، والحكمة البليغة في التعدد والطلاق والحجاب، ووظيفة المرأة في الحياة الزوجية وفي المجتمع الإسلامي.

ويصور الأدب أثر الميراث والوصية في إصلاح الأسرة والمجتمع وموقف الحرية من العقيدة ومبدأ الشورى وحرية التملك والتصرف وغيرها من سائر المعاملات والعقود في الشريعة السمحاء.

ثالثاً: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة

رضوان الله عليهم

هذا هو مجال الأدب الإسلامي، فهو رافد قوي للملاحم الإسلامية والمطولات والقصص والمسرحيات، ليصور البطولات الإسلامية في تحملهم الأذى في سبيل إعلاء كلمة الله وللهجرة في سبيله، وكذلك البطولات في جهادهم وغزوهم، والانتصارات الرائعة فيها.

ويصور خلال الرسول ﷺ وعاداته وخصاله الكريمة وآدابه وسلوكه مع أهله، ومع الناس، وسلوكه مع أصحابه رضي الله عنهم، في أخلاقهم وعاداتهم وتصرفاتهم وسلوك الصحابة مع أنفسهم ومع الناس ومع الرعية وخاصة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وقادة الجيوش الإسلامية وشجاعتهم، وعلاقتهم بالجنود وبالأعداء، وما حققوه من انتصارات في الإسلام.

وهذا المضمون مجال خصب للأدب الإسلامي، لما يعتمد عليه من خصائص تلتقي مع طبيعته وهي:

- ١ - اعتماده على مصادر الإثارة والتشويق، والانفعالات والعواطف المتدفقة.
- ٢ - في السيرة ما يشبه الحكمة القصصية وهذه مادة خصبة للأدب.
- ٣ - إن الشخصيات في السيرة مثالية، تستولي على العقل والقلب معاً وتدفع إلى الاحتذاء بها، والسيرة على نهجها.
- ٤ - السيرة تقوم على البطولات والمعاملات الحربية المثيرة، فيجد الأدب فيها مجالاً خصباً وخيلاً عميقاً وتصويراً رائعاً.
- ٥ - القيم والأخلاق التي يستمدّها الأديب من السيرة لا ترتبط بنظام فقهي

معين، وترتيب منطقي جاف، ولكن القيم هنا مترابطة نابعة من صور ومواقف ومشاهد متحركة تثري الصور الأدبية بالحركة والحيوية والألوان.

رابعاً: التاريخ الإسلامي

ومضمون التاريخ الإسلامي كالسيرة مادة خصبة للأدب الإسلامي، فإنه يضم بين دفتيه أمجاد الأمة الإسلامية في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والفكرية والعلمية والديوانية، وما حققه التاريخ من بطولات وانتصارات لنشر الإسلام وتعاليمه وتشريعاته في أنحاء العالم، حتى وصل إلى أعماق أوروبا وأقصى الشرق في آسيا، واستجابت هذه الشعوب لحضارة الإسلام وتعاليمه وسياسته وحكمه، وكيف استطاع المسلمون أن ينتصروا على الصليبية في معارك كثيرة، توجها النصر الكبير، الذي حققه البطل صلاح الدين الأيوبي.

خامساً: تاريخ الحضارة الإسلامية في العالم

والحضارة الإسلامية بقيمها وتعاليمها مجال واسع وعميق، ومادة مثيرة للأدب الإسلامي، فحضارة الإسلام تشمل:

- ١ - أثر القيم الخلقية في تقدم البشرية ونهضتها منذ عصر الرسالة حتى دخل المسلمون أوروبا.
- ٢ - السمو في نظام الحكم الإسلامي، ونظام الشورى والقضاء والسياسة.
- ٣ - القيم المثلّية في بناء الأسرة والمجتمع بأسمى التعاليم والنظم الاجتماعية مما جعل بناء الأسرة الإسلامية لا نظير له في أي مجتمع آخر.
- ٤ - سمو النظام الاقتصادي الإسلامي، حتى شهد له علماء الاقتصاد الرأسمالي والماركسي، والفضل ما شهدت به الأعداء، وتميزه بحضارة راسخة على عدالته، وأساسه، وسماحته، وأركانها، بما يتناسب مع الفطرة الإنسانية من حيث التملك في إطار مقيد لا مطلق، فقد أعطى الإسلام

حرية التملك لكنه قيدها بعدم الضرر للغير وللأمة، وأعطى الحرية الاقتصادية لكنه لم يطلقها بل قيدها بحدود الحلال والحرام، وبمراقبة الدولة للنشاط الاقتصادي الإسلامي، حتى لا يحدث ضرر للآخرين بسبب هذه الحرية، ثم ارتبطت حرية التملك والحرية الاقتصادية بنظام فريد هو التكامل الاجتماعي فهو ركن من أركان الاقتصاد الإسلامي.

٥ - الحضارة العلمية للإسلام كانت سباقاً دائماً في العلوم والآداب وفي الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق وعلوم الحياة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ، وكان لهذا دور كبير في نهضة أوروبا الحديثة وحضارتها المعاصرة.

سادساً: التضامن الإسلامي

والتضامن الإسلامي هو السبيل الوحيد الذي لا بديل عنه لتحقيق وحدة الأمة الإسلامية، فهو العلاج الشافي لتمزيق الأمة، العافي في ضم شملها وجمع أشلائها، وهو السبيل الوحيد لتحقيق ما يلي:

- ١ - الحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف المصدرين الأساسيين.
- ٢ - الحفاظ على التراث الإسلامي والعربي.
- ٣ - الحفاظ على أمجاد التاريخ للأمة الإسلامية.
- ٤ - الحفاظ على ثروات الأمة الإسلامية في مختلف الدول.
- ٥ - الحفاظ على ثروات الأمة الإسلامية، ومنع العدو من استغلالها لصالحه أو ضد الإسلام والمسلمين.
- ٦ - الحفاظ على كرامة المسلم وحرية في أي موقع من مواقع العالم.
- ٧ - مواجهة أعداء الإسلام صفاً واحداً ضد الصهيونية والماركسية والمادية المسرفة.
- ٨ - مواجهة المستشرقين والمستغربين صفاً واحداً، الذين غزوا تراثنا الإسلامي والعربي بالسموم والتضليل.

٩ - مواجهة الحرب الداخلية التي يدبرها ضعاف المسلمين باسم الإسلام كأصحاب الفرق الضالة، وأهل البدع والخرافات.

وهذه مادة خصبة وثرية تتفجر عنها تجارب الأديب في الأدب الإسلامي، لينمي في المسلم غريزة المقاومة والتضامن والوحدة كما حققها السلف الصالح في صدر الإسلام.

سابعاً: مواجهة حرب اللغة العربية

ما دام للإسلام أعداء يتربصون به، فلن يغفلوا لحظة عن حرب اللغة العربية، لأنهم فشلوا في الحروب الصليبية. فتحولوا إلى حرب لغة القرآن الكريم، للقضاء على شريعة القرآن، فتوجه الأموال التي تنفق على الحروب إلى القضاء على اللغة العربية، فهي امتداد للحروب الصليبية لكن في شكل دبلوماسي جديد لمحو القرآن من صدور المسلمين لتحقيق أهدافهم من الغزو الفكري وهي:

- ١ - القضاء على لغة القرآن لمحو القرآن من صدور المسلمين، فلا يحسنوا قراءة القرآن وحفظه.
- ٢ - عدم فهم التراث العربي الإسلامي، لأنه مدون باللغة العربية.
- ٣ - قطع الصلة بين الدول العربية لسيطرة اللهجات العامية عليها، فيكون من العسير على كل دولة أن تفهم لهجة الأخرى.
- ٤ - إحلال المدنية الغربية الفاسدة محل الحضارة الإسلامية عن طريق سيطرة لغاتها الأجنبية.
- ٥ - العودة بالدول الإسلامية إلى النعرة الجاهلية الأولى، لكي تعتز كل دولة بلغتها القديمة وحضارتها الزاهية، فإيران تمجد الفارسية، والعراق البابلية والأشورية، والشام الفينيقية، ومصر الفرعونية، والمغرب البربرية.

وهذا مجال خصب للأدب الإسلامي، يجول الأديب في آفاقه الواسعة

بخياله وفكره الإسلامي، ليصور هذه المعركة بين الإسلام وأعدائه ويحذر المسلمين من الصور الجديدة الدبلوماسية للحروب الصليبية، فهي امتداد لها، واستمرار للحقد على الإسلام، ولتظهر من خلال الأدب الجيد أسرار اللغة العربية وجمالها وثرائها بالمعاني والأفكار والألفاظ والمترادفات والأساليب والصور، وشمولها وإحاطتها بما يحتاجه الإنسان في حياته وتجاوبه مع المخترعات الحديثة، والتقدم العلمي لنرد على أعداء الإسلام زعمهم بأن لغتنا ليست قاصرة كما يدعون فهي تتسع لكل جديد.

ومن القصائد المشهورة في الدفاع عن اللغة العربية قصيدة حافظ إبراهيم «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» وغيرها في الشعر العربي لكنها قصائد تعد على الأصابع.

وفي التزام الأدب الإسلامي للغة العربية الفصيحة واستخدام صورها البليغة، ردٌ بليغ وعملي على دعوة العامية التي أزهدت اللغة الفصيحة في الأونة الأخيرة، ولا نتوانى لحظة في شن الهجوم على العامية ومحاربتها، حتى تعود الفصحى إلى وجهها المشرق، وإلى ساحة الأدب الإسلامي الرفيع، كما كانت في العصور القوية المزدهرة، حين سيطرت على لغات العالم، وحلت محل الفارسية والرومية والقبطية والبربرية واللاتينية وبقية اللغات الأجنبية الأخرى.

ثامناً: حل مشكلات المسلمين في أنحاء العالم

أصبح المسلم في رحمة التيار المادي العنيف ضعيف المقاومة ضد المادية والإلحاد والعلمانية والانحراف، لخضوع نفسه أمام المغريات المدنية، والمادية الحديثة باسم التقدم والرفق والحضارة، فتهتز القيم الإسلامية فيه ويخترُ صريعاً وهو يلهث وراء المادية الفاسدة، هذا ما يعانيه المسلم الضعيف في جميع الساحات الدولية، سواء أكان داخل بلاد المسلمين أو كان خارج بلاد المسلمين.

هذه مادة غزيرة الفكر للأدب الإسلامي يتخذ منها روافده وصوره الخيالية الرائعة يصور بها أحوال الشعوب التي قتلتها المادية وأضلها الإلحاد، وهبطت بالإنسانية إلى مستوى الوحوش في الغابات يأكل القوي الضعيف، كما يصور الأدب الإنسان الراقي الذي سمت به القيم الإسلامية إلى درجة العزة والقوة والإنسانية بصفة عامة... مجال عميق خصب يغوص فيه الأديب ويعطي عطاء ثراً، وفيضاً زاخراً، يسمونه أدبنا العربي الإسلامي الحديث.

تاسعاً: محاربة التخلف الثقافي

إذا كانت الحضارة الإسلامية قد أشادت بالعلم والمعرفة، ودور التربية والتعليم من يوم أن كان مسجد النبي ﷺ هو المدرسة والجامعة للتعليم والتدريس إلى أن تعددت دور العلم والمدارس والجامعات في حضارة الإسلام، فكانت أول جامعة إسلامية علمية هي جامعة الأزهر بنيت في ظل حضارة الإسلام لتنشر العلم والمعرفة والحضارة الإسلامية، ثم تابعت بعدها الجامعات الإسلامية ممثلة في جامعة الزيتونة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة أم القرى، والجامعات الإسلامية بالجزائر والسودان والباكستان وغيرها.

وإذا كانت حضارة الإسلام قد اهتمت منذ بدء الدعوة حتى الآن بالعلم والتعليم، فلإنها تهتم كثيراً بنشر الثقافة العامة، والترويض على التجارب والخبرة من الحياة، فالمسلم في الإسلام صاحب خبرة وتجارب في الحياة، وهو فطن، لا غبي بليد، يتلقف كل ما حوله بنهم الخبير الذكي، ليكون جندياً صالحاً في بناء المجتمع الإسلامي يقول النبي ﷺ: «المؤمن كئس فطن» عبارة موجزة جامعة بليغة، لكنها تحمل كل التيارات الثقافية، التي يثقف بها الإنسان نفسه، ولو كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ما يكتب.

ويحارب الإسلام مشكلة الأمية في كل عصر منذ البعثة حتى الآن من أجل رفع المستوى الثقافي للمسلم.

ويثقف المسلم أيضاً بلغات الأعداء «من علم لغة قوم أمن مكرهم»،
ويثقف المسلم بمعرفة الجديد وكل جديد في شتى المجالات العلمية
والاقتصادية والحربية، ليكون المسلم واعياً مدركاً لكل تيار ثقافي بناء للأمة
الإسلامية، لتكون قوة عزيزة الجانب.

هل يجد الأدب الإسلامي مجالاً أخصب من هذا المجال، لينصرف
عن تصوير الغزل والمجون واللهو والعبث؟ إن ثراء الفكر الأدبي بهذه
الجوانب المتشعبة للتخلف الثقافي هو مادة خصبة لنهضة الأدب الإسلامي
في العصر الحديث.

عاشراً: حرب البدع والخرافات والفرق الضالة

أعان أعداء الإسلام المسلمين على نشر البدع والخرافات والضلالات،
ودفعوا بعضهم للخروج على جماعة المسلمين، ليعودوا بهم إلى العصور
المظلمة، التي أفلت منها النهضة في أوروبا.

وعلى الأدب الإسلامي أن يجد في ذلك، الثراء الفكري، لتصوير
القيح من البدع والخرافات والفرق الضالة في صورة تتقزز منها النفس
لينصرف عنها المسلم، فهو أشبه بالهجاء في أدبنا العربي، ولكنه ليس هجاءً
هداماً مدمراً، فهو هجاء للبناء والتعمير والإصلاح والتقدم والرفي. فالخيال
بارع بصوره الأدبية لتصوير القبيح والجميل في صورة بناء لا مدمرة. وقد
ادعى نقاد الغرب بالباطل بأن ديوان «زهور الشر» لبودلير، لا يحث على
الشر، وإنما ينفر منه، وهذه دعوى باطلة. فكيف إذا صور الأدب الإسلامي
القبيح من البدع والخرافات - وهو على حق لأنه يهدمها - للبناء والإصلاح،
ولا ينشرها كما نشر بودلير الشر في زهور يانعة متفتحة؟!

حادي عشر: مواجهة العدو الصهيوني

ينبغي أن يكون الأدب الذي يقال في معركة اليهود والصهاينة أدباً
إسلامياً صرفاً، لا قومياً، ولا وطنياً، لأن قضية مواجهة اليهود والصهاينة قضية

إسلامية قديمة، بدأت مع الرسول والصحابة في المدينة المنورة، وتطورت أشكالها المختلفة من السبئية بالنسبة لعبد الله بن سبأ إلى جمعية أبناء العهد، إلى الصهيونية العالمية الآن، واتخذت هذه الأشكال المختلفة من عصر إلى عصر لهدف واحد فقط، وهو حرب الإسلام، لا الاستيلاء على فلسطين ولا على القدس، ولا على وطن عربي إسلامي.

وهو مجال ثري خصيب للأدب الإسلامي في العصر الحديث وقد نجح بعض الشعراء في تخصيص أدبه لهذا الجانب المقدس في الأدب الإسلامي الجديد، وكتبوا أروع القصائد والقصص، ولكن الذي لم يتناولوه في أدبهم أنهم لم يربطوا هذه القضية بقيم الإسلام وحضارته القديمة، وبقضية الحرية في الإسلام، لا الحرية العصبية ولا الوطنية.

ثاني عشر: مواجهة التبشير الصليبي المسيحي

واتخذت المسيحية وسائل عديدة للتبشير بالمسيحية للسيطرة على اقتصاد العالم، وتوجيه موارد الشعوب إليها، حتى تظل ضعيفة منهوكة محتاجة دائماً إليها وإلى صناعاتها ومخترعاتها ولتكثر عدد دول المسيحية لتضعف أصواتها في الهيئات الدولية، للتصويت ضد قضايا المسلمين والعرب وللقضاء على حضارة الإسلام وعلى العقيدة الإسلامية لتحل محلها حضارة الغرب الزائفة.

والأدب الإسلامي من أقوى الوسائل لمواجهة حركات التنصير ووسائل التبشير، وكشف النوايا الخبيثة والتيارات المدمرة، وتعرية سمومها وأفاعيلها لكل مسلم عن طريق صور الأدب الإسلامي الرائعة التي تتسلل للعامي والمتعلم فيحصن نفسه من المد الصليبي، ويعبئها بالطاقات التي يوجهها لحرب عدوه أينما كان.

ثالث عشر: مواجهة الإلحاد الماركسي المادي الشيوعي

والإلحاد الماركسي المادي الشيوعي هو الشكل الجديد للصليبية، والأسلوب العصري الحديث للقضاء على الأديان بصفة عامة، وعلى الخطر

الإسلامي كما يقولون بصفة خاصة . وأنا أقول هو الشكل الجديد للصليبية، لأن الماركسية والصليبية متفقتان معاً على حرب الإسلام، ليظلّ هما المسيطرَين على العالم خوفاً من تعاليم الإسلام وسرعة تأثيرها وانتشارها.

واتخذت الشيوعية كل الوسائل للسيطرة على الأمة الإسلامية بشتى الجوانب العلمية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، لتحقيق أهدافها المدمرة.

والأديب المسلم في حاجة إلى معرفة الثغرات الضعيفة المنهارة في الشيوعية، التي تتجافى مع فطرة الإنسان المستقيم، وما أكثرها وما أوهن النظرة المادية الماركسية، لأنها أثبتت فشلها في بلادهم، وفي هذه المعارف أفكار ثرية ومضمون حي، ليتخذها الأدب الإسلامي مادة قوية، لتعريه المادية الماركسية وتصوير الانهيار فيها، مع إبراز الصور المشرقة لسمو الاقتصاد الإسلامي، الذي اعترف به علماء الاقتصاد في الغرب، وأكدوا بأنه هو المذهب الاقتصادي الثالث الذي سيسود العالم، رضيت الرأسمالية أم لم ترُضْ، ورضيت الشيوعية أم لم ترُضْ، لأنه نظام صالح للحياة، هذا قول العالم الاقتصادي الفرنسي «جاك اوستري» وقول المستشرق الفرنسي «رايموند شارل»^(١).

لا شك أنها مادة خصبة جديدة معاصرة طريفة لأدبنا الإسلامي يشري مضمونه بهذا الفكر الجديد وبالنظريات الأجنبية الجديدة.

(١) الإسلام والتنمية الاقتصادية، ترجمة نبيل صبحي الطويل، دار الفكر، دمشق.

التصوير الأدبي

التصوير الأدبي في الأدب الإسلامي ينبغي أن تكون له خصائصه الفنية الأصيلة، التي يتميز بها عن غيره، وهذه الخصائص العريقة، لا بدّ من توافرها على النحو التالي :

خصائص الكلمة والأسلوب والنظم

أما خصائص الكلمة الفنية فهي :

- ١ - أن تكون صحيحة في الاشتقاق والإعراب فصيحة، لا عامية ولا سوقية ولا أجنبية، جزلة، فخمة، سهلة، عذبة، واضحة.
- ٢ - أن يكثر الأديب من استعمال الألفاظ التي تدل على مصطلحات اشتهرت في علوم الشريعة الإسلامية، مثل : مصطلحات الفقه والتفسير والحديث والسيرة والتاريخ الإسلامي وحضارته.
- ٣ - أن تأخذ مكاناً من الأسلوب والتصوير لتوحي من خلاله بمعان كثيرة، وإيحاءات تشع منها الروح الإسلامية.
- ٤ - استعمال الألفاظ والأسماء التي تدل على الخلفاء والأعلام والأبطال والقادة والعلماء والمؤرخين والمفسرين والمحدثين، وأصحاب السير وغيرهم في الإسلام ممن كان له دور كبير في نشره والجهاد في سبيله.

وأما خصائص الأسلوب والنظم فهي :

١ - أن يكون الأسلوب محكماً والنظم دقيقاً على غرار ما جاء في القرآن من نظم بديع، وما جاء في الحديث الشريف من روعة البلاغة في جوامع الكلم، وبهذا تطفئ روح القرآن والحديث على الأسلوب والنظم.

٢ - عدم التعقيد والتعقُّر في النظم والأسلوب، وإنما يقوم على النسيج الرصين الذي يشف عن وضوح المعنى وجلاء الفكرة.

٣ - الاقتباس في الأسلوب والنظم من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين وعبارات كبار العلماء المحدثين والفقهاء والمفسرين.

٤ - تجنُّب الأسلوب الخطابي في الشعر والقصة وفن السيرة الأدبي، والاهتمام بالأسلوب التصويري، وتجسيم المعاني والأفكار في صور محسنة من الواقع والحياة.

٥ - تجنُّب الأسلوب التقريري الذي يعتمد على سؤق المقدمات للوصول إلى النتائج والبراهين، فهذا أسلوب لا يتفق مع طبيعة الأدب والشعر، الذي يعتمد على الخيال وروعة التصوير، والتجسيم والتشخيص وبعث الحياة والحركة في المشاهد والأحداث.

وأما خصائص الخيال وصوره الأدبية فتكون على النحو التالي :

١ - عدم جموح الخيال، فلا بد أن يسير الخيال مع العقل في توازن، فلا يطغى الخيال على وزن العقل، ولا يطغى العقل على جموح الخيال، بل يخلق الخيال لاصطياد الصور ليضبطها العقل وينظمها، ويهذبها ويخرجها في صورة بديعة مقبولة في عرف العقل والواقع.

٢ - أن يكون الخيال مقيداً بالفكر الإسلامي، لينسج عنه صوره الأدبية من استعارة وتشبيه ومجاز وكناية من التراث الإسلامي العريق، الغني بصوره

الأدبية الرائعة في الشعر الإسلامي القديم وفي كتب التفسير وشروح الأحاديث وفي السيرة والتاريخ وحضارة الإسلام الزاهرة.

٣ - ارتباط صور الخيال بالتصوير القرآني المعجز فيقتبس الشاعر صور القرآن في شعره والقصاص في قصصه، وينسج صوره على غرار نظم القرآن المجرد من الخيال، لكن إعجازه في النظم أقوى من صور الخيال المجنحة.

وكذلك ارتباط الخيال بصور الحديث الشريف، وخاصة جوامع الكلم البليغة، وعلى الأديب الإسلامي أن يقتبس الصور البليغة من الحديث الشريف، لتكون في شعره وقصصه.

٤ - أن ينسج الخيال صورة من الغزوات والمعارك الإسلامية والبطولات الرائعة فيها كالشعر الذي قيل في غزوات الرسول ﷺ ومثل قصيدة «عمورية» لأبي تمام وغيرها، فإن في انتصارات الإسلام صوراً رائعة، تسمو بالشعر والأدب إلى أقصى غايات الجودة والإبداع، ومن يرجع إلى السيرة العطرة، وتاريخ الحضارة الإسلامية والمعارك المظفرة يجد الثراء الضخم، الذي يتخذ منها صوره الرائعة.

وأما خصائص الإيقاع الموسيقي فهي:

١ - اختيار الكلمة ذات الجرس القوي والإيقاع العذب، فلا تجتمع في الكلمة الحروف المتنافرة في النطق، والمتناقضة في أصواتها على السمع.

٢ - أن يقوم الأسلوب على النظم الذي يتوخى فيه الأديب معاني النحو، فلا يحدث تنافراً ولا تناقضاً بين الكلمات، ولا بينهما وبين معانيها، وهذا ما يسمى بالموسيقى الخفية والإيقاع الداخلي للشعر.

٣ - مراعاة العمود الشعري في الوزن والقافية، ليستمر الأدب الإسلامي محافظاً على التراث العربي، حينما يتخذ بحور الخليل بن أحمد نظاماً له

في شعره، فلا يخرج عنها إلى قعر التفعيلة الهابط، ويتخذ القافية الخليلية والواحدة في حرف الروي منهجاً له في القصيدة حتى لا تكون قافيتها أشتاتاً لا يجمعها رابط، ولا تنتهي عند إيقاع منسق رتيب، كما هو الحال في الشعر المرسل، الذي خرج على العمود العربي في الشعر، ثاثراً على التراث القديم.

٤ - وتعتمد الموسيقى في القصة والأقصوصة والمسرحية وفن السيرة على الحبكة القصصية في نمو الأحداث وتطورها، فينبع الحدث من الحدث، والحكاية من الحكاية في تسلسل واقعي ونمو مطرد، فلا يقدم حدثاً على آخر، بل يضع كلا في موضعه، فهذا يعين على التنسيق بين الأحداث فيؤحي بالإيقاع الرتيب لهذه الفنون الأدبية الثرية، ومما يقوي الإيقاع فيها أيضاً الحوار القصصي أو انسياب السرد مع الموضوع، الذي ينمو من خلال الأحداث، فيعد هذا رافداً قوياً من روافد الإيقاع الموسيقي.

أما الإيقاع والموسيقى في المقال الأدبي فيقومان على انسياب التصوير وسلاسته في التعبير، وقصر الفقرات والجمل، واختيار الكلمات، وروعة النظم، وتنسيق الأسلوب.

هذه هي الخصائص الفنية التي ينبغي أن تتوافر في موسيقى الأدب الإسلامي وفي فنونه الأدبية المتنوعة من شعر وقصة ومسرحية ومقال وفن السيرة الأدبي.

الأغراض الأدبية... في الأدب الإسلامي

تمهيد

اشتهر الأدب وخاصة الشعر بأغراض أدبية كالمدح والوصف والغزل والهجاء والاعتذار وغيرها، والأدب الإسلامي لا بد أن تكون له أغراضه الأدبية، التي تتسم بها، ويتميز بها كل غرض عن الآخر، وهذه الأغراض منها ما هو قديم ورد في الشعر الإسلامي القديم والحديث على السواء مثل شعر الأخلاق والقيم الإسلامية، ومثل شعر الجهاد، وشعر الحضارة الإسلامية، وشعر الدعوة الإسلامية والشعر الوطني.

وهناك أغراض أخرى جديدة ينبغي أن يسلكها الأدب الإسلامي الحديث، ومن أهمها:

- ١ - شعر التكافل الاجتماعي .
- ٢ - شعر التضامن الإسلامي .
- ٣ - شعر التأمل والطبيعة .
- ٤ - شعر البناء النفسي للفرد والأسرة .
- ٥ - الأناشيد الدينية .
- ٦ - رثاء الزعامة الإسلامية .

وسنوضح الخصائص الفنية للأغراض كلها، قديمة كانت أم حديثة، لتكون مجالاً خصباً للشعر الإسلامي.

وليست هذه الأغراض صالحة للشعر فقط، بل هي أغراض للنثر الأدبي الإسلامي في القصة والأقصوصة والمقالة والمسرحية وفن السيرة الأدبي فينبى الأديب قصته على غرض الجهاد في سبيل الله والتضحية حتى يتم النصر للقدس الشريف، ويصور سماحة الإسلام وعدالة تشريعه، مثل أقصوصة «جريمة» للأديب خالد خليفة، أو يبنى الأديب كتابه في فن السيرة الأدبي على عبقرية من عباقرة الصحابة رضوان الله عليهم مثل عبقریات العقاد وغيرها التي اشتهرت في فن السيرة الأدبي، أو كتابة حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل، ومثل قصص من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي وكتاب «فأين الله؟» للكاتب محمد حسين الحمصي، وهو قصص إسلامي من التاريخ تمثل صيحة عبد الله بن عمر في جوف الصحراء، وغير ذلك من فنون النثر الأدبي، مثل أدب سيد قطب وتصويره الأدبي الرائع للفكر الإسلامي والشريعة السمحة ومن أهم هذه الأغراض هي :

أولاً: القيم التشريعية الأخلاقية

سبق أن عرضنا موضوعات القيم التشريعية والأخلاقية التي يقوم عليها هذا الغرض الأدبي، فيصور الشاعر آثار العبادات والمعاملات والعقود في بناء الأخلاق الفاضلة، كما يصور المكارم والمحامد والمثاقب، فمادة الأخلاق الفاضلة، واسعة تشمل القرآن كله، بما يحوي من قيم وعبادات وتشريع ونظام دقيق للحياة كلها. فحينما سئلت عائشة عن أخلاق النبي ﷺ قالت رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن الكريم»، وشعر القيم والأخلاق قديم، فلصالح عبد القدوس، ولأبي العتاهية الزاهد شعر في ذلك. أما الشعر الحديث فنجد شعراء كثيرين منهم شوقي، وحافظ، والمأحي، وعامر بحيري، وسيد قطب، وغيرهم.

وقد خصص الشاعر خير الدين وانلي ديواناً كاملاً لشعر الأخلاق والقيم التشريعية، وسماه ديوان «الحق المبين»^(١) ومن قصائده: «تجار القرآن» و«دنيا النفاق» و«المرأة في الإسلام» وغيرها.

وكذلك الشاعر الخطيب في ديوان خصص فيه جانباً كبيراً لشعر الأخلاق الإسلامية^(٢)، وديوان «مع الله» و«ألوان طيف»^(٣) للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، الذي صور فيهما القيم الإسلامية وأخلاق القرآن وغيرهم من الشعراء المحدثين الذين لهم شعر غزير في هذا الغرض.

ثانياً: الحضارة الإسلامية

وهو الشعر الذي يتناول حضارة الإسلام المعنوية والمادية في القديم والحديث، مثل حضارة المسلمين التي حلت محل الحضارات الزائفة في الروم والفرس، وفي إسبانيا وبلاد البلقان، وللشاعر أحمد شوقي شعر في الحضارة الإسلامية مثل ديوان «دول العرب وعظماء الإسلام» وقصيدته «السينية»، التي صور فيها حضارة المسلمين في الأندلس، وللشاعر عمر بهاء الدين الأميري شعر كذلك منه قصيدته «غربة روح» في تصوير الحضارة الأندلسية.

وكذلك ديوان «من وحي النبوة» للشاعر محمد عبد الغني حسن^(٤)، وديوان «من إشراقات السيرة الزكية» للشاعر عزيز أباظة^(٥).

ثالثاً: التكافل الاجتماعي

ويصور الشاعر أهداف الإسلام من التكافل، فهو ركن من أركان الاقتصاد الإسلامي السامية، كما يصور مجالاته الكثيرة في بناء الحياة

(١) طبع عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، صفحات ٢٣، ٢٧، ٢٨.

(٢) دار المعارف، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م.

(٣) ألوان الطيف، ص ٢٨٤ - ٢٨٨.

(٤) مكتبة الآداب، ١٣٦٩ / ١٩٤٩.

(٥) مكتبة النهضة، ٣٩١ / ١٩٧١.

وتعميرها، وإصلاح النفس البشرية وتقويمها من الحرص والبخل عند الغني، ومن البغضاء والحسد عند الفقير، ويصور آثاره البناءة في الاستثمار والانتاج وتشغيل العاطلين، وتقريب الفوارق بين الأفراد، وإشاعة الأمن والطمأنينة والرخاء في أمة الإسلام. وفي هذا شعر كثير نظمته الشعراء قديماً وحديثاً.

رابعاً: التضامن الإسلامي

وهو الشعر الذي تجتمع له كلمة المسلمين حين يعتصمون بكتاب الله عز وجل، ويسيرون على هدى الرسول محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، ليصير المسلمون أمة واحدة. وما أخرجنا إلى التضامن والوحدة الإسلامية، فأعداء الإسلام يتربصون بنا، سواء المادية المنحرفة، أو الإلحاد، أو الصهيونية لكي تظهر الإسلام من هؤلاء ونردّ القدس الشريف ثالث الحرمين إلى الأمجاد الإسلامية، كما كان في عهد السلف الصالح. وشعر التضامن الإسلامي والوحدة الإسلامية غزير في أدبنا العربي القديم والحديث مثل ديوان «مجد الإسلام»، و«الإلياذة الإسلامية» للشاعر أحمد محرم، وديوان «دول العرب وعظماء الإسلام» للشاعر أحمد شوقي وغيرهم.

خامساً: البناء النفسي للفرد المسلم

والدراسات الحديثة في علم النفس والاجتماع تناولت هذا الجانب لضبط السلوك النفسي، والإسلام جاء بالتعاليم السمحة والقوية، التي تبني المسلم بناءً قوياً صحيحاً، قائماً على أساس سليم من العقيدة الصحيحة الخالدة لا على أساس نظريات بشرية تتساقط الواحدة بعد الأخرى، مثل نظرية «التطور» ونظرية «التحليل النفسي» وغيرهما مما أثبت العلم الحديث فشلها، لأنها أدت إلى انحرافات وأمراض نفسية تفشت للقضاء على النفس لا لبنائها، كما كان أصحابها يزعمون، وهنا يأتي دور الأدب الإسلامي لبناء المسلم بناءً صحيحاً وقوياً من خلال القيم الإسلامية التي جاءت بها الشريعة.

سادساً: البناء الاجتماعي للفرد والأسرة

لم تأت شريعة مثل شريعة الإسلام، التي وجهت تعاليمهم إلى بناء الفرد الاجتماعي والأسرة، ليقوم على أساس راسخ قوي، فأعطى للفرد من الرعاية والحفظ والتعليم والغذاء والكساء وحسن التربية والسلوك، ونمو الغرائز في نفسه منذ الصغر، كغريزة الخوف والمراقبة والمحبة والتدبر في ملكوت الله عز وجل، ثم وضع له التشريع الذي يقيم المجتمع الصغير وهو الأسرة على أروع نظام، فوضع له الحقوق والواجبات، وعالج المشاكل، ومشاعر الكراهية والنشوز، وقاوم الغريزة الجنسية بالتعبد والطلاق، وغير ذلك مما جاء في التشريع الإسلامي لبناء الفرد الاجتماعي حتى يكون لبنة طيبة وصالحة في بناء الأسرة والمجتمع، وهذا الغرض الأدبي ينبغي أن يكون له دوره الكبير في أدبنا الإسلامي الحديث، ليقاوم الدراسات والنظريات الغربية المعادية للإسلام.

سابعاً: الدعوة الإسلامية

وهو غرض أدبي يعرض فيه الشاعر سماحة الإسلام ويسره وبساطته، وإنه دين العقل والقلب معاً، ومما يدل على سماحة الإسلام في تشريعاته في العبادات والمعاملات كالتخفيف والرخص، ورفع الحرج والضيق، والنهي عن الضرر وإباحة الضرورات، وغير ذلك مما يدل على يسر الإسلام، حتى تحول الغزاة الجبابرة من المغول والتتار إلى دعاة مصلحين وحكام مسلمين. وعلى الأدب الإسلامي الحديث أن يتخذ من هذا الغرض مجالاً واسعاً لشعر الدعوة إلى العقيدة الإسلامية ونبذ غيرها من المذاهب والاتجاهات المدمرة الهدامة للإنسان الحديث.

ثامناً: شعر الجهاد في سبيل الإسلام

وهو الغرض الأدبي الحي الذي يلازم الإسلام منذ البعثة إلى قيام الساعة ما دام له أعداؤه... والجهاد يكون بالكلمة والمال والنفس والروح

والعتاد والسلاح، ولكل منها مجاله، الذي شرعه الله عز وجل. وشعر الجهاد يحفز المسلم أن يجند نفسه وماله للدفاع عن عقيدته وماله وعرضه، وهو بطبيعته تتفجر منه العاطفة المتحجرة، وتنزف منه المشاعر الجامدة.

وقد كان للشعر الحديث أيضاً دور كبير في هذا الغرض الأدبي للشعراء، مثل: ديوان «من وحي فلسطين» للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، وكذلك له ديوان «ملحمة الجهاد»، وديوان «ملحمة النصر في ١٠ رمضان». وكذلك للشاعر زاهر عواض الألمعي ديوان «على درب الجهاد» وللشاعر عبد الرحمن ع شماوي ديوان «أمتي»، و«ديوان الخطيب» لشاعر النهضة العربية الخطيب وديوان «شرارة الثأر» للشاعر ابراهيم الدامغ، وديوان «الأرض المباركة» للشاعر عدنان النحوي، وغيرها من الدواوين الكثيرة في شعر الجهاد.

تاسعاً: الشعر الوطني

وهذا الغرض الأدبي من الأدب الإسلامي أيضاً، لأن الشاعر فيه يدافع عن قطعة من أمة الإسلام، ودولة من دوله حينما يتغنى الشاعر بحب الوطن، ويحن إليه، ويذلل في سبيله كل غالٍ وثمين، فإذا ما أحب الإنسان وطنه الصغير، فإنه بدافع الأخوة الإسلامية يجب أن يدافع عن وطنه الكبير وهو وطن الأمة الإسلامية.

عاشراً: التأمل في الطبيعة

ومظاهر الطبيعة والحياة آيات من آيات الله عز وجل، تدل على قدرته ووحدانيته، وعلى الأدباء والشعراء أن يتأملوا فيها ويقفوا على أسرارها العجيبة، التي تذهل العقول، وتستبد بالقلوب والأفئدة، فيزداد المسلم إيمانا على إيمانه، وقوة في عقيدته على قوته، وهي مجال خصب للتعرف على الله عز وجل من خلال آياته العجيبة في الكون والحياة، وهذا الغرض يعطي للأدب الإسلامي عطاء موفوراً في شعر قوي عميق.

ومن هذا الشعر ديوان «نداء السحر» للشاعر محمد سليمان الشبل، وكثير من القصائد للشاعر عمر بهاء الدين الأميري، منها قصيدته «شبح الخريف» يتأمل الشاعر فيها آيات الله في الكون^(١).

حادي عشر: رثاء الزعامات

والمقصود من الرثاء هنا الزعامة الإسلامية، التي جندت نفسها في سبيل الله للدفاع عن الإسلام ونشره، ووهبت حياتها في سبيل الحكم والسياسة أو العلم والتعليم في جهاد في سبيله حتى قضت نحبها. وفي هذا اللون من الأدب حافظ كبير لدفع الزعامات السياسية والعلمية إلى أن تبذل ما في وسعها من طاقات في سبيل نصرته الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم. ومن هؤلاء الزعامات الحديثة، التي أدت واجبها على أكمل وجه المغفور له الملك فيصل طيب الله ثراه، فكان له دور كبير في نشر الإسلام والدفاع عنه وحماية مقدساته مما شعر له القاضي والداني، والمسلم وغير المسلم^(٢).

وفي ذلك شعر كثير أنشده الشعراء من كل قطر إسلامي وكل دولة عربية وإسلامية لتمجيد تلك الزعامة العربية الإسلامية العالمية، وأصبح الشعراء في هذا الغرض يمجدون القيم الإسلامية لذاتها في شخص المغفور له، لا لذات الشخص. وبهذا خرج الرثاء عن معالمة وخصائصه القديمة، وأصبح فناً أدبياً إسلامياً جديداً له معالمة وخصائصه الجديدة، وليس مدحاً للميت ولا تعديداً لمآثره ومناقبه في حياته، وإنما هو تمجيد للقيم الإسلامية ليحث الشاعر غيره من بعده على الالتزام بها والسيرة على منهجها ومثالها، لتعيش هذه الزعامة الصالحة الإسلامية العربية معنا في كل جيل وعصر.

(١) ألوان طيف، ص ٢٩١ - ٣٠٦.

(٢) الثلاثة الحزين.

ثاني عشر: الأناشيد الإسلامية

هذا الغرض الإسلامي لا يقل في الأدب الإسلامي عن الأغراض السابقة، وخاصة بعد أن انتشر الشعر الغنائي اللاهني والعاث، وأصبح وأمسى في كل بيت عن طريق أجهزة البث على الهواء، وأدوات الإعلام الحديثة؛ لأن الأذن والعين أخذتا موقعهما من العصر الحديث أكثر من القراءة والاطلاع، وأصبح السماع للمذيع والرؤية والسماع للتلفزيون لهما الصدارة في تثقيف الناس وتوجيههم إلى المقصد الذي تبتغيه الدولة، وكل دولة حسب اتجاهها السياسي والاقتصادي والمذهبي والفكري والثقافي.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأناشيد الإسلامية لا بد أن تزاحم أجهزة البث وأدوات الإعلام لتثقيف المسلمين في أنحاء العالم عن طريق السماع والرؤية بالقيم الإسلامية، وأخلاق القرآن والسنة النبوية، وذلك عن طريق القصيدة الخفيفة، والنشيد العذب، والأغنية الموزونة اللطيفة، فترسخ هذه القيم بالسماع نائماً أو الرؤية هادئاً مضطجعا من غير معاناة في القراءة والاطلاع.

والأناشيد الإسلامية أصبح لها دور كبير في أدبنا العربي الإسلامي، لا يقل شأننا عن دور أجهزة البث والإعلام. وقد فطن الشعراء المحدثون إلى هذا اللون الإعلامي في الأدب، فأخذوا ينشئون الشعر الخفيف فيه، وينشده المغنون والمنشدون والمجموعات في الإذاعة والتلفزيون مثل أناشيد سيد قطب وشعره الإسلامي.

الباب الثاني

مصادر الأدب الإسلامي

د. محمد عبد المنعم خفاجي

رئيس رابطة الأدب الحديث

عصر صدر الإسلام

(١)

لغة كل أمة لا بد أن تتماور عليها ظواهر الحياة، وتخضع لنواميس الوجود، وتمربها ألوان شتى من ضعف إلى قوة ومن جمود إلى حركة وتوثب، ومن انتكاس إلى تقدم وانتعاش.

فقد يطوف بها من الأحداث الجاهدة، والعواصف القاتلة، ما يبعث فيها الموت ويسلط عليها الفناء وقد تواتيها أسباب الحياة يقظة، وعناصر القوة والنماء مشبوبة.

ذلك أن اللغة ترجمان القلوب وحديث النفوس، والأداة المعبرة عما تنطوي عليها الضمائر من فكرة أو خاطرة.

ولقد تأثرت لغة العرب أعمق التأثر بالإسلام الذي بدّل كل شيء، وغير السمات والخلائق لكل مظهر، وقَلَبَ الحياة العربية من حال إلى حال، وحَمَلَهَا هي أعباء جديدة، وناط بها رسالة مجيدة، فانطلقت تؤديها في صبر واستجابة، ومضت تنهض بها في سماحة ويسر، متّسحة بما تستلزمه هذه الرسالة من دروع واقية وحلل براقة وأسلحة جديدة. وستتناول الأدب العربي وتاريخه في هذا العصر بالبحث والدراسة.

(٢)

يفتح العصر الثاني من عصور الأدب العربي وهو عصر صدر الإسلام ببعثة محمد صلوات الله عليه، ودعوته وهو بمكة قريشاً والعرب والناس كافة إلى الإسلام عام ٦١٠ م، ويتنظم ما بعد ذلك مما امتد من عهد الرسول بمكة والمدينة وعهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي، وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام دولة بني أمية على يد معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ، ومدته ثلاثة وخمسون عاماً هجرياً.

وهو من أعظم العصور في التاريخ الإسلامي أثراً، وأكثرها في حياة العرب والمسلمين والعالم والإنسانية خطراً، ففيه بدأت ونمت وازدهرت وانتشرت دعوة الإسلام دين البشرية الخالدة، ومنقذها الكريم من ضلال الجهل والسفه والاستبداد والاستعباد والطفغيان والرق الفكري والبشري والاجتماعي، وهاديها الأمين إلى شاطئ الأمن والسلام والنور والحرية والمساواة، وقائدها البر إلى حياة المدنية والعلم والثقافة وحرية الإنسان من العبودية والخوف والفقر والجور.

وناهيك به بعد ذلك عصراً ازدهرت فيه اللغة، ونبه فيه شأن الأدب، وصار فيه للسان العربي والشعب العربي السيادة والفوز والغلبة في شتى الأرجاء والأمصار.

وكيف لا وقد افتتح بأروع جهاد عرفته الإنسانية، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء، وبثورة لم يعرف التاريخ قط لها نظير، ثورة على الجمود البشري واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان وعبودية الطوائف والشعوب للأكثرين عدداً وعداداً، وثورة فتحت صفحة جديدة في حياة العالم وأحاطت ظلام الحياة ضياءً ونوراً، وظلمها عدلاً وأمنأ وسلاماً وحرية، مما شهد به أفذاذ المفكرين والمؤرخين ودعاة الإصلاح.

ومن أولى من محمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأن يرفع في العالم

منارة السلام، وراية المدنية، وأن يصل الأرض بالسماء ويسعى بالإنسان ليلبغ ما ينتظره من حضارة باهرة وحرية نادرة، وحياة زاهرة، فيها الأمن والأمل والرجاء؟.. صلى الله عليه ورفعته إلى أعلى عليين، وأكرمه في أمته كما أكرم أمته به.

(٣)

هذا وعصر الإسلام مستقل عن العصر الأموي، لاختلاف المؤثرات التي أثرت في الأدب العربي في هذا العصر عنها في عصر بني أمية، وعلى ذلك سار كثير من الباحثين ومؤرخي الأدب، وهو ما سرنا نحن عليه في هذا الكتاب. وإن كان بعض الباحثين يجعل العصرين عصرًا واحدًا يستدئى بانبشاق فجر الدعوة النبوية، وينتهي بانتهاء عهد الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ.

والذين شهدوا هذا العصر العظيم من الشعراء يسمون المخضرمين^(١) يقول ابن رشيقي: «طبقات الشعراء أربعة: جاهلي، ومخضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدرج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا الحاضر»^(٢).

أما الجاهليون فأمرهم مشهور ذائع، وهم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والخطباء والبلغاء وأرباب الفصاحة واللسان والبيان، وهذه الكلمة جمع لكلمة جاهلي من الجاهلية المأخوذة من الجهل ضد العلم، لما كان عليه العرب قبل الإسلام من أمية ظاهرة، أو من الجهل ضد الحلم بمعنى السفه والطيش وسرعة الغضب، لما كانوا عليه من الإسراع إلى الانتقام والأخذ بالثأر وشنّ الحرب لأنفه الأسباب.

(١) وقلّ أن يطلق ذلك الاسم على البلغاء والأدباء والخطباء مع أن مثل هذه الفنون الأدبية أخت الشعر وشبيهة به في كثير من خصائص الأدب.

(٢) ١/٧٢ العمدة لابن رشيقي، طبع عام ١٩٢٥.

وأما المخضرمون^(١) فإذا تركنا حديث الاشتقاق اللغوي فإن الغالب على مَنْ عاش في هذا العصر أن يكون مخضرمًا، إذ يغلب أن يكون قد أدرك الجاهلية والإسلام.

أما الذين نشأوا في الإسلام وتأدبوا بآدابه، وقالوا الشعر متأثرين بالعوامل الجديدة التي نشأت مع الحياة الإسلامية، فهؤلاء إسلاميون يغلب عليهم أن يكونوا قد عاشوا في دولة بني أمية واستظلوا بظللها، إذ من الثابت أن كثيراً من الشعراء الذين تأثروا بالإسلام ومبادئه قد بهرتهم بلاغة القرآن وفصاحته، فانقطعوا عن قول الشعر وعقمت ألسنتهم وبلاغتهم عن إنشاده، ولم يستمر على صلة بينابيعه الثرة، إلا هؤلاء الذين بعدوا عن روح الإسلام ولم يتأثروا به وعاشوا في عزلتهم في البادية، فلما سكنت عنهم هذه الروعة قليلاً بالفهم لهذه البلاغة المعجزة وبخضوعهم لآثار بيئتهم وحياتهم الجديدة بدأوا في نظم الشعر، ولم يعودوا إليه إلا وقد انتهى هذا العصر وبدأ عصر جديد هو العصر الأموي الحافل.

أثر الإسلام في حياة العرب الاجتماعية

يرى الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مبلغ ما كان يسودهم من تنافر وتناحر وشقاق وخصام وحروب مدمرة تآكل الأخضر واليابس، وأحقاد

(١) من المخضرمه يقال أذن مخضرمه أي مقطوعة فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام، وقيل: أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها فسُمِّي كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرمًا، وزعم هذا القائل أنه لا يكون مخضرمًا حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي وقد أدركه كبيراً ولم يُسَلَّم.

قال ابن رشيقي: وهذا عندي خطأ لأن النابغة الجعدي وليدا قد وقع عليهما هذا الاسم (١/٧٢) العملة ط (١٩٢٥).

وقال أبو الحسن الأخفش: هو من قولهم ماء خضرم إذا تناهى في الكثرة والسعة: فمنه سُمِّي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرمًا كأنه استوفى الأمرين (٢/٣٠٤) للمزهر، (١/١٧٢) العملة).

وحكي: شاعر مخضرم بالحاء مأخوذ من الحضرمه وهي الخلطة لأنه خلط الجاهلية والإسلام (٢/٣٠٥) المزهر، (١/١٧٣) العملة).

وأضغان تستبيح كل إثم وتستهن بكل حرم، لأتفه الأسباب وأوهى الحوادث يهيج الشر وتعنف العداوة وتلهب نار الخصومة، لا يراعون لأحد حرمة ولا يرقبون في إنسان ألا ذمة، يتفاخرون بالأحساب ويتكاثرون بالأنساب، ينقضون الميثاق إذا واثقوا، ويغدون بالعهد إذا عاهدوا، يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ويستقسمون بالأزلام، ويقامرون بكل ما تمتلكه أيماهم ويتعصبون للباطل عصبية هوجاء حامية، تقوم معاملاتهم في غالب أمرها على البغي والظلم، فهم: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾^(١).

فلما جاء الإسلام هذب الطبايع، وغير العادات، ومحا ما كان فيهم من السوء، دعا إلى الإخاء والصفاء وعلمهم كيف يحترمون العهد ويحافظون على المواثيق ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣)... وحرّم عليهم الربا وجعله لا يربو عند الله، ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤)، ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَا أضعافاً مضاعفة﴾^(٥)، ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصُّدُقَاتِ﴾^(٦)، وحذرهم من الخمر لأنها تغتال العقول، وتستلب من المرء أقدس مظاهر البشرية ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧).

كذلك جعل الإسلام الأخوة في الدين أسماً وأقدس من إخاء النسب، حتى يستل ما في النفوس من سخائم العصبية وطبائع الجاهلية، ويعمر صدورهم بالحب والسماحة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخُوَّةٌ﴾^(٨) وجعل الكرامة والعزة بما يعمر القلوب من التقوى ويغمر النفوس من صدق الإيمان: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ

(١) سورة المطففين، الآيتان ٢ و ٣. (٥) سورة آل عمران، الآية ١٣٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٩١. (٦) سورة البقرة، الآية ٢٧٦.

(٣) سورة المائدة، الآية ١. (٧) سورة المائدة، الآية ٩٠.

(٤) سورة الروم، الآية ٣٩. (٨) سورة الحجرات، الآية ١٠.

عَنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١﴾، «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، والناس عنده سواء» وهم سواسية كأسنان المشط، «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب، والمؤمنون متكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

بدّلهم الإسلام بحياتهم المضمحلة وعيشتهم المفككة وأخلاقهم المنحلة وأنسابهم المغمورة، حياة شريفة سمحة لا يستبد بها طيش ولا يسودها حقد ولا تفسدها ضغائن، أبدلهم بالجفاء والغلظة وخشونة القول وسوء المعاملة أدباً كريماً وقولاً ليناً وخلقاً عظيماً وطباعاً تفيض بالجلال والبهاء، إذ تعتمد على طهارة النفوس وسلامة الصدور وصفاء القلوب، وتلك من أكبر النعم وأقدس الآلاء ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢).

ولقد حارب الإسلام الأديان الفاسدة، والعقائد الباطلة، والأوهام الضارة ودعا إلى التوحيد الخالص، وإلى التفكير المستقل، وبعث في الناس حبّ المعرفة... هذا إلى أثره البعيد في حياتهم السياسية، وجمعه لهذه القبائل العربية المتنافرة، في ظل دولة موحدة، مما كان له أثره القوي في الحياة الاجتماعية.

أثر الإسلام في الأدب

وقد أثر الإسلام في الحياة الأدبية تأثيراً كبيراً سواء في ألفاظ اللغة أم في أسلوبها، أم في فنون الأدب المختلفة: من شعر ونثر وخطابة وكتابة، أم في أغراض كل فن منها، مما سنبينه باستقصاء في الفصول الآتية.

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

فقد كان الشعر يجري على ألسنة العرب شعوراً وطبعاً وملكة، وتحتفل نواديهم الأدبية بالبلغ المأثور من جيد النثر: خطابة ومحاور ووصايا ونصائح وسواها. والعرب يهزم البيان، وتملكهم بلاغة القول، ولا يرون عبقرية إلا في شعر يروى أو كلام يبلغ يؤثر.

ومع ذلك فقد غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية تغييراً كبيراً واسعاً.

وليس يرجع ذلك إلى ما اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن. ولا إلى آثار مدنية وحضارة، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة ونضال خصوم الإسلام، وإنما يرجع ذلك كله إلى المصدر الأول لثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية، وهو القرآن الكريم، الكتاب المعجز، الذي أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة وقوة، وبدل حوشية الألسنة سهولة ووضوحاً وبلاغة، وأورث العرب وضوحاً في التفكير ودقة في التعبير وروحة في الحجة، ودقة في الأسلوب، وشرفاً في الغرض، ونبلاً في المقصد.

أثر الإسلام في اللغة

وحدة اللغة وشيوعها

أثر الإسلام في اللغة جد خطير، لا يمكن تفصيل القول فيه تفصيلاً وإنما نكتفي بهذا الإجمال:

- جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج، ولنفوذ قريش الروحي والاقتصادي بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة، ونزل القرآن الكريم بلغة قريش فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة. وكان من قريش ومن السلالات المصرية أبناء عمومتهم رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمرائها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها، فكان لذلك

أثر كبير في انتحال العرب لغة قريش بعد قليل، أما ما تورث من لغة حمير، فلم يكن متميزاً عن اللغة القرشية كثيراً، سواء في التصريف أم الإعراب أم الأسلوب، بل كان أكثره ظاهراً في اختلاف بعض الألفاظ عن بعض الدلالة على المعاني المتحدة؛ فالكتع في اللغة الحميرية هو الذئب في لغة قريش، وأنطى في لهجة حمير بمعنى أعطى عند قريش، والشناتر في كلام الحميريين هي الأصابع في لسان قريش، وسامدون لغة حميرية وهي في لهجة قريش الغناء، وهكذا^(١) إلى غير ذلك مما له نظر في لهجات المصريين أنفسهم؛ كالسدنة فهي الظلمة عند تميم والضوء عند قيس.

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها في لغة قريش التي أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات.

٢ - وهذه الفتوحات الإسلامية الباهرة أدت إلى انتشار العرب في شتى البلاد المفتوحة وإلى ذبوع اللغة العربية في أكثر هذه الأقطار، وصارت هي اللغة الرسمية فيها وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقيا الشمالية، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة في هذه البلاد وسواها.

أغراض اللغة

وزادت أغراض اللغة بتأثير الدين الجديد، وما نشأ عنه من نظام ومدنية وعمران وثقافة.

فقد استعملت في شرح العقيدة الإسلامية والدعوة إليها وحجاج خصومها وتبيين مراميها واستنباط أحكامها، كما استعملت في حفظ نظام

(١) فالأرائك لغة حمير، وكذلك: المعاذير، والوز، والحر، واللهم (وهو عندهم المرأة)، إلى غير ذلك مما تجد بعضه في الاتفاق (ص ٢٢٨ وما بعدها ج ١ ط ١٩٤١).

الملك ونشر الأمن والعدل بين الناس، وفيما استدعته حياة الحضرة الجديدة وشؤون الثقافة والمعرفة، وفي إرشاد الناس إلى أحكام دينهم، وتذكيرهم بأوامره ونواهيه.

إلى ما سوى ذلك من شتى الأغراض الجديدة التي تناولتها اللغة في هذا العصر زيادة عما كانت عليه في عصر ما قبل الإسلام، وبعد أن كانت اللغة في الجاهلية تعبر عن عقول محدودة، صارت تنطق من عقول استضاءت بهدي القرآن وتأدبت بأدب الإسلام.

معانيها وأسلوبها

وظهر في معاني اللغة الدقة والتفكير والفهم والعمق، وبما أفاده المسلمون من ثقافة القرآن والدين ومن خبرة وتجربة وإدراك صحيح للحياة، كما اتسعت مادة المعاني باتساع المشاهدات والمناظر والمعقولات والمعنويات، وتعددت صور الخيال في روعة وجمال تعبير، بتجدد وتعدد صور المشاهدات التي ينتزع منها والتي كانت مادة له.

أما أسلوب اللغة فقد شاعت فيه العذوبة والسلاسة في جزالة وأخذت بأطرافه القوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحجة وتأجج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبي، وذلك لتأثرهم بالقرآن وبلاغته، مما رقق من نفوسهم القاسية فسلس طبعهم وألستهم وملكاتهم، ولم تقبل إلا السمع المذهب من الأساليب.

وبتأثير الإسلام بطل سجع الكهان وأضرابهم ممن يستنبئون الحصى ويزجرون الطير، وبطل الفجر في الأسلوب فصار عفاً كريماً سمحاً ينطق عن عاطفة دينية قوية، ويصور حياة روحية واسعة، وينم عن تأدب بأدب الإسلام وتأثر ببلاغة القرآن، ولقد غلب عليهم الإيجاز بادئ ذي بدء لعدم فراغهم من أعباء الدعوة والملك والفتوحات.

ألفاظ اللغة

وقد كانت هناك ألفاظ كره الإسلام مدلولها، وأحبط آثارها، فبطلت مهمتها، وانقضى عملها، وأصبحت لا تلائم الحياة الجديدة، ولم تلبث سنة الوجود أن ألقتْها في الأكفان، ومن تلك الألفاظ: عم صباحاً أو عمت مساء، فقد أبدلها الإسلام بلفظ السلام، وقولهم: أبيت اللعن: أي أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به.

وكذلك هذه الألفاظ التي جاءت في قول الشاعر:

لك المربع فينا والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

فقد كانت تجري عادتهم إذا غنموا أن يعطوا المربع، وهو ربع الغنيمة، للقائد ويعطوه الصفايا، وهي ما يؤثره ويصطفيه لنفسه قبل القسمة؛ والنشيطه ما أخذه الجيش في الطريق قبل أن يصل إلى قَصْده، والفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمته، وكان للرئيس. أبطل الإسلام معاني هذه الألفاظ التي تثير الحق وتغرس الأضرار والأحقاد، وجعل مكانها الخمس. قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾^(١).

وهناك ألفاظ أخرى أحبها الإسلام وأوجد لها معاني بجانب ما تحمله من معنى وتدل عليه من مرمى، كالصلاة والصيام والزكاة والركوع والسجود والمؤمن والكافر والفساق والمنافق والظهار والإيلاء والعدة والنفقة، وهكذا... من الألفاظ الكثيرة التي تزخر بها قواميس اللغة ومعاجمها. وستناول في هذه المحاضرات الآثار الرائعة القيمة التي أحدثها الإسلام في لغة العرب: معانيها وألفاظها وأساليبها.

(١) سورة الأنفال، الآية ٤١.

القرآن الكريم: بلاغته وإعجازه

ليس هناك أبلغ في وصف القرآن الكريم من قول الله سبحانه وتعالى في شأنه: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١)، أجل.. فطالما يتلو المؤمن كتاب الله تعالى، متفهماً معانيه، مستجلباً ألفاظه ومبانيه، مستشفاً أسرارته وخفائيه، ويعلم الله ما من مرة يفرغ فيها من تمامه إلا وهو يعرف عنه ويرى فيهما لم يعرفه أو يره فيما سبق من مرات.

ولطالما يدرس الدارس ما شاء الله من علوم القرآن على اختلاف أنواعها وتباين سماتها، وما من علم من علومه إلا ويقف منها على جديد لم يكن يعرفه، أو يطلع فيها على سر من أسرار البيان لم يكن ليدركه... لولا هذا القرآن العظيم.

وقد يكون المؤمن الدارس لكتاب الله، قبل تلاوته ودراسته يستمع إلى أي من هذا الذكر الحكيم، فإذا به يجد نفسه مشدوداً إليها بسمعه وبصره لا... بل بكافة حواسه ومشاعره، فإذا بها آيات بينات، تنساب إلى النفس انسياب النسمات الرقيقات، وتنفذ إلى القلب وكأنما هي همسات، وأحياناً صرخات... وكل من الهمسات والصرخات تعرف طريقها النافذ إلى الأعماق.

(١) سورة هود، الآية ١.

وبين التلاوة والمدارسة يتمكن المؤمن الدارس من إدراك الحقيقة،
لا... بل بعض هذه الحقائق، فما كان لمُدَّع أن يدَّعي الوقوف على كل
أسرار القرآن العظيم... ذلك الإعجاز القاهر، والعجز العاجز من العرب،
الذين لم يكد يشرق القرآن في دنياهم حتى وجدوا فيه لغة غير ما كانوا
ينطقون أو يسمعون أو يعرفون، لغة هي المثل الأعلى في البيان، وفي روعة
التعبير وعظمة التصوير^(١).

ومع أن العرب في جاهليتهم قالوا الشعر وتفننوا فيه، فما امتد النفس
في جيده إلى أطول من المعلقات، وقالوا النثر، ولم يكد فنهم فيه يطغى على
ما أبدعوه من أشعار... فقد أتى القرآن، وكان العرب - وهم أرباب الفصاحة
وأمرأ البيان - لم يسمعوا ولم يعرفوا بياناً من قبل، علماً أن القرآن لم يخلق
معجماً جديداً، ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة عندهم في البيان، وكل
ما صنعه القرآن أنه أخرج من المادة التي ألفوها آيات هي السحر الحلال
«وإن من بيان لسحراً»، فلم يلبثوا أن تحيرت منهم الأبواب ودهشت نفوسهم
لهذا العجب العجيب.

ومع أن القرآن جاء بهذا اللسان العربي، وعلى طريقة العرب في الأداء
والتعبير، لكن هيهات أن ترقى أساليبهم إلى أسلوبه، مع كثرة ما جاءوا به من
محاسن الشعر وعيون النثر، إذ أن لغة القرآن تدفقت بأسلوب مبدع لا عهد
لأحد بمثله، فلا هو موزون مقفى، ولا هو مرصع مسجع، يتجزأ فيه المعنى
في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع أو تسجيع وإنما هو
آيات مفصلة متناسقة، تروع الخيال بما فيها من تصوير بارع، وتسحر
الوجدان بما فيها من منطق ساحر، وتأخذ بالأفئدة والألباب بما تحمل من
إيقاع جميل، وتلك لعمري خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية
والتفاعيل.

(١) راجع الأثر القرآني في الصور الأدبية: رسالة ماجستير بمكتبة كلية اللغة العربية للدكتور صلاح
الدين محمد عبد التواب، ص ١ - ٦.

ومن أجل هذا لم يلبث العرب أن أبدوا دهشتهم وحيرتهم معاً، إزاء هذا البيان الرائع، فتخبط الكثيرون منهم في الحكم عليه، لما رأوا فيه من سحر لعقولهم وقلوبهم، فمن قائل إنه الشعر، إذ رآه منسجماً مناسباً، فحسبه المنظوم، ولكنهم - وهم زعماء القريض - ما كانوا ليجهلو أمر المنظوم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾^(١). ثم ما لبث آخرون أن قالوا: إن قالوا: هو السحر، وهم حقاً معذرون، وإن كانوا في ضمائرهم مبطلين فقد رأوه معجوزاً عنه، غير مقدور عليه، كما أحسوا له وقعاً في قلوبهم وقرعاً في نفوسهم يزيد ربيتهم وحيرتهم، فإذا هم أمام البيان القرآني، وقد أبطل قولتهم، وأمعن في تجهيلهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟﴾^(٢).

ثم يشهد شاهدهم بأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه، وما هو بقول البشر، والعجيب في الأمر أن هذا القائل نفسه يتقضى رأيه والحق ياكل قلبه، فيقول: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾^(٣).

وهو في ذلك ليس بأحسن حالاً من أولئك الذين استبدت بهم الحيرة والدهشة وذهبوا بقولهم بعيداً: ﴿وَقَالُوا إِسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٤).

هي حيرة ودهشة إذن، بل هو إعجاب وإعجاز معاً، وإلا فما الفرق بين الكلام والكلام، والمادة هي المادة في حروفها وألفاظها وكلماتها؟

المادة حقاً هي المادة، ولكنها ليست هي في اتساقها، وجمال نظمها، وحسن عرضها، بجانب فصاحة ألفاظها وبلاغة معانيها وسمو أغراضها.

(١) سورة الحاقة، الآية ٤١.

(٢) سورة الطور، الآية ١٥.

(٣) سورة المدثر، الآية ٢٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٥.

نعم . . . المادة هي المادة . . . ولكنها ليست هي هي في شفافتها وانبعاث الروح المعبرة منها بما يروع النفوس، ويهز المشاعر والأحاسيس: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١).

وإذا كانت آيات الله البينات يقرؤها القارئ، أو يسمعها السامع وهي تؤدي غرضها ليعرف الإنسان خالقه، ويدرك خيره في معاشه ومعاده، فإن نفس الآيات مع ذلك نراها وقد عرضت في أطر بديعة منسقة، في جو يشع منه الجمال والحلال.

أما الجمال: ففي العرض، وقوة الأداء، وإيقاع العبارة، وإيحاء الإشارة على نحو لا شبيه له ولا مثيل.

وأما الجلال: فلو أن الجبال الرواسي قرعت بشيء لتسير عن أماكنها، أو أن الأرض الصلبة صدعت بشيء حتى تغيرت معالمها، أو أن الموتى في قبورهم خوطبوا بشيء فقاموا من مضاجعهم، لكان هذا الشيء هو القرآن العظيم، وصدق الله قائله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(٢).

وحتى الآيات التي تناولت أمر العقيدة، وتولت عرضها، إذا نحن نظرنا إليها، وجدناها تخاطب العقل والقلب معاً، فلا هي بالألفاظ والعبارات الرتيبة، التي يضيق بها سامعها أو تاليها، ولا هي بالمعاني المجردة الغامضة التي تثير اللبس والإبهام، إنما هي الصورة الأدبية الرائعة، التي جمعت في إطارها رونق اللفظ ورشيق المعنى وجمال الاتساق. حتى كانت تلك الصور الحية النابضة، التي يتملأها الخيال، فلا يكاد ينتهي عنها إلا وقد انطبعت في النفس وأثرت في الحس، وأقنعت الخيال وأمتعت الوجدان وليقرأ أو يسمع

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣١.

من شاء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَأَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

أما الآيات الأخر التي تدل على عظمة الله وقدرته، والتي تذكر الإنسان وتهديه بالعبرة والعظة، فهذه وغيرها إنما يجيء عرضها بنفس التصوير الأدبي الرائع، والتعبير الفني الجميل، وفي إطار من مشاهد الكون ومشاعر النفس يستثير الحس ويستنهض الخيال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (٢).

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٣).

فنحن إذن أمام آيات محكمات، بينما هي مسوقة لأداء غرضها الديني، إذا بنا نستشعرها وهي تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني، وبينما هي تعبر وتصور، إذ بهذين التعبير والتصوير يأتيان بالصورة المحسنة المتخيلة، عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسنة والمشاهد المنظورة، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم لا تلبث الآيات أن ترتقي بالصورة التي ترسمها فتمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا النموذج الإنساني حي شاخص، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية.

(١) سورة الحج، الآيتان ٧٣ و ٧٤.

(٢) سورة الانشقاق، الآيات ١٦ - ٢١.

(٣) سورة الشمس، الآيات ١ - ١٠.

فأما الأحداث والمشاهد، وأما القصص والمناظر، فإننا نراها هي الأخرى شاخصة حاضرة، فيها الحياة والحركة، فإذا أضيف إليها الحوار فقد استوت لها عندئذ كل عناصر التأثير، فما يكاد العرض يبدأ، حتى يتحول المستمعون، إلى شهود وقد انتقلوا إلى مسرح الأحداث نقلاً، حيث تتوالى المشاهد وتتنوع الأحداث، ثم لا يلبث القارئ أو السامع أن ينسى أنها كلمات تُتلى وأمثال تُضرب، بل هي مشاهد تُعرض وأحداث تقع، فهذه الشخصوس تروح على مسرح من الأحداث وتغدو، وهذه مظاهر الانفعال بشتى الوجذانات المنبعثة من الموقف، والمتسارعة مع الأحداث، والأمر لا يعدو بعد كل هذا كلمات تتحرك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة، وتلك هي معجزة البيان أو إعجاز القرآن.

من أجل ذلك كان حتماً مقضياً أن يشغل بالقرآن منذ نزوله كل من قرع القرآن سَمَعَهُ ومسَّ شغاف قلبه، إذ ليس القرآن كلاماً عادياً كغيره من الكلام، وإنما هو حقاً كما قال فيه منزله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(١).

لم يكن من الغريب - إذن - أن يجتذب كتاب الله الحكيم، ذلك العدد الوفير من العلماء منذ نزوله، وكلهم يطوفون حول القرآن وأساليبه وإعجازه وتفسيره، ووجوه قراءاته، وكان من أبرز هؤلاء: أهل البيان، الذين رأوا من روعة التصوير في القرآن ومن دلائل الإعجاز فيه، ما جعلهم يعنون بدراسته واستخلاص القواعد والمقاييس من نماذجه الرائعة، وإن كان القرآن في سموه وإعجازه فوق كل القواعد والمقاييس.

وكان من الذين عنوا بدراسة القرآن وإعجازه: أبو الحسن الرماني، الذي راعته بلاغة القرآن، فوضع رسالته «النكت في إعجاز القرآن العظيم»، وعرف فيها البلاغة بأنها: «إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من

(١) سورة هود، الآية ١، وراجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، التصوير الفني في القرآن.

اللفظ» وهو نفس تعريف ابن رشيق للبلاغة فيما بعد، حيث كانت البلاغة عنده «إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»..

كما أننا رأينا عبد القاهر الجرجاني قد وقف بدوره - كما وقف سابقوه - على قضية الإعجاز التي كانت الحافز الذي دفعه إلى نهاية الطريق، يتفرس التراكيب ليقف على وجوه الحسن والجمال فيها، ثم ليتمكن من بعد من الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز في كتاب الله الكريم.

ومن ثم لم يكن الرماني ولا عبد القاهر الجرجاني وحدهما في هذا الميدان، ميدان البحوث والدراسات القرآنية، فقد تعدد الباحثون قبلهما وبعدهما، وكل أدلى بذلوه في هذا المعين الفياض، يغترف منه، وكل أبلى بلاءً حسناً في حدود طاقاته وإمكاناته واتجاهاته.

وكان لتلك العقول الكبيرة فضل في تفتق أكمال البيان القرآني عن مسائل ولطائف في فنون القول وجماله، وما زالت دراسات إعجاز القرآن تؤتي أكلها وتزداد على مر الزمان حيوية وإنتاجاً، إلى أن توصل علماء الإعجاز إلى دقائق ولطائف كثيرة في أسلوب القرآن، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة، وأصبحت بعض دراساتهم في شرح وتحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل متطلع في فن القول، ومرجعاً لكل باحث في خفايا التعبير العربي.

ولقد كان من العجيب حقاً في آيات الله البيّنات أنها جاءت في أسلوب لا مطمع لطامع في مثله، فلم يكن في قالب شعري، وليس هو بالثر المعهود وإنما أدى هذا الأسلوب بشكل خاص به مقصور عليه، ومذهب متفرد لم يسبق إليه، فلا هو موزون مقفى، ولا هو مسجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع. وإنما هو أسلوب له مزاجه الخاص في الاتصال والانفصال، وفي الطول والقصر، تتلو بعض سوره، فإذا أنت مضطر في تلاوتها إلى الأناة والتمهل، لأنها فصلت في ريث ومهل، لأداء معان تحتاج إلى البسط والريث، كالتشريع مثلاً، وكوصف ما كان يُشار بين المسلمين والمشرّكين من الحروب، وتتلو بعض سوره

الأخرى، فإذا أنت مضطر إلى شيء من الإسراع، لأنها تؤدي معاني يحتاج أداؤها إلى القوة والعنف، قد فصلت آياتها قصاراً، ملتزمة الفواصل، تقرأها، فكأنما تنحدر من علو، وذلك حين يخوف الله عباده ويشدد في تخويفهم، فيأخذهم من جميع أقطارهم ويقطع عليهم طريق الجدال والحجاج.

ولما كانت الصورة الأدبية^(١) في القرآن موجهة أول ما توجه إلى النفوس البشرية لتحدث فيها تأثيرها الفعال، فإن هذه الصورة اعتمدت - فيما تعتمد - على عنصر الصوت. وليس بخاف أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وإن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج فيه مدأ، أو غنة، أو ليناً، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها.

من أجل ذلك صيغت أسجاع القرآن وفواصله، وصولاً بصورته إلى أعماق النفوس، ولعل تلك الخاصة الصوتية للصورة القرآنية، والتي لها من الوسائل ما تفردت بها عن غيرها. لعل تلك الخاصة هي إحدى ظواهر الإعجاز في كتاب الله، والتي من أجلها سُمي قرآناً دون غيره من الكلام، لأنه مقروء، ولا يُوصل إلى منتهاه في الروعة والتأثير إلا بتلاوته وسماعه، ومن أجل ذلك كان قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢)، بل كان الحث على ترتيله ترتيلاً، لا قراءته كيفما اتفق، وما ذاك إلا ليتم حسن إيقاعه ووقعه في النفوس، فيعظم أثره، قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾^(٣).

وكان من أبرز الخصائص التي تميزت بها الصورة الأدبية في القرآن: ذلك التناسق الفني البديع، الذي جمع في إطاره الصورة، وفي وقت واحد

(١) راجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية ص ٨٣ - ٩٩، رسالة ماجستير د. صلاح الدين محمد عبد التواب.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

(٣) سورة المزمل، الآية ٤.

معاً، بين رشاقة اللفظ، ودقة المعنى وجمال الاتساق بين اللفظ والمعنى، في الوقت الذي يعزُّ فيه أن يجتمع هذا المجال ويكتمل في تصوير أدبي غير القرآن. ومن خلال هذا التناسق وجدنا القرآن يستخدم كل ما يمكن أن يتخذه من الوسائل المثيرة للخيال - وهو الحق كله - لتفعل فعلها في النفوس، ولكي تتعمق الصورة وتثبت في الإدراك والوجدان رأينا القرآن يستعمل صور البيان المختلفة من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية وغيرها من أبواب المجاز.

وربما يقول القائل هنا: إن العرب قد استعملوا أيضاً هذه الوجوه لإثارة الخيال وتحريك العواطف وإلهاب الوجدانات والمشاعر، فما هو الجديد إذن في تصوير القرآن؟

ولكنه فرق، وأي فرق، فرق بين تصوير وتصوير، وفرق بين تأثير وتأثير... .

إن الصورة الأدبية عند أبلغ البلغاء لم تخرج عن نطاق كونها من تصوير البشر محدودي الأفق. فهم على قدر وقوفهم على مظاهر الحياة والأحياء يكون تصويرهم، وبمقدار علمهم بدخائل النفوس وطبائع الأشياء يكون تعبيرهم، فضلاً عن أن البليغ مهما عظم بيانه فإنه تبدو في كل كلماته مسحة الانفعال بأغراضه، ولذا يكون تأثيره في السامع أو القارئ على قدر تأثيره هو، طبعاً أو تطبعاً.

أما التصوير القرآني... . فإننا نحسُّ من خلاله أن وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذا الغرض أو ذاك... . قوة تؤثر حين تصور ولا تتأثر، قوة العالم بخفايا النفوس وطبائع الأشياء، فهو يسوق لها من ألوان المؤثرات ما يتناسب وطبيعتها وينفذ منها إلى الأعماق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١)؟

ومن هنا يبدو الفرق أيضاً بين التأثير والتأثير، فتأثير الصورة في غير

(١) سورة الملك، الآية ١٤.

القرآن لا يتعدى سلطانه على النفوس حد إطرابها والحصول على إعجابها، ثم لا يلبث هذا الاطراب والإعجاب أن ينقضي بانقضاء معالم هذا التصوير، وبمجرد الانتهاء من التعبير، أما تأثير الصورة القرآنية وإنما يسري في النفوس سريان الروح في الأجساد، فلا يزال يحركها، ويتسلط على مشاعرها، فلا تملك النفس إلا أن تتابع بخيالها ووجدانها تلك الصورة، ذاهبة وراءها كل مذهب.

ولنتل - على سبيل المثال - قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

فهذه الصورة المشعة الموحية المعبرة، تثير الخيال، وتجعله عاكفاً على تمثل تلك الحركة العجيبة التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال، هذه الحركة هي ولوج الجمل في سم الخياط - الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة - بعد عمر طويل.

فهذه صورة ليس فيها استعارة ولا كناية ولا تشبيه، ولكنها فقط تعبر عن معنى المستحيل غيباً بصورة المستحيل حساً ومشاهدة، ومع هذا التخييل الرائع في التصوير فإن الآية تعبر عن الحق الذي لا شك فيه. وذلك من أسرار الإعجاز في بيان القرآن الكريم.

كذلك كان من خصائص التصوير الأدبي في القرآن الكريم تلك الروعة الفنية، التي تجلت في الآيات المحكمات حين استعرضت كلا من مواقف الدنيا والآخرة، استعراضاً لم يعد له عالم الغيب موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحيّاً متحركاً، جعل الناس يعيشون في هذا العالم عيشة كاملة - وهو لما يأت بعد - فرأوا مظاهره، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة أخرى، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعادوهم

(١) سورة الأعراف، الآية ٤٠.

الاطمئنان أخرى، ولفحهم من الناس شواظ، ورف إليهم من الجنة نسيم، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تماماً قبل مجيء اليوم الموعود، بعد أن عرضت عليهم مواقف في صور شتى، تتراءى في عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة، تتملأها النفس ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحس والوجدان، وهي بذلك تضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال.

وخاصة أخرى تطالعنا بها الآيات الخالدات، في ظاهرة كانت سمة من سمات القرآن البارزة، تلك هي ظاهرة التقابل بين صوره، وليس المقصود هنا تقابل جزئيات الصورة فحسب، بل التقابل بين صورة كاملة في شكلها ومضمونها، وبما فيها من إيقاع موسيقي وانفعال نفسي، وبين ما يقابلها في صورة أخرى بكامل شكلها ومضمونها كذلك.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي، فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِثْقَةً أَحَدًا﴾^(١).

ففي وسط هذا الروح، ومن خلال الهول الذي ترسم صورته هذه الآيات، وهي تبرز لنا ذلك العرض الرهيب الذي تشترك في تجسيمه جهنم ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، وتلك الإيقاعات القوية الصاخبة، والمتظمة مع الموقف في رهبته وروعته، والمنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأمر ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

في وسط هذا العذاب المروع والهول المفزع، نجد الصورة المقابلة تماماً في الآية التالية مباشرة، حيث يقال لمن آمن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ﴾^(٢).

(١) سورة الفجر، الآيات ٢١ - ٢٦.

(٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠ وراجع التصوير الفني في القرآن.

هكذا في عطف ولطف: «يا أيها النفس»... هكذا في روحية وتكريم، و«المطمئنة» وسط هذا الروح العظيم، و«ارجعي إلى ربك» في وسط هذا الشد والجذب والوثاق المهيّن لهؤلاء الآخرين.

ورجوع النفس المطمئنة إلى ربها، بينها وبينه من صلة وتكريم، و«راضية مرضية».. بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى والتعاطف، «فادخلي في عبادي» متمتجة بهم منتظمة في سلوكهم، «وادخلي جنتي» هكذا في إعزاز وإكرام وتفضيل^(١).

وهكذا نفس الإيقاعات المناسبة مع كل موقف، وهذا من عظمة التعبير وجمال التصوير وروعة التأثير التي تنساب دائماً من خلال آيات الله المحكمات. والتي يشهد لها كل من قرأها أو سمعها وانفعل بها بأنها تجمع في إطارها كل منابع الحق والخير والجمال.

وإذا كانت الصورة القرآنية قد عنيت عناية كبيرة بأمثال هذه المقابلات الواضحة القوية. فبرزت لذلك كاملة الوضوح دقيقة المعالم قوية التأثير، فما ذلك إلا لأن القرآن قد عرض في تصويره نماذج للحياة والأحياء، والطبيعة كلها صور متقابلة: أرض وسماء، ليل ونهار، خصب وجذب، مرتفعات ومنخفضات، صلابة وليونة، استقامة والتواء، إلى آخر هذه الصور المتقابلة في الحياة والأحياء، وما يتعاقب على هذه المظاهر من تبديل وتغيير وتحول من النقيض إلى النقيض، ومن ثم فإن سامع القرآن أو تاليه لم يكد تعرض له صورة من صوره الرائعة إلا وينتهي بعدها لاستقبال الصورة المتقابلة المتوقعة... وهنا يكتمل في نفسه التصوير ثم يعظم التأثير.

كذلك من الخصائص التي تميزت بها آيات القرآن الكريم: أنها جاءت في إطار واحد موجّه للعامة والخاصة معاً، فلم تترفع لتخاطب الخاصة، ولم تنزل لتخاطب العامة، بل كانت على مستواها الرفيع الواضح، شأنها شأن

(١) راجع الأثر القرآني في الصورة الأدبية ١٥٠ - ١٥٥، والتصوير الفني في القرآن ٧٩ - ٨٠.

الشمس في عليائها يستمتع بها الصغير والكبير على السواء، ويراهما كلُّ مقدرةً على مقياس عقله وعلى وفق حاجته. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾^(١).

وما اختص به الأسلوب القرآني أيضاً: روعة انتقاله من معنى إلى معنى أو من حالة إلى حالة، انتقالاً لا يحرك النفس ويزيد من متابعة الخيال لهذه الصور المتتابعة وهي تنتقل من الدنيا إلى الآخرة، وترتفع من الأرض إلى السماء، وتتحول من خطاب الإنسان العاقل إلى خطاب الجاهل الذي لا يفهم ولا يعي، والأعجب من هذا، أن التصوير القرآني مع كونه في أروع الكلمات افتتاناً وتنوعاً في الموضوعات، هو أروع افتتاناً وتنوعاً في الموضوع الواحد، مع أن هذه التحولات السريعة المستمرة والتنقلات العديدة المتنوعة مظنة الاضطراب، ولكنه التصوير القرآني الذي يحتفظ دائماً بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وروعة التأليف وجودة السبك، حتى صاغ من هذه الأفانين الكثيرة منظراً مؤثلاً متناسقاً، يشهد لهذه القدرة الباهرة بالعظمة والإبداع والإعجاز.

على أنه مهما كانت تلك الخصائص للصورة الأدبية القرآنية، فإن النفس لا تزال تتطلع إلى هذا التصور الذي يتحد فيه معاً إقناع العقل وإمتاع الوجدان، وإلا فَمَنْ لهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يشبع نَهَمَ الفلاسفة المتعمقين، وفي ذات الوقت له من المتعة الوجدانية ما يأسر قلوب ذوي الحس المرهف والعاطفة الجياشة فيغمر منهم بكلماته الحس والوجدان؟

إنه لتصوير رب العالمين، فهو - وحده - الذي لا يشغله شأن عن شأن؛ وهو - وحده - القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً، يلتقيان ولا يبغيان.

(١) سورة القمر، الآية ١٧.

فليس بعجيب - إذن - أن توضع الصور البيانية في القرآن نصب الأعين أمام الأدباء والنقاد على السواء .

أما الأولون : فقد جعلوها المعين الفياض الذي منه يغترفون ، وإن كانوا لم يدركوا كل السر في هذه الحلاوة ، وفي هذا السحر الحلال .

وأما الآخرون : فقد حاولوا جاهدين من أجل أن يكون التصوير القرآني مقياساً لكل تصوير أدبي رائع جميل ، ولكن هيهات أن تدنو أي مقياس من جمال التصوير في القرآن الكريم ، اللهم إلا إذا أدرك الناس كنه الروح التي أضفاها الله على الكلم فحركاتها وصورتها .

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وصدق الله العظيم . . .

الصور القرآنية في القرآن الكريم

(١)

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية ، فضلاً عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية ، التي كانت جدتها حدثاً كبيراً ضخماً من أهم الأحداث العالمية ، وأكبرها إثارة وجليل أثر ، وكبير خطر في الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد ، وبأكثر وأكبر مما أتى ويأتي به أي جديد ، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم ، ومع كل

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ ، وراجع : الأثر الفني في الصورة الأدبية ص ٢٧٥ - ٢٨٤ ، رسالة ماجستير للدراسات الأدبية حول الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً ، ص ٤٩٨ - ٥٢٠ ، رسالة دكتوراه للدكتور صلاح الدين محمد عبد التواب . . . الرسلتان بمكتبة كلية اللغة العربية ، جامعة القاهرة .

ما وصل إليه الفكر الإنساني من تطورات مذهلة ونتائج جديدة في نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة، وجدة القرآن الكريم لا تزال باقية ماثلة أمام كل تطور إنساني وبشري، وأمام كل تقدم فكري بلغته الحياة حتى اليوم، والقرآن الكريم الحكيم كما كان جديداً على عقل إنسان القرون الأولى لنزوله، فإنه بفكره المشرق المضيء وما أتى به في مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم، هو جديد أبداً، وسيظل هو الجديد دائماً على مر العصور والأجيال والأحقاب.

لن نفيض في الحديث إذن عن الجدة في القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جدة الصور الأدبية في القرآن الكريم... ويدفعنا إلى ذلك أمران:

الأول: جانب المعجزة في القرآن الكريم.

والثاني: جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية، فضلاً عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره في الناحيتين الروحية والفكرية.

ولا يستبين للباحث أهمية أي نص من نصوص الأدب، أو أثر من آثاره الرفيعة، إلا إذا أدرك إدراكاً عميقاً مدى الجدة في هذا الأثر، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التي يضيف بها إلى الفكر الإنساني شيئاً لم يصفه إليه السابقون.

ومن حيث كانت جدة القرآن في جوانبه الروحية والفكرية أمراً مسلماً به، فإن الذي سينتهي بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة في الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضاً، لأن تقريرها أساس لتقرير أي أثر وفهمه ومعرفة قيمته.

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة في الصور الأدبية للقرآن؟ ولا نطلق البحث إطلاقاً ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما في القرآن من الجانِب الأدبي عامة من جديد؟

نعم نريد أن نبحث عن الجديد في الصورة الأدبية في القرآن الكريم وحدها، لأن الصورة الأدبية هي الإطار العام للأدب، وهي التي تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه، وهي التي تستثير الباحث أو ما يستثيره في النص الأدبي من خصائص ومميزات. على أن الصورة الأدبية في النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف إلا نادراً جداً، وفي أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب.

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب:

الأول: أنها تعني المنهج وطريقة الأداء؟ وتساوي بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبي من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة... إلخ...

والثاني: أن الصورة هي الشكل في النص الأدبي، وتقابل المضمون الذي هو الفكر أو المعنى، أو الغرض أيضاً (مع بعض التجاوز) في النص، فعلى هذا تكون الصورة التي هي الشكل في النص الأدبي شاملة للعبارة - أي الأسلوب - وللخيال الذي يلون عاطفة الأدب ويصورها. وعندئذ نقف في النص بين الشكل والمضمون، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة، فلا يطغى أحدهما على الآخر، فلا يطغى المضمون على الشكل أي الصورة. وإخراج الكلام من باب الأدب إلى العلم، ولا تطغى الصورة على المضمون، وإلا كان الكلام أدباً لفظياً انشائياً لا وزن له في باب الفكر، بل في مجال الأدب أيضاً وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة، كما يهتم بالصورة أو الشكل.

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية في القرآن الكريم بالمعنى الأول الذي هو طريقة الأداء، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثاني الذي هو الشكل أو النظر أو الأسلوب.

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر؛ فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف.

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه في المجتمع العربي كبير خطر، ولا عظيم شأن، وكان أكثره ارتجالاً واقتضاباً، وليس فيه ثقافة واسعة، ولا فكر مضيء. وأكثره يذهب في الشتات والاختلال وتفكك الوحدة الفنية (أو العضوية) مذهباً بعيداً، فضلاً عن أن النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلي احتفالاً يذكر، ولم يوله عناية ما ولا أحله منزلة خاصة، وفوق ذلك كله فَقَدَ النثر الجاهلي قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ولضياع أكثره المدة الطويلة التي عاشها هذا النثر معتمداً في بقاءه على الحافظة وحدها، والحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلاً فيها بعكس الشعر لأنه مقيد والنثر مطلق، والمقيد يبقى في الذاكرة أكثر مما يبقى المطلق.

ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلي قد رفضه كثير من الدارسين والنقاد، ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين أيضاً، رفضوا أن يسمى نثراً فنياً، لأنه في رأيهم لم يكن محتوياً على عناصر النثر الفني ومقوماته، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبي، الذي يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة. ولكل هذه الأسباب كانت الصور الأدبية الثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر في مجال النقد وموازين الكلام والحديث عن القيمة الفنية.

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين، وهو المجتمع الذي نزل القرآن متحدثاً إليه مفيضاً في التوجيه - كل التوجيه - له.

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفني، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من قصائد المعلقات المعروفة ذات الصيغة المتوارثة العمودية، التي وضعت تقاليداً الفنية العربية كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التي ورثناها عن الجاهليين، وكانت لهذه القصائد منزلتها ومكانتها وأهميتها في المجتمع العربي، فهي حديث الناس، وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم، وهي التي ينشدونها في مجالس لهوهم وجدهم وفي مسامراتهم، وأنديتهم، وفي أسواقهم وحروبهم وحلّهم وترحالهم، وهي على العموم آية عبقرية، ودليل شخصية وذاتية عظيمة والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية في مجتمعه ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس، وبلغ من أمر قصائد المعلقات أن علّقت على أستار الكعبة.

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصائد المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها:

- ١ - تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية.
- ٢ - وأنها تخلو من كل وحدة فنية، مما لاحظته عليها كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد في كتابه «مراجعات» وغير العقاد أيضاً، كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلي من مجلة الثقافة^(١).
- ٣ - وأنها تمثل منهجاً بدوياً في التعبير والأسلوب واللفظ والخيال وليس هو كل شيء في مناهج التعبير الأدبي.
- ٤ - وأنها كذلك تكثر فيها أخطاء الشاعر اللغوية كثرة مذهلة.

ولسنا نقول نحن ذلك تجنّياً على القصيدة العربية القديمة، بل لقد سبقنا إلى ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه المشهور «إعجاز القرآن»

(١) جنابة الشعر الجاهلي على الأدب العربي، أحمد أمين مجلة الثقافة المصرية عام ١٩٣٩.

الذي درس معلقة امرئ القيس المشهورة في صفحات عديدة من كتابه، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها.

ونحن نعرف أهمية قصائد المعلقات معرفة وثيقة فهي التي وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية، وهي التي تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلاً كاملاً وهي التي استنبطت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها في بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك.

وهي التي كذلك أمدتنا بالشاهد والمثل على كل شيء في لغتنا العربية، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: «إذا عَزَّ عليكم فهم شيء من كتاب الله تعالى فالتمسوه من شعر العرب»^(١)، فنحن لا نريد أن نغض عن قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية أو ننفر منها، ولكننا نضعها في موضعها الذي وضعه فيها الإمام الباقلاني في مقام حديثه عن إعجاز القرآن الكريم.

هذه القصيدة الشعرية إذن كانت أرفع صور الأدب في مجتمع الجاهليين ومع ذلك فإنها لا تزن شيئاً في مقام الحديث عن الصورة الأدبية من القرآن الكريم.

(٣)

فما هي إذن الصورة الأدبية في القرآن الكريم والجديد فيها، والطريف منها، والشيء الذي لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها وألوانها وطرق أدائها؟

لأول وهلة نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة، ففرقان وقرآن وآيات وسور: أسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك.

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتاب الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، وكتابتنا موقف النقاد من الشعر الجاهلي.

﴿وَفَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(١).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٢).

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

﴿طه، مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(٤).

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٥).

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب، فلم يتخذ شكل القصيدة الجاهلية نمطاً له، ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاوراة.

ولكننا نجد فيه القصة في أرفع أشكالها وأروع ظلالها، ونجد فيه الخيال الرفيع في ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة، ونجد فيه البشارة والإنذار والوعد والوعيد، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور.

لم يكن القرآن شعراً ولا سجعاً ولا مزاجعة ولا نثراً مرسلاً ولا خطابة، بل جاء على مذهب خارج عن المفهود من نظام كلام العرب، ومبائن للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال، واعذار وإنذار ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم، وسير مأثورة، ويتردد بين طرفي الإيجاز

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية ١.

(٣) سورة يوسف، الآية ١.

(٤) سورة طه، الآيتان ١ و ٢.

(٥) سورة النور، الآية ١.

والإطناب، كلمه يضيء، كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، كالروح في البدن، والأمن في الوطن، وكالغيث الشامل، والسحاب الهاطل، وكالضياء الباهر، والبحر الزاخر.

وإن تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ولهوها وجدها وألمها وأملها، وكفرها وإيمانها، وللمثل العليا في الحياة المهذبة الكريمة التي يسعى إليها إنسان الإسلام، وتسير لشاقتها الأمين إنسانية الحياة في ظلال الدين، لأنه خلاص لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة.

وفي القرآن الكريم من سمو وصفاء الحكمة، وإتمام مطابقة المثل، ما جمع به البلاغة من مختلف أقطارها؛ وفيه من الحجة الدامغة، والروحانية الصافية، والحديث عن العقيدة، والإفاضة في بيان الشرك والإيمان، والشر والخير ما يوقظ الضمائر ويحرك العقول، ويشير النفوس.

وفيه من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، والشرائع البائدة، والأديان السالفة، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن الأخبار بالمغيبات، ومن الإفاضة في شرح الدعوة، وبيان التشريع والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهدة في خلق السموات والأرض، وبقياس الغائب على الشاهد، وبضرب الأمثال، وبالبراهين العقلية المجردة؛ وفيه من حسن التقسيم، وجمال المقابلة، وروعة الطباق، وبديع الجناس، ورفيع الفواصل ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه.

ومع ذلك فهو كله ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية، وليس شعراً أو أدباً أو حكمة، أو تاريخاً أو اجتماعاً، وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات، ونهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية، فهو كتاب الإنسانية كلها وصحيفة البشرية قاطبة.

وما أروع القرآن في فواتحه ومقاصده وخواتيمه، وفي مبادئ آياته وفواصلها، وفي حديثه عن المعاني الدقيقة، والأفكار العميقة، والأغراض النبيلة، وفيما اشتمل عليه دقة التصوير، وجمال الوصل، مع سمو التعبير وعظمة التأثير، وروعة الإيجاز، وسحر المجاز وبلاغة التكرار وفصاحة التعريض، يصور نعيم المؤمنين، وسعادة المتقين، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة، وبالسعادة الفرحة، وبالسرور والحبور، وبقرّة العين، واثلاج الصدور، وبالعجب والطرب، ثم يصور هلاك العاصين وشقاء الجاحدين وعذاب الكافرين فيتركك حليف الهم والحزن والتذكر والاعتبار، والتفكير والتدبر، والألم والدفع، والبكاء والعبرة المنسكبة، والآهة المرددة.

والسورة القرآنية، قصيرة أو طويلة، تجيء ممثلة لفكرة، ومصورة لغرض، ومؤدية لمعنى، وتسير في جوها العبق، وأفقها الساحر، وجوانبها المشرقة، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة، وتجدك تمشي مع الغرض القرآني، غاية فغاية، في حدة واتساق، وفي نظام عجيب، وترتيب غريب، وفي منطق متسق، وحجج متدافعة متدفقة، وتجد الآيات تتحرك في معرض الاستدلال كأنها موكب من نور، ومهرجان مصور لأدقّ خفايا الشعور، وحنايا الصدور، وتجد في هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التي تمثلها السورة الأخرى، وغرضاً واضحاً غير الغرض الذي ترمي إليه السورة السابقة أو اللاحقة.

وتجد افتتاحات السور العجيبة، مثل ص، ن، ق، طه، طسم، حم، الر، ألم، إلى غير ذلك.

وتجد الآيات تتوالى في السورة، وكأنها البحر الهادر، والموج العاصف، وتجد الفواصل في السورة، موقعة الخطأ، منغمة الحروف، وتجد القصة والعبرة، والموعظة، والحكمة، في قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت وفي طابع من الحسن والجمال، ولا كحسن يوسف وإخوته.

وتجد لكل سورة اسماً عجيباً، البقرة، والرعد، والطور، والمائدة،

والكهف، ويونس، ويوسف، وإبراهيم، ومحمد، والنور، والمؤمنين، والمنافقين، والضحى، والشمس، والقتال، والفتح، والحشر، والصف، والنساء، والطلاق، والتحريم، والأحزاب، والمائدة، والأنفال، والتوبة، وآل عمران، والجمعة، والعصر. إلى غير ذلك وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة، ولكل قصة حدثاً وعبرة.

وكل ذلك نمط مخالف لأنماط البيان عند الجاهليين، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين تنزلت عليهم هذه المعجزة الإلهية الحكيمة. . . إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثلاً ولا شبيهاً بها، ولا تجدها نفسها، إلا في القرآن الكريم.

سبحانك ربي، أنزلت القرآن، وفصلت الفرقان، وأحكمت البرهان، وأنت رب العالمين، ومنزل الكتاب المبين. ورأى العرب الكتاب شيئاً عجيباً، ومنطقاً جديراً، ومنطقاً فسيحاً من الحكمة الإلهية الجليلة، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب: «لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر» إنما هو الوحي، الوحي المنزل على محمد بن عبد الله، الوحي الذي نفى بعض العرب على محمد أن ينزل عليه، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن قيس يقول له: ما تقول فيما سمعت من محمد، فقال الأخنس: ماذا أقول: قال بنو عبد المطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم، وقالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم عادوا يقولون: فينا نبي ينزل عليه الوحي، والله لا آمنت به أبداً.

إنه الوحي المنزل من السماء، المشتغل على الروعة والجمال والجلال والبهاء، وكفاه ذلك فخراً على فخر، وسناء على سناء.

(٤)

وتحدث الآن عن الجدة في الصورة الأدبية القرآنية، التي نريد منها الشكل وما يقابل المضمون، بعد أن تحدثنا عن الجدة في الصورة الأدبية

القرآنية التي يراد منها الجنس الأدبي وطريقة الأداء والمنهج الذي ينتهي إليه المتكلم في التعبير.

والصورة التي نريد أن نتحدث هنا عنها، ونريد بها الشكل في النص القرآني، لا يمترى أحد ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام في أنها والجدة صنوان، وفي أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان.

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، ويضاف إليها مؤثرات يكمل بها الأداء الفني، من الإيقاع واللحن للكلمات والعبارات ومن الصور والظلال التي يشقها التعبير، ثم هناك طريقة تناول الموضوع، أي الأسلوب الذي تعرض به التجربة الأدبية.

والصورة المثيرة للالتفات هي القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره، والتي تتجمع فيها روعة الخيال والنغم ووحدة العمل الأدبي وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيراً دقيقاً.

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلاً، يؤثر لفظه على لفظه، ويفضل كلمة على كلمة، ويقول كثير من النقاد: إننا نفكر بالألفاظ، أي أن الألفاظ هي مظهر إدراكنا الفكري، وعمل الأديب تهيئة الجو الفني للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والإيقاع وترسم الصور، وتؤدي المعاني في رشاقة وحركة، وتتابع وعدوبة، تقرأ قوله تعالى في كتابه العزيز في سورة الضحى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^(١) فتجد جواً من الهدوء والطمأنينة والنعمة، وتقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾^(٢)، فتجد كل لفظ في التعبير قد رسم صورة مدعورة يلتفت في كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن، وتقرأ قوله تعالى ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾^(٣) فتجد البلاغة في أرفع منازلها، ولا تجد

(١) الآية الثانية.

(٢) سورة القصص، الآية ١٨.

(٣) سورة القلم، الآية ١٣.

لفظاً يمثل الفجوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة . . . وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعنى تمثيلاً دقيقاً رائعاً كاملاً غير منقوص . . . والخيال في الصورة الأدبية يبدو في مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل . . .

والإيقاع أو اللحن في الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال . وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءاً بالحيوية والمتعة والتأثير، وتجعله لا يقلد أحداً في لفظته ولا في عبارته، وليس الأسلوب حشداً من الألفاظ المرصوفة، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى في الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته فتوضع الجزالة في وضعها، والركة والعذوبة في وضعهما، ويوضع التقدير والتأخير، والذكر والحذف، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب، كل في وضعه، وبذلك تكمل الصورة، وترتفع منزلة الأسلوب في البلاغة، ومن البدهي أن أبلغ الكلام هو ما لا يلقي فيه بالأحكام الفكرية جزافاً، وإنما يجب أن يصور أسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعورية التي يصورها .

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدي كله هي كل شيء في البلاغة، أو أهم شيء فيها . ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الأسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الأداء في القرآن الكريم، وعلى أروع ما يكون التصوير في أسلوب الذكر الحكيم، لما أتينا بجديد في الموضوع .

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة، عما ألف العرب في بلاغاتهم وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج في أسلوبه وصوره عن النطاق الذي كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والقصر والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب، والتشبيه والتمثيل،

والمجاز والإيجاز، والاستعارة والكناية، والتمثيل والتعريض، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى القمة، وحدّ الإعجاز، ومنزلة السحر والروعة، ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآني وبين نظائره من كلام العرب لوجدنا البون شاسعاً، والفرق بعيداً، ويطول بنا الأمر لو وازنا بين أساليب القرآن وأساليب العرب، فإن النتيجة التي سنخرج بها من هذه الموازنة هي عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه.

والعناصر الأخرى الجديدة في الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير في طريقها محاولة الكشف عنها، من مثل الوحدة العضوية في الصورة الأدبية، ومن مثل التجربة الأدبية التي يؤديها البليغ ويحملها كلامه، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال في الصورة، ومن مثل النظم والشكل في النص، ومن مثل أثر الإلهام أو الصنعة في الصورة الأدبية، ومن مثل الرمزية في الأسلوب أو الفكرة، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير في الأسلوب، وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الأدبية، كالرقة والجزالة، وكالتعريض والكناية، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك.

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة، كل الجدة، في كل جوانبها وألوانها، سواء منها العناصر القديمة التي تداول استعمالها في الأسلوب، أو العناصر الجديدة التي كشف عنها النقاد المحدثون، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التي كشف عنها النقاد القدماء، ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله في ساعة أو بعض ساعة، وكمن يظن أن في قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد في أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه.

(٥)

وحسبك أن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها، ومن إشراق البيان وجمال الديباجة، وعبقورية التصوير والتعبير.

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة، وبين القوة والعذوبة، وبين حرارة الإيمان وتدقيق البيان، فهو السحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين.

نظم رائع، وألفاظ عذبة، وخيال صادق، وعاطفة حارة، وفكر رفيع، تملك على القارئ والسامع لبه ووجدانه، وعقله وبيانه، ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع آيات من أول سورة «طه» وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله: «والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر» حين سمع «فصلت»، وما تردّد بلغاء العرب على الأماكن التي كان يتعبد فيها محمد ليلاً، ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، إلا دليل على سحر القرآن الذي جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(١)، وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ﴾^(٢)، السحر القرآني الذي يتمثل فيما يتمثل في صدق الشعور، وحرارة العاطفة، وجمال النظم، وأحكام البيان، وروعة التصوير.

أي ورقي، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أسلس من ألفاظه، وهل ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تشاكلاً وروعة من نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، الآخذ بمجامع القلوب، والمشاعر، والنفوس.

إن بلاغة الصورة الأدبية وجدتها في القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف ولا يستطيع أن يكشف عن خصائصها وأسرار إعجازها باحث أو ناقد.

وحسبك روعة القرآن وجذته وحيوته وأخذه بالأفئدة، والأسماع، والمشاعر، والعواطف والنفوس، وحسبك خلوده على مر الأيام، واختلاف البيئات والعصور.

هذه البساطة في الأسلوب، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه،

(١) سورة المائدة، الآية ١١٠، والأنعام ٧، وغيرهما من الآيات.

(٢) سورة المدثر، الآية ٢٤.

والجزالة والعدوية في أطرافه ونواحيه تمثل فيما تمثل جانباً من جوانب عظمة التصوير في القرآن الكريم.

وهذا أعرابي سمع قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وهذا آخر سمع قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خُلُوصًا نَجِيًّا﴾^(٢)، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على هذا الكلام.

وماذا نقول في حسن التأليف وتخير الألفاظ، والثام الكلمات، وإحكام الصنعة، وجودة السبك، وكمال البيان، وجمال الرونق، ومثانة النسيج؟ وماذا نقول في هذا النظام الفريد، والنسق الغريب، وفي هذه النظارة والجلالة وفي ذلك الإشراق والبهاء ودقة الصوغ؟

ألفاظ كأنها السحر، وكأنها الدر، تشع نوراً كما يشع الفجر، وتهدر حركة وحياة ونمواً وتجدداً كما يهدر البحر، وتهداً وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر.

وصور تموج كما تموج العواصف، وتتحرك كما تتحرك الأشباح لراكب مسرع في السير.

وبلاغة هي حديث الأيام، والتي سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالي الأعوام، وما هي إلا الضوء السافر، والهدى الباهر، والوحي الصادق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أورأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة، وقد تردد على الرسول وسمع منه فقال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) سورة يوسف، الآية ٨٠.

لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه.

والسورة القرآنية تطول وقد تقصر، وهي مع ذلك سلسلة محكمة متصلة الحلقات، مشرقة الصور والقسمات والصفحات، نسق هو السحر، وتأخٍ وصفاء وتعاقب في الترتيب كأنه الوحدة الإلهية التي دعا إليها القرآن، ممثلة في كلمات.

المعنى عند العربي كان يتم بتمام الجملة، وهذه الجملة قصيرة في نظمهم، ولكل جملة معنى، وتتوالى المعاني دون ترتيب ولا نظام، وجاء القرآن الكريم، فصارت الجملة تمثل أرفع المعاني وأدقها، وصار نظام وتأخٍ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر، وقد تطول الجملة القرآنية، وتتركب فيها الصور، وتتوالى المشاهد، وتتعاقد المعاني، وقد لا يؤدي المعنى القرآني آية أو آيات، بل عشرات الآيات، ومع ذلك فلن تجد إلا فكراً مهذباً، ونظاماً محكماً، وتصويراً مفعماً، وشياً منمقاً، وإحكاماً في الصياغة، ودقة في الصناعة، ولن تجد إلا وشياً يبهرك جماله، ويسحرك جلاله، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح.

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير، وإبراز معالم المعنى جزءاً جزءاً، وحركة بعد حركة، وإن شئت فاسمع قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾^(٢)، وقول تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾^(٣)، ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة وهي من سورة الكهف لرأينا فيها هذه الحركة العنيفة المتدافعة ممثلة في أروع بيان، وأبسط تعبير، ولرأينا فيها هذا الإنجاز الرفيع

(١) سورة طه، الآية ١٠٨.

(٢) سورة طه، الآية ١١١.

(٣) سورة الكهف، الآية ٩٩.

البليغ من أداء المعنى كاملاً غير منقوص، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة لأروع تصوير للغرض المقصود، الآية ثلاث جمل قصار:

١ - وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض .

٢ - ونفخ في الصور .

٣ - فجمعناهم جمعاً .

ونرى في الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة، والسر في ذلك هو كلمة يموج التي أدت لك الصورة كاملة، والمشهد رائعاً، والمعنى مثلاً أدق تمثيل، وأدت لك الحركة والحياة، ومشت بك إلى آفاق رحبية من جلال الأداء، وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير.

وفي الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذي بصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر أهميتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله، وأن نهاية الأمر لا بد أن توضع، وأن الناس وهم في أمر مريع لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد، وأمر عتيد، وقدر شديد.

وتجيء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعاً إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وأن قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هَوْل كثرتهم، وشدة شتاتهم، ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر «جمعاً» ليدلّك على عظمة القدرة، وروعة المشهد، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق في هذا الموقف العصيب.

ولو أن بليغاً من أبلغ الناس، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان، حاول أن يؤدي هذا المشهد العظيم ويصوره، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه، لما استطاع أن يقول، ولما قدر أن يتكلم، ولما أمكنه أن يؤدي هذا المعنى في عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته.

أي وربّي، إنه القرآن الحكيم، إنه الذكر المبين، إنه الجلال

والعظمة، والإيجاز والإعجاز، وروعة التصوير التي لا تقف عند حد، ولا تنتهي إلى بيان.

وماذا أقول، وأنا مهما قلت فلن أقول شيئاً ولن أبلغ بكلامي مبلغاً ما...

يا كتاب الله، يا معجزة القرآن، يا آية البيان، يا روعة الدهور، يا عظمة العصور، يا جلال السماء، يا حكمة الأنبياء يا وحيّاً نزل على محمد بن عبد الله..

يا كتاب الله حسي، فإن الإنسان لأعجز من أن يحيط بما احتوت عليه من أسرار البيان، ودقائق الفرقان، وروائع التصوير والتبيان.

أثر القرآن في اللغة والأدب

كان للقرآن الكريم في لغة العرب وآدابهم أبلغ الأثر وأروع النتائج. وإذا كان قد قلب حياتهم وهذب أوضاعهم وغيّر تفكيرهم ووسع آفاقهم، فلا بد أن يصقل لغتهم ويقوّم أساليبهم، ويطبع ألسنتهم بطابع جديد.

وأي شيء في حياة هؤلاء الناس لم يقله القرآن، ولم يخلع عليه جمالاً وحسن سميت وبهاء ورونق؟

من مظاهر تأثير القرآن في اللغة

١ - هجر وحشيتها، وتهجين مستغريها، والزراية بنافرها، والزيادة عليها زيادة أتمت ثروتها وأنارت صفحتها، وأضفت عليها حلاً رائعاً من الزينة والحسن.

٢ - وكان للقرآن فضل عظيم، إذ جمع العرب على هذه اللغة، وظل على اختلاف الحقب، وتناول الزمن، كلما أوشك الناس أن يتفرقوا في

الأسنة ويتباينوا في اللهجات، جَمَعَهُمُ القرآن تحت لواء واحد ووجد فطرهم اللغوية.

٣ - حفظ القرآن اللغة من العفاء والانقراض كما انقرضت من قبل لغات كثيرة.

٤ - والقرآن أول عامل في ذبوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد فأصبحت لغة الدين والسياسة والأدب في أرجاء العالم.

اثره في الأدب

١ - اكتسب الشعراء والمخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء، وصياغة الحجج، ما جعلهم يحتذون حذوه، ويتبعون نهجه، فإذا كنا نقرأ في آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) . . . أو قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ مِنْهَا آلَاعَزَّ الْأَذَلَّ﴾^(٢) أو قوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾^(٣) . . . فإننا نرى هذا الأسلوب البياني يتمثل كذلك في قول حسان بن ثابت في الرد على ابن سفيان بن الحارث حين هجا النبي ﷺ:

اتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء
وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤) رأينا كذلك حسانا يقتبس هذا الأسلوب الرائع في قوله:

عزيز عليه أن يحدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

(١) سورة سبأ، الآية ٢٤.

(٢) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٣) سورة مريم، الآية ٧٣.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

وإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١)
رأينا معن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن:

فما زلت في لين له وتعطف عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضي له مني الجناح تألماً لتدنيه مني القرابة والرحم
وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم، حتى
لقد رأينا الخطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:
ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله لالتقى مزيد
والحق أن القرآن الكريم هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول
البيان والأدب والشعر.

٢ - رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين
فنون الأدب.

٣ - أحيى القرآن فنوناً أدبية جديدة: كالقصص، وأدب الزهد، وأدب
التاريخ... وأبطل سجع الكهان، والهجاء الكاذب، والفخر المبالغ فيه،
وسوى ذلك من الأغراض المردولة.

٤ - وبسبب القرآن عكف الرواة على جمع اللغة وآدابها، ووضعت علوم
النقد والبلاغة لمعرفة إعجازه، وعني المسلمون بشتى العلوم الدينية
والعربية التي صارت أساس صرح المدنية الإسلامية الزاهرة^(٢).

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٤.

(٢) راجع الحياة الأدبية في صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٦ - ٣٩...
وراجع: الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام د. عبد الحميد المسلول ص ٢٥٤ - ٢٧٤...
وراجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، رسالة ماجستير د. صلاح الدين محمد عبد النواب.

القرآن كتاب الله الخالد المعجز

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية ٢)

إن نظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف والبديع والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد جاء القرآن، على عرضه وطوله، متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِي، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١). ولو كان من سند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج، ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاصٍ على الأسماع، ولا ملتوٍ على الأفهام، ولا مستكره في اللفظ، يمر كما يمر السهم ويضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر، طموح العباب، جموح على الطارق المنتاب، كالروح في البدن، والنور المسيطر في الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢).

ولقد كانت العرب أمة مفسطورة على البلاغة والأدب والشعر تحبها وتعشقها وتجيدها، وترفع من منزلة الشاعر الخلق والخطيب البليغ، وتنوه

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢.

بهما. وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً، فإذا نبغ في القبيلة شاعر، أو ظهر فيها فصيح، استبشرت وافتخرت وأقامت الموائد، واحتفلت بذلك الشيء العظيم، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها.

كان ذلك فطرتها، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء، ولبفراغ الكثير الذي كانوا فيه، والحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر، وتلهم الشاعرية، وتوقظ الخيال والبلاغة، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون.

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقي إليهم العرب القياد، يصغون لقولهم ويسيرون وفق رأيهم، ويمضون ما يحكمون به بينهم. يضعون الشريف النابه، ويرفعون الخامل الوضيع. فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيماً، وكان النابغة سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة، وحكمها بين الشعراء في سوق عكاظ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب، ويفقد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان، ويسافر إلى الحبشة، وكان قس بن ساعدة الأيادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين، إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء، والشعر والشعراء... وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه.

فلما بُعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالاته إلى الناس كافة، نزل عليه كتاب مطهر من السماء، هدى ونور وبشرى فيه دعوة إلى التوحيد، والطهر والخير والحق، وفيه ما شاء الله أن يبلغه البشر، من شؤون الحياة، وأخبار الأمم. وقصص دعاة التوحيد من المرسلين والأنبياء، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم من تشريع، وعبادات، وأخلاق، وفضائل، وآداب، وتوجيه كامل إلى المثل العليا.

نزل هذا الكتاب الكريم، والنور الخالد، والوحي الصادق، والدستور العظيم، فكان في أعلى درجات البلاغة، ومنزل الفصاحة، لا يدانيه بيان، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من شعر وخطب، ومحاورات، ومفاخرات، ومنافرات، ووصايا، ومثل وحكمة، وكهانة.

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم، فخرّوا ساجدين لفصاحته، مدعنين لبلاغته، مقرّين بأنه نسيج وحده، وعلم مفرد في طبقة في البيان. بهر الشعراء منهم، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم، وضاع إلهامهم، كما يضيع السراب في الصحراء، وعجبت الخطباء فيهم، فخرست مقاولهم، وصمتت ملكاتهم، وفقدوا مواهب البلاغة والقول... وذهبت كل بلاغة في تياره، وضلت الفطر الأدبية العالية، وفرت أمام أضواء نهاره.

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين، والإيمان برسالة سيد المرسلين. فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام.. فقالوا في القرآن الكريم: هو شعر، هو سحر، وهي أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وإن هذا إلا اختلاق... ورموا محمداً بالجنون.

فتحداهم الله عز وجل ورسوله محمد صلوات الله عليه، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة، بالقرآن الكريم، والكتاب العربي المبين. قال الله تعالى ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ. وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا، فَأْتُوا النَّارَ آلَتِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ: افْتَرَاهُ، قُل: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ، وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ

(١) سورة البقرة، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ﴿١﴾

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَاوُزْ بِهِ مِثْلِهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٢)، فسجل عجز البشر كافة، وبيّن أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدي ولا يقدرّون على مثل هذه البلاغة، التي هي فوق طاقتهم، لأنها بلاغة خالق البشر، ومصور الإنس والجن، الملك القادر والمدير الحكيم: الله جل جلاله، وعلت قدرته، وعظمت حكمته. . . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً، ومن الافتراء والجنّة، ومن الكذب والخيال. ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٤).

وهكذا رد الله عز وجل عليهم وبيّن كذبهم وافتراءهم، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به، وبيّن أنه منزل من السماء، وأنه معجزة محمد بن

(١) سورة هود، الآيتان ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة الطور، الآيتان ٣٣ و ٣٤ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٨ .

(٤) سورة النجم، الآيات ١ و ٤ .

(٥) سورة الحاقة، الآيات ٤٠ و ٥١ .

عبدالله الخالدة، وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله، أو بعشر سور مفتريات من مثله، أو بسورة واحدة. فعجزوا أمام التحدي، وباءوا بالخزي والهوان والذلة، وضغرت نفوسهم وأقدارهم، فلم ينطقوا بقول، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة، لا فرق بين خطيهم ويليغهم وشاعرهم، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم.

ثم امتدت الأجيال، وتوالت العصور، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب؛ فلم نَر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن، أو يدّعي قدرته على مثل هذا البيان، ولم نَر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة، أو خطيباً يلقي خطبة، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة، أو شبيه ذلك السحر. وفي تاريخ العربية فحول وفحول، كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وكجرير والفرزدق، وشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعريّ وشوقي، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة، وأين منازلهم من هذه المنزلة؟ وهل منهم إلا مَنْ أذعنَ وبهر، وخشع وسحر، وخضع وأخذ، وأقر أنه وحي من السماء... وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة، كنهج البلاغة، ورسائل الجاحظ، وكنيلة ودمنة، ومقامات البديع... إلخ...

ولكن ما هذا وغيرها من المؤلفات، وما مكانتها وما قيمتها، وما أثرها وما خطرها في البلاغة الأدبية، أمام كتاب الله المعجز وكلامه الحكيم؟... بل أمامك الحديث النبوي الشريف، هو في الدرجة العليا من الفصاحة. ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسي البيان.

واقراً إن شئت بلاغة البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر - بسكون طائر، وخفض جناح، وتفرغ لب، وجمع عقل - في ذلك: فسيق لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف

نظم كلام الآدميين^(١)، وأراد مسيلمة الكذاب - فيما يُروى - أن يقول كلاماً، فخزي وعجز، وبان عليه العي والحصر، وباء بالخسران، وسوء المنقلب، وأين يقع قوله: «والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب، ولا يابس»... وقوله: «المبيديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والشاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسنا، لقد فضلتكم أهل الوير، وما سبقكم أهل المدر...»^(٢) وغير ذلك من كلامه، من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣).

وفي الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء، وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية.

ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتجديد واضح للمثل الإنسانية العليا، ورسم الأهداف للأفراد والجماعات والشعوب، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان؟

وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه، ويعدونهم دستورهم في الحياة، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية؟

وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالاً طوالاً مثل القرآن الكريم. والكتاب الحكيم؟

وهل للقرآن الكريم - بربك - شبيه من الكتب: وَحَدَّ لُغَةً وَحَفَظَهَا وَأَذَاعَهَا فِي الْعَالَمِ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبيها، وأوحى فنونا جديدة

(١) ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلاني، طبعة ١٩٤٨.

(٢) راجع طرفاً منه في المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٣) سورة فصلت، الآية ٤٢.

من الأدب، وتأثر الناس ببلاغته وسحره، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة... كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية في لغة العرب، فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية وفي حياة العالم والإنسانية كافة؟

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم، يؤمنون إيماناً صادقاً، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن الكريم وفصاحته وإعجازه، وأنه شيء انفرد به وحده، وأنه كلام الله وكتابه، وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة، وذلك الكتاب الحكيم المبين، الذي عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله... وستمضي وتتوالى الأجيال، وهو يضيء كما يضيء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر... ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته، وصدق الله العظيم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١).

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب

تمهيد: بلاغة الرسول

(١)

انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر إلى مظهر ومن حال إلى حال، وأخذت ثوباً قشياً نفذت به من الأسماع إلى القلوب، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائق التعبير وحسن صوغ الكلام، وبراعة القصد إلى الهدف، والاحتياط إلى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والأحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه، ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه، وبيانه الساحر، وحكمه البالغة، وبلاغته النيرة، وقدرته الفائقة على الاختراع والتشويق من الألفاظ، وتصوير المعاني بأروع الصور، وابتداع الأخيلة التي لم تعرف في كلام العرب، وظلت بعده من الحسنات التي ينسج الناس على منوالها، ويدبجون كلامهم على مثالها، دون أن يقتربوا من حدها.

أجل، كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش، ومحل الإعجاب من كل من سمعه، وأنصت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة، وأصغى إلى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبجس من

خلالها أجمع الأمثال، حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطوق، الساحر البيان العذب اللسان: عليّ بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن علمك؟ فقال صلوات الله عليه: أدبني ربّي فأحسن تأديبي، وقال له صفيه وصديقه أبو بكر: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفصح منك، فمن أدبك؟

وكان النبي ﷺ يعتز بما منحه الله من صفاء القريحة، ونقاء الفطرة، وخلاصة المنطق، ورجاحة الفكر، وسماحة الأسلوب، فيقول: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في سعد بن بكر».

والحكمة البالغة، والعبرة الكريمة في ذلك، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته، واصطفاه لدعوته، وأرسله إلى الناس كافة مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمنطق الجذاب، والقول المتخير الفاتن، والكلام العذب الذي تملك به النفوس وتؤسر الألباب.

وهذا هو موسى، أرسله ربه إلى بني إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوي ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هارون: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾^(١)، وتمنى على ربه وهو صفيه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتق بيانه ويحل عقده ويفك حبسته، فقال: ﴿وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(٢).

(١) سورة القصص، الآية ٣٤.

(٢) سورة طه، الآية ٢٧.

وهذا نبي الله داود، أفاض الله عليه الحكمة ومنحه فصل الخطاب، وامتن عليه بذلك فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (١).

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة، تعنوا لهم أزمة القول، وتنصاع أئمة الكلام، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيه، ويروض شامسه، ويستذل أبيه، وإذا كان الكلام صناعتهم بها يفخرون ويتباهون، فلا بد أن الرسول الذي يرسل إليهم يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة، ويغير ما ألفوا من عادات، وما ورثوا من تقاليد، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أروع من منطقهم، وخطابه أجمل أثراً وأعظم قدراً وأعلى شأناً من خطابهم.

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد ﷺ بمعجزة القرآن الكريم ومعجزة البيان.

أما بيانه صلوات الله عليه وسلامه فكان السحر الحلال والضيء اللامع، يشرق من طبع مهذب مصقول، وخلق في البلاغة عريق أصيل، وفطرة قوية صهوبة تساندت في بنائها أقوى العوامل، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات، إذ نشأ وتقلب في أفصح القبائل، وأصحها لهجة، وأخلصها منطقاً وأعذبها بياناً، وأرهفها جناحاً، وأقومها سليقة.

كان مولده في بني هاشم، وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسماحة بيان، وأحواله من بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ونشأته في قريش، وتزوج خديجة وهي من بني أسد، وكل هذه قبائل خصها الله بعرف في فصاحة الكلام عريق، وسبب من أسباب البلاغة وثيق، وكان هذا التوفيق العجيب الغريب، وهذا التماثل في الميلاد والاسترضاع والمنشأ، إعداداً من الله لنبيه، وتقويماً من ملكته، وتهذيباً لسليقته، وتدعيماً لفطرته، حتى يفقهوا قوله ويعقلوا دعوته.

(١) سورة ص، الآية ٢٠.

وكان ﷺ فصيح المنطق، سمح البيان، سلس الأسلوب، قوي العبارة، لامع الرونق، رائع الحكمة، موفق المثل، موثق اللفظ، مشرق المعنى، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل، ويجد فيه لذة. إذا تكلم خفت الأصوات وأنصت الأذان وخشعت الجوارح وامتلات القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة. وهذه أول خطبة لرسول الله ﷺ حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله، يعدهم ويبرهم، ويحذرهم وينذرهم، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، قال: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتهم، ولو غررت الناس ما غررتكم». والله، الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله، لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبدأ أُنار أبدأ، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد».

فهذه كلمة الخبر بأسرار النفوس الذي يعرف كيف يمتلكها بحكمته، ويستولي عليها بموعظته، ويوجهها إلى الخير الذي يريده، والسعادة الأبدية التي يدعو إليها.

واستمع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف، فإنك ستحس من حلاوة وقعه وجمال لفظه ودقة مبناه، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى ما يملأ نفسك طرباً، ويفعم قلبك نشوة.

يقول الرسول ﷺ: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما؛ فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بناءه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لرقق كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع».

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تنتهي منه عجباً، تصوير القوة الطبيعية لدى السخي التي تستهين بكل عقبة، وتتغلب على كل صعوبة، وتثور ثورتها العاتية على القيود والحدود والحواجر

حتى تحطمها أعنف تحطيم، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويبدل وينفق ويتصدق حتى تسلس الطبيعة وتنقاد وتعناد البذل والعطاء وتلبس صاحبها فتخفي كل ما فيه من عيوب وتمحو كل ما يند عنه من سيئة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١).

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كزت وضافت، وأحضرته كل أسباب الشح والكثود، فلا يستطيع أن يقدم خيراً، أو يطالع المجتمع الذي يعيش فيه بحسنة.

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير؟

والرسول ﷺ يصف حالة من حالات الناس تفشو في مجتمعاتهم وتشيع بينهم في بعض الأحيان كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل: حالة الاستهتار بحدود الله والاستهانة بأداب الدين، والخروج على الأوضاع الصحيحة، والتبجح بما يسمونه حرية، فيقول:

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»..

فهل هناك أبلغ من هذا في الدعوة إلى الضرب على أيدي العابثين بالحدود، المنتهكين للحرمت الناهشين أعراض المحصنات الناقلات؟

ولو أردنا أن نستعرض ألواناً أخرى من كلامه ﷺ لما اتسعت لها هذه الصفحات، ولكننا نكتفي بما قدمناه من أمثلة حية رائعة على بلاغته وإحاطته ودقته.

(١) سورة هود، الآية ١١٤.

يقول المرحوم الأستاذ الرافعي: «لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة، فالعناية فيها بالحقائق، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها اللغوية على منازلها، وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها، ومعلوم أنه ﷺ لا يتكلف ولا يتعمّل، ولم يكتب ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح، أو تعرف له رقة من الشأن، كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان».

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول ﷺ وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه وعلو شأنه في اللغة، هي المنحة التي يهبها خالق الإنسانية لمن يختاره ويؤثره في سفارة إلى الإنسانية، وكما عصمه الله من لدن طفولته من الرجس والدنس، وحفظه من شرور الجاهلية وسوأتها، كذلك عدل لسانه، وقوم بيانه وأرهف منطق، وأفاض عليه من لدنه قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته وينافح دون رسالته: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٢).

(٢)

أثر الحديث النبوي في اللغة والأدب

يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ وسمعتة يقول: مات حتف أنفه وما سمعتها من عربي قبله، يريد مات على فراشه، قال في القاموس: وحتف الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه، وقال في النهاية: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحته.

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٣.

ويقول المرحوم الرافعي^(١): إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال أمر يؤرخ به في الألسنة مما كانوا يألّفون له. والحتف الهلاك فكان صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه فلم يرفع الموت أنفه في القوم بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه لأن حياته كانت في عزته، وعزته كانت في أنفه وأنفه هو الذي كبه على الموت، وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبير: ورم أنفه، وفي العزة: حمى أنفه وكما يقال غضبه على طرف الأنف إذا كان سريع الغضب وجعل أنفه في قفاه إذا ضل.

ومثل ذلك قوله ﷺ: الآن حمي الوطيس، للدلالة على شدة الحرب، واستعار نارها والتهاب شررها، فإن الوطيس التنور ومجتمع النيران استعير لشدة الحرب. وقوله ﷺ: بعثت في نفس الساعة أي قريباً منها أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه.

وإذا كان للعرب تصرف واتساع في اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ من لفظ أو ابتداء معنى من معنى أو اختراع فكرة من فكرة فإن ذلك كله كان في حدود الموجود المتعارف لا يجاوزونه إلى المعلوم بخلاف المأثور عنه ﷺ فهو كثير من بناء على الموجود واختراع لما لم يوجد ومن ألفاظه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله، كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها وهو باقي بين أظهرهم لم يفارقهم ولم ينتقل عن بلدهم.

وقد روي أنه ﷺ قال لأبي تميم: إياك والمخيلة فقال: يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة؟ فقال ﷺ: سبل الإزار أي الكبير، فقول أبي تميم نحن قوم عرب دلالة على أن النبي ﷺ اخترع هذا اللفظ اختراعاً ولم يسبق إليه... وقوله ﷺ: هدنة على دخن، يريد أن الصلح لم يذهب حقائق الصدور وأضغان القلوب فبقي منها كما يبقى من النار تحت الرماد لا يزال يتحفر للاشتعال.

(١) إعجاز القرآن ص ٤١١.

وقوله لنجشة العبد وهو يحدو الإبل ويطرب في صوته فتسرع الإبل وتتمايل الهودج بالنساء: رفقا بالقوارير... وقوله: يا خيل الله اركبي، لا يتطحن عزان. وقوله: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» قاله لأبي عزة الشاعر وكان يحرض عليه ويؤلب الناس ضده فأسره يوم بدر، ثم منَّ عليه وأطلقه، فعاد إلى سيرته فأسر يوم أحد وسأل النبي أن يمنَّ عليه فقال له: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

وقوله: إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: المرأة الحسنة في المنبت السوء، تشبها لهذه المرأة بالشجرة الناضرة وسط الدمن. وقوله: علق سوطك حيث يراه أهلك، الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم، وعد المؤمن كأخذ باليد، قد جدع الحلال أنف الغيرة، وقوله: «من اطلع من صبر باب فقد دمر أي دخل، قال أبو عبيدة: لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث.

وهذا كله مما كان يشرق في لغته ويلتصع في أسلوبه من ابتداع المعاني واختراع الألفاظ المناسبة لها، ومن أوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها وتأخذ زيتها وتدعو الأدباء دعوة قوية إلى احتذائها واتباع طرائقها واتخاذها مثلاً يسرون على نهجه وينشئون على هداه.

ذلك كله يعتبر إلهاماً من الله لنبيه وتأييداً بمعجزة البيان ردت معجزة القرآن، ولقد كان عجباً من العجب في أمره ﷺ أن ترد إليه وفود العرب فيخاطب كل وفد بما يعد من أسرار لغته وغرائب لهجته يخاطبهم بلغاتهم مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب، ويفهم عنهم كذلك ما يدلون به من كلام وما يفصل عنهم من خطاب، حتى عجب من ذلك علي بن أبي طالب حين سمعه يخاطب وفد بني نهـد... فقال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال ﷺ: «أدبني الله فأحسن تأديبي».

ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يملئها ويبعث بها إلى قبائل العرب

يخاطبهم فيها بلحونهم ويجاري ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يلقيه إليهم، وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يداخلهم ويقاربهم ولا تجوز في غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية.

قال الرافعي: «فما ندري أي ذلك أعجب أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من السنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم حين يتوافدون إليهم في موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه. ولا يديرونه في ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة حتى كان هذا الباب يتكرر فيه ﷺ باباً على حدة.

وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية، والطبيعة الملهمة، والموهبة البيانية المبدعة، واللسان الذرب، والقول الفحل، والمنطق الفصل، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة وإلهام من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه.

وبعد فيمكننا أن نلخص أثر حديث الرسول ﷺ في اللغة فيما يلي:

١ - أدخل الرسول ﷺ كثيراً من التراكيب البيانية الجديدة في اللغة العربية مما سبق ذكره. وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسميته «سفر الأول» محرماً، وكلفظ الزمارة، للزانية، التي وردت في حديث أبي هريرة «أن النبي نهى عن كسب الزمارة»... وككلمة الصبر بمعنى الشق في قوله ﷺ: «من أطلع من صبر باب فقد دمر»..

وللحديث الشريف أثر في توسيع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعي للإفاضة فيه.

٢ - وساعد على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوعتها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم في هذا السبيل.

٣ - وكان محوراً لعلوم دينية وعربية وضعت لدراسة الحديث النبوي الشريف، وهذه العلوم أكسبت اللغة العربية ثروة كبيرة.

أما أثر الحديث في الأدب فيمكننا إيجازه فيما يلي :

- ١ - ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتنقيف الطباع، والقضاء على عهد الحوشية والغرابية والمعاظلة والتعقيد في البيان وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرواق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.
- ٢ - قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة الشر وهذب أغراض الأدب وفنونه.
- ٣ - وقد خلد الحديث على مرّ الأيام والأجيال وأصبح مورداً عذباً من الثقافة الأدبية على توالي العصور^(١).

(٣)

خطبة نبوية في بدر الكبرى

خطب رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر فقال :

- ١ - «أما بعد، فأني احثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالخير، ويحبّ الصدق، ويعطي الخير أهله على منازلهم عنده.
- ٢ - وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه.
- ٣ - وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم وتدرك به النجاة في الآخرة.

(١) راجع : الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٤٠ - ٤٦، محاضرات في الأدب العربي للدكتور عبد الحميد المسلول ص ١٤٥ - ١٥٣.

٤ - فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: «لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم».

٥ - وابلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد.

٦ - وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألقأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين.

مضمون هذه الخطبة النبوية الشريفة

١ - الأمر بالفضائل الإنسانية التي أمر الله عز وجل ورسوله بها، وفي هذا الأمر - والوقت وقت معركة - ما فيه من دلالة قوية على أن المسلم يجب أن يلتزم بأداب دينه في كل وقته، وبخاصة في أوقات الشدائد والمعارك، لأن النصر لا ينزل من السماء إلا على المؤمنين الصادقي الإيمان بدينهم وكتابهم ورسولهم.

٢ - الوقوف في ميدان المعركة - ابتغاء وجه الله لمقاومة أعداء السلام والإنسانية والتوحيد - منزل كريم من منازل الحق التي يرضى الله ورسوله عنها.

٣ - الصبر في الحرب أهم شيء يجب أن يتحلَّى به الجندي، لأنه سلاح النصر، وهو أساس الصمود والنضال والاستبسال في قتال أعداء الله والحق.

٤ - تحذير رسول الله للمجاهدين من عمل شيء يمقتهم الله ويغضبه عليهم ويمنع عنهم نصره بسببه، والمقت أشد البغض. وفي ذلك ما فيه من تأكيد وجوب اتباع تعاليم الدين في كل وقت وفي أيام الحروب على وجه الخصوص.

٥ - الدعوة إلى البطولة والتضحية والإقدام في المعركة، وذلك هو سبب رحمة الله ومغفرته ورضوانه، ووعدته الحق، وقوله الصدق وعقابه شديد، ولتذكر أن البلاء في المعركة هو سبب رضوان الله ورحمته للمجاهدين الصادقين.

٦ - إعلان مزيد التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه. وذلك هو أساس الفوز العظيم^(١).

والمضمون العام لهذه الخطبة هو الدعوة إلى الصمود والصبر والاستبسال في المعركة، وعند نزال الأعداء.

الأسلوب

١ - أسلوب الخطبة من أروع الأساليب جمالاً وبياناً وبلاغة وإيجازاً وإعجازاً، وبلاغة رسول الله ﷺ في البذرة من الفصاحة بعد بلاغة القرآن الكريم... فالخطبة تجمع إلى الإيجاز الروعة والسحر ودقة المعاني وكثرتها.

٢ - وفيها من سمو الروح الإنسانية ما فيها. ومن نبيل النفس والالتزام بالفضائل والآداب الإسلامية وبخاصة وقت المعركة، ما يعدُّ أساساً للنصر، وسبباً من أقوى أسبابه...

٣ - وهي مملوءة بروح الإيمان العميق، وبالتوكل على الله، وبطلب النصر منه، وتفويض الأمور إليه. وذلك كله ضروري للمسلم وهو يقاتل أعداء الله والحق والسلام.

٤ - وعلى الجملة فإن هذه الخطبة مثل رفيع من أمثلة البلاغة النادرة،

(١) معاني المفردات الواردة في الخطبة: الحث على الشيء: الحض عليه. منازلهم: درجاتهم. بمنزل: بمكان وموضع. مواضع البأس: كناية عن الحروب والشدائد. المقت: شدة البغض. أبلوا: من أبلى في المعركة بلاء حسناً، أي بذل غاية الجهد وكل الطاقة فيها.

والفصاحة الباهرة، والبيان الساحر، والقول الحكيم، والمنطق الصادق،
والكلمة الفاصلة. . .

وهذه كلها هي خصائص البلاغة النبوية الشريفة. إلى ما تتحلى به
الخطابة من الوضوح والسهولة والجمال والجلال، والحلاوة والروعة.

فانظر إلى بلاغة رسول الله في قوله: «إنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم»،
أي لست ولستم شيئاً إلا بعون الله الحي القيوم، العظيم القيام بتدبير أمور
هذا الكون العظيم، و(القيوم) اسم من أسماء الله عز وجل.

وقوله ﷺ:

«إليه ألجأنا ظهورنا»: أي أسندنا ظهورنا إلى سند قوي وملجأ حصين هو
الله عز وجل وحده. . .

النشر الاسلامي

تمهيد

تبدلت أوضاع الحياة العربية بعد الإسلام تبديلاً ملموساً، وتغيّر أعظم التغيّر مظهرها، وانقلب انقلاباً شديداً جوهرها، وأصبح السمّ غير السمّ، والسلوك غير السلوك، والخلاق والشيم غير تلك التي كانت تشيع في الجاهلية، وتسيطر على مناحي الفكر.

كانت الحياة الفكرية في الجاهلية تعتمد على الشعر، به مفاخراتهم، ومنافراتهم، وعليه تقوم خصوماتهم، فكان لسانهم المعبر عن كل ما يضرهم في صدورهم من أفكار، ويختلج في أفئدتهم من أحاسيس.

فلما جاء الإسلام طوى ذلك البساط بما عليه من تنافر وتناحر، وما يضمُّ من أحقاد غادرة، وأضغان ثائرة، وخصومات منكرة، وقضى على تلك الحمية، حمية الجاهلية، ويغض إلى الناس التفاخر بالأباء والأنساب، وأمتن على اتباعه وأوليائه بأن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية، وتفاخرها بالأباء.. فقال ﷺ: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

ولما كان شعر الجاهلية يحمل بين أطوائه كل المعاني التي حرّمها

الإسلام، وأزرى بها، فقد كرهه الإسلام وبغضه، وقال فيه الرسول ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحاً فيريه^(١) خير له من أن يمتلئ شغراً».

لم تقم للشعر في ظلال الإسلام الدولة التي كانت إبان الجاهلية، لأن الإسلام دين العفة والإخاء والوفاء، وصدق الحديث. إنما انتقلت راية الكلام للنشر، الذي حمل أعباء الفكر، ونهض وحده غالباً بالدعوة الجديدة بين مزاياها، ويكشف أسرارها، ويحاج خصومها ويجادلهم بالتي هي أحسن.

دعا به النبي ﷺ قومه إلى الله، وبصرهم بمحاسن الإسلام وحذرهم وأنذرهم ووعدهم وبشرهم، وكتب به إلى أمرائهم وإقبالهم، ثم كان هذا النشر لسان الدولة التي أحدثها الإسلام، فكانت تكتب به اليهود، وتصاع الوصايا، وتدون دساتير الولاة، ومناهج الرؤساء، وسياسة الحكام.

وعلى مقدار تنوع الحياة الإسلامية، وتعدد ألوانها، وتشعب مظاهرها، عظمت رسالة النشر، واتسعت مهمته، فكان لسان الخلفاء والأمراء والولاة.

والواقع أنه حيث يكون الملك، وتكون الدولة بما يستتبعها من أمر ونهي وحث وزجر وأخذ ورد، ورسم سياسة وتبريرها، وإقامة حدود ومعالم وتبيينها يكون المكان الأول في هذه الدولة للنشر، ولا يستطيع الشعر أن ينهض بما تقوم به من أعباء، وما تؤدي من رسالات متعددة متنوعة.

ولما كان النشر يتخذ مظهر الخطابة أحياناً، ومظهر الرسائل أحياناً أخرى، فقد آثرنا هنا أن نتحدث عن كل بذاته.

ونبدأ بالكلام على الخطابة.

(١) يريه أي يفسده، ووري الفصح الجوف كوعى: أفسده.

الخطابة الإسلامية

كانت الخطابة في الجاهلية ضيقة الحدود قصيرة الأفاق محدودة المعالم والمظاهر أو كانت على الأقل هكذا فيما انحدر إلينا من آثارها وتناهى إلينا من تراثها، وكان يشاركها الشعر في التعبير عن مناحي الفكر وخوارج النفس بل كان الشعر، في أهم المواقف وأعظم الأحداث، اللسان الناطق الذي يؤجج نار الحرب أو يضع لبنات السلم أو يلفت الناس إلى فضيلة من الفضائل أو ينبههم على أمر من الأمور.

ولأن الخطابة لم تكن مما تدوّن في صحف أو تكتب في رقاع أو يسهل على الذاكرة اختزانها لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر. إنما يبعث عليها عندهم حدث طارئ أو أمر مفاجئ ربما لم يكونوا قد أعدوا له عدته أو اتخذوا له أهبة.

دواعي الخطابة الإسلامية

ثم جاء الإسلام فنهياً للخطابة في ظله من نباهة الشأن وارتفاع الذكر وعلو المكانة ما لم يتنهى لها من قبل.

كانت أداة الدعوة واللسان الناطق بمحاسنها تشرح للناس أسرارها وتبين مزاياها وتوضح خفاياها وتحبب الناس فيها وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح، وتجادل خصومها وتفند آراء المخالفين لها.

وإذا علمنا أن الكتابة لم تكن قد شاعت ولا فشت وأن الإسلام قد كره الشعر لما يحمل من المنافرات والمفاخرات وشدة الحمية، أدركنا رسالة الخطابة في الإسلام وجسامة مهمتها وعظم شأنها وقيامها بكل أمر جلّ أو صغر.

اعتمد عليها رسول الله ﷺ من لدن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين، ثم كان يذهب إلى أحياء العرب يعرض عليهم دعوته ويشرح في كل موقف

عقيدته. وكان يلقي الناس في الأسواق العامة وفي مواسم الحج ويخطبهم، ويقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه، وكانت تجيئه وفود العرب فيخطب في كل وفد يدعوهم إلى الدين أو يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمره رب العالمين بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) وكما يقول لهم ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكتافاً الذين يآلفون ويؤلفون».

وكانت الخطابة لخلفائه من بعده أداة يرسمون بها سياستهم في رعاياهم ويحددون دساتيرهم التي يلتزمون بها في حكم الناس ومعاملاتهم أو يحضون فيها على غزوة أو جهاد.

أسباب قوتها

ولعل الذي مكن للخطابة وجعلها منشورة الراية مرفوعة الذرى، يُسرّع إليها كل من واجهته مشكلة، أو اختلجت في نفسه فكرة، أو نقم من السلطان أمراً، أو داخلته من الوالي ريبة في بعض تصرفاته، لعل الذي مكن لها ما أسبغه الإسلام على هذا المجتمع من صراحة، وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع بها الإنسان أن يراجع ويناقش ويجادل ويخاصم ويمدح السلطان أو يثنيه ويؤيده أو يخذله.

وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها حتى شملت النساء، فلم تكن المرأة تسكت عما تظن أنه حق لها، بل تخطب في ذلك وتتحدث وتجادل، لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إني وافدة النساء إليك، ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد والأجر، ثم تساءلت: فما لنا من ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ أبلغني من لقيت من النساء أن طاعة للزوج واعتراضاً

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله، وقالت أخرى: يا رسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً تحدثنا فيه ولهم كذلك.

وكانت المرأة تعترض عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه حتى لقد يرجع عن رأيه ويقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لترد على خصوم أبيها وتبين مآثره وتذكر مفاخره، وكانت أم الخير بنت الحريش الباروفية تؤيد علياً كرم الله وجهه، وتخطب في ذلك الخطب التي تلهب النفوس وتثير الحماس، وتدفع الناس دفعاً إلى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم، حتى لقد أوفدت إلى معاوية بعد أن استقر الأمر واستتب السلطان فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر فقالت: لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفّثهن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت فقال معاوية: لا أشاء ذلك.

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظلال الإسلام.

ثم كان الجهاد في سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه، وكذلك جعل أمور الدولة شوري بين المسلمين.

كان ذلك كله داعياً إلى نهضة الخطابة وبعثاً على رقيها وارتفاع شأنها.

هذا إلى ما في القوم من ملكة أصيلة في البيان، ومطاوعة سهلة في أزمة الكلام، حتى لم يكن يصعب عليهم قول يند عن أذهانهم خطاب.

موضوعات الخطابة الإسلامية

والدارس لأطوار الخطابة في هذه الفترة يلمس في وضوح كيف كانت تؤدي رسالتها في قوة ودأب لا يعوقها ضعف ولا يلوي بها فتور أو إعياء حتى نهضت بهذه الموضوعات.

١ - دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر

خيره وشره، بدلاً من المفاخرات والمنافرات التي كانت تهدف إليها الخطب في الجاهلية.

٢ - الحث على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله وإثارة الإيمان والعقيدة في النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية، بدلاً من الخطب التي كانت تدعو في الجاهلية إلى السلب والنهب والأخذ بالشار والتحريض على الغارة.

٣ - شرح آداب الدين وفوائده وتبيان أسرار ومزاياه، ولفت إلى ما يصلحهم في دنياهم ويسعدهم في آخرهم.

٤ - وليس أدلّ على شرف الخطابة ورعاية الإسلام لها حق الرعاية من أنه جعلها جزءاً من العبادة في كل اسبوع وفي كل الاعياد وفي ما ينوب المسلمين من أحداث وملّات.

٥ - وأخيراً لقد استعملت الخطابة في كل ما جاشت به صدورهم، من دفاع عن رأي، أو تحمّس لمبدأ، أو شرح لنهج سياسي، ونحو ذلك مما استلزمته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد.

مميزات الخطابة الإسلامية

وتقسم الخطابة الإسلامية:

١ - بأنها كانت تقوم على الإقناع والتأثير في النفوس، بالأدلة الساطعة، والبراهين الناصعة، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل.

٢ - وبأنها كانت تلتزم في مبدئها سمياً واحداً، هو حمد الله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه، وكانوا يحرصون أشد الحرص على بدء الخطبة بالحمد، حتى عابوا على زياد خطبته التي خلت منه، وسموها البتراء، وكانوا يختمون الخطبة بمثل

«أقول قولِي هذا واستغفر الله لي ولكم»، وكان أبو بكر الصديق يختم خطبه بقوله: «اللهم اجعل خير زمانِي آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك». وكان عمر يلتزم في الآخر قوله: «اللهم لا تدعني في غرة.. ولا تأخذني غرة، ولا تجعلني من الغافلين».

٣ - أما أسلوب الخطابة في هذا العصر فهو الأسلوب الفطري الذي يساوق الطبع ويوائم السليقة ولا يعتسف في لفظ أو فكر أو خيال، فهو لين هادئ أو عاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال، مع وضوح اللفظ وسهولة الأسلوب، والانسجام التام في بناء الكلمات، وترك السجع المرذول، وهجر الوحش، والبعد عن التكلف، والإيجاز في موضع الإيجاز والاطناب فيما يستدعي الاطناب والاكتثار.

هيئة الخطيب

أما ما بقي للخطابة من سماتها القديمة فهو القيام على نشز من الأرض، ولعل ذلك للإشراف على السامعين، أو لعل ذلك أيضاً أصل سنة المنبر في المساجد، وكان الخطيب إذا قام للخطابة اعتمد على شيء في يد، كسيف أو قوس أو عصا، وقد يجمع بين السيف أو القوس في يسه والعصا في يمينه، وكانوا يحرسون على اعتمار العمامة، والاشتغال بالرداء، وإصابة الإشارة، وحسن السم، وجهارة الصوت، وتمام الوقار، وكل ما يدعو إلى التأثير في نفوس السامعين.

أشهر الخطباء

وقد امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء والبلغاء كثرة رائعة، وفي صدر الخطباء الخطيب الأول الزعيم الروحي الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الخطباء: أبو بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعائشة وخالد وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاوية،

وسواهم من اعلام الخطباء والبلغاء، رضوان الله عليهم اجمعين.

ومن الخطباء المشهورين: عطار بن حاجب بن زرارة وكان الخطيب عند النبي ﷺ كما يقول الجاحظ (١).

نماذج الخطابة الاسلامية

١ - لما كانت أول جمعة للنبي الكريم بالمدينة خطب المسلمين فقال:

«الحمد لله، أحمده، وأستغيثه، وأستغفره، وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفر، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، مَنْ يُطِيعِ الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم: أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، ولا أفضل من ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكراً.

وإن تقوى الله يوفي مقتبه، ويوفي عقوبته، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويُرضي الرب، ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فاكثروا من ذكر الله، واعلموا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

(١) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢١٤.

وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله».

* * *

٢ - ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع وهي مشهورة، وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الإنسان..

* * *

٣ - ولأمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه المتوفى سنة ١٣ هـ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس إني وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي فيكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه، أقول قولِي هذا واستغفر الله لي ولكم».

* * *

٤ - من خطبة أبي بكر رضي الله عنه يوم السقيفة^(١):

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه، وشهيداً على أمته، ليعبدوا الله ويوحّدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور»^(٢).

(١) هي سقيفة بني ساعدة، وقد اجتمع الأنصار فيها يوم قبض النبي ﷺ وقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سعد بن عباد.

(٢) النجر: نحت الخشب.

ثم قرأ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١)، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢).
فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم..

* * *

٥ - وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ولي الخلافة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: إني داعٍ فآمنوا، اللهم إني غليظ فلّيني لأهل طاعتك بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم، ولا اعتداء عليهم.

«اللهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة، واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الآخرة.

«اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين.

«اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمنيذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين.

«اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها، والقدرة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك.

«اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياة منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات.

(١) سورة يونس، الآية ١٨.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣. زلفى: القربى.

«اللهم ارزقني التفكير والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له
والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على
كل شيء قدير».

* * *

٦ - وكانت آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم
يعطكوها لتركوا إليها، إن الدنيا تنفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم
الفانية، ولا تشغلکم عن الباقية، فأثروا^(١) ما يبقى على ما يفنى، فإن
الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله.

«اتقوا الله جل وعز، فإن تقواه جنة^(٢) من بأسه، ووسيلة عنده
واحذروا من الله الغير^(٣)، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً، واذكروا
نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخواناً».

* * *

٧ - وخطب الإمام علي كرم الله وجهه بعد التحكيم فقال:

«الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجلل،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره، وأن
محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

«أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث
الحسرة وتعقب الندامة، وقد كنت امرتك في هذه الحكومة أمري،

(١) أثروا: فضلوا وقدموا.

(٢) جنة: وقاية.

(٣) غير الدهر: أحداثه المغيرة.

ونحلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر^(١)، فأبَيْتُمْ عَلَى إِبَاءِ
المُخَالَفِينَ الْجَفَاءَ، وَالنَّابِذِينَ الْعَصَا حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنَصْحِهِ، وَضُنُّ
الزُّنْدِ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ^(٢) :
أَمَرْتَكُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

أدب الرسائل في صدر الإسلام

تمهيد

١ - انتقلت الكتابة من الأنبار والحيرة على يد بشر بن عبد الملك أخى
أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل، فإن بشراً خرج إلى مكة
وتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، فكثرت
من يكتب بها من قريش.

قال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يفتخر على قريش بذلك :

فلا تجحدوا نعماء بشر عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهرأ
أناكم بخط الجزم حتى حفظتمو من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتكم الأقلام عودا وبداة وضاهيتمو كتاب كسرى وقيصرا
وعُرف خط أهل الحجاز بالحجازي، ولما نشأت الكوفة أدخل عليه
كتابها شيئا من الزخرف والتحسين في الخط الكوفي.

٢ - والكتابة على أي حال أكد أسباب الحضارة، وأوثق وسائل العمران
وكلما ازدادت شؤون الحضارة واتسعت مذاهب الملك، وتعددت مناحي
التفكير ومناهج الثقافة، ازدادت الحاجة إليها وازداد الكتاب إقبالا عليها

(١) قصير: هو مولى جذيمة الأبرش، وكان قد أشار على سيده ألا يأمن الزبراء ملكة الجزيرة، وقد
دعته إليها ليتزوجها، فخالفه وقصد إليها فقتلته، فقال قصير: «لا يطاع لقصير أمر» فذهبت
مثلا.

(٢) هو دريد بن الصمة.

وافتناناً في مناحيها وتجويداً في لغتها ومعانيها وتنويعاً في موضوعاتها وأغراضها.

حالة الكتابة في عصر النبوة

ولما بُعث الرسول ﷺ كان بمكة نفر ممن يحسنون الكتابة ويبلغون نحو السبعة عشر، ثم لما هاجر إلى المدينة وقعت غزوة بدر وأسروا المسلمون نحو سبعين رجلاً من قريش وغيرهم، جعل الرسول ﷺ فداء كل من يعجز عن دفع المال تعليم الكتابة لعشرة من فتيان المدينة، فلا يطلق سراحه إلا بعد تعليمهم فكثرت الكتابة في المدينة، وأخذت تنتشر في كل ناحية دخلها الإسلام في حياة الرسول وبعده.

وبلغ عدد كتّابه عليه السلام ثلاثة وأربعين كاتباً منهم زيد بن ثابت ومعاوية، واختلف في كونه ﷺ يقرأ ويكتب، فمن قال ذلك استدل بقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾^(١)، وبحديث البخاري أنه عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية أخذ الكتاب ليكتب فكتب، ومن قال إنه أمي استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾^(٢). وبحديث البخاري: «نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب»، وليس ما يمنع من أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أمياً قبل بعثه لتتم له المعجزة، ثم بعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، تعلم الكتاب وعرفها.

وكان عليّ كرم الله وجهه، وعائشة وصفية من أمهات المؤمنين، يحسنون الكتابة.

ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا وقد أناف الكتاب على خمسمائة، بين رجل وامرأة وفتى.

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم، ورسائل النبي ﷺ إلى الأقيال

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(١) سورة البينة، الآية ٢.

والأمراء والملوك، وكتبت عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين.

وكان كتابه ﷺ نوعين: كتاب وحي، وكتاب أعمال... ومن كتاب الأعمال: الزبير بن العوام، وجهل بن الصلت، وكانا يكتبان الصدقات، والمغيرة بن شعبة والحسين بن نمير وكانا يكتبان التداين والمعاملات، وحذيفة بن اليمان، وكان يكتب خرص النخل.

الكتابة بعد عهد النبوة

ولما توفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه واتسعت الفتوحات الإسلامية كثرت الحاجة إلى الكتابة، وقام الكتاب بأعمال الدعوة والدولة، فكتبوا القرآن، واستخدمهم الخلفاء في كتابة رسائلهم إلى العمال والولاة والقواد، وفي وصاياهم إلى قضاتهم، ورسائلهم إلى أهل الأمصار، وفي كتابة وثائق الصلح ونصائح الخليفة وتوجيهاته في الحرب والسلام.

وكان الخليفة أو الوالي يكتب بيده أو يملئ على بعض الكتاب، ولم تكن قد صارت بعد صناعة فنية كما حدث في عهد بني أمية وبني العباس.

بواعث الكتابة في هذا العصر

وكانت الحاجة إلى الكتابة كثيرة:

١ - فقد كان المسلمون في حاجة إليها لتدوين القرآن ولكتابة رسائل الدعوة إلى الإسلام.

٢ - كما كانوا في حاجة إليها في شؤون الملك والسياسة، والحرب والسلام وفي كتابة العهود والمصالحات والمنشورات والوصايا والنصائح.

٣ - الحاجة إليها في تدوين الدواوين وتنظيمها.

٤ - وساعد على ذلك معرفة الخط وانتشار الكتابة في مكة والمدينة وسواهما من الأمصار. ويروى أن زيد بن أرقم بن يغوث، والعلاء بن عقبة كانا

يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء.

تدوين الدواوين

لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة ووفرت الغنائم احتاجت الدولة إلى إنشاء الدواوين لضبط مواردها ومصارفها وضبط أعطيات المسلمين.

ويقول الفخري:

«كان المسلمون هم الجنود وكان قتالهم لأجل الدين لا لأجل الدنيا، وكان لا يزال فيهم دائماً من يبذل شطر ماله في وجوه البر والقربى، وكانوا لا يريدون على نصرهم إسلامهم ونصرهم لنبيهم جزاء إلا من عند الله تعالى. ولم يفرض النبي ﷺ، ولا أبو بكر رضي الله عنه، عطاء مقرراً، ولكن كانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم بررته الشريعة لهم. وإذا ورد إلى المدينة مال من بعض البلاد، أحضر إلى مسجد رسول الله وفرق فيهم حسب ما يراه. وجرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر فلما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة في خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالى وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم. ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازية الفرس، فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شيء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يلاحظ عليها خلل، فتنبه عمر وقال: صفه لي، فوصفه المرزبان فعظمه عمر لذلك، ودون الدواوين».

وقد عهد الخلفاء بالكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل مصر؛ ففي العراق

وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية، حتى حذفها من العرب طائفة. فحولت بعد ذلك الكتابة في الدواوين إلى اللغة العربية وذلك في عصر بني أمية.

أسلوب الكتابة في صدر الإسلام

ويمتاز أسلوب الكتابة في هذا العصر بما يأتي :

١ - سهولتها ووضوحها وقصدها إلى الغرض ويُعَدُّها عن التكلف وخلوها من عبارات التفخيم.

٢ - ميلها إلى الإيجاز... حتى لقد كتب خالد بن الوليد إلى عياض رسالة وهو محاصر بدومه الجندل يقول فيها: «من خالد إلى عياض: إياك أريد»..

٣ - وكانت الرسائل تبدأ «باسمك اللهم»، ثم يقول: من فلان إلى فلان. ثم يلي ذلك غالباً قولهم: السلام عليكم، أو السلام على من أتبع الهدى، ثم يثنون بقولهم: «إني أحمد الله إليك»، ثم يأتي الكاتب غالباً «أما بعد»، ويذكر غرضه الذي يكتب لأجله، ويختمها بقوله: «والسلام عليكم ورحمة الله»..

نماذج الكتابة

١ - كتب رسول الله ﷺ، إلى هرقل:

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم... سلام على من اتبع الهدى... أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين^(١). ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

(١) هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم.

إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»..

* * *

٢ - ولما ادعى مسيلمة النبوة وكتب إلى رسول الله ﷺ: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك... أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض... ولقريش نصفها ولكن قریشا قوم يعتدون».

كتب إليه ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى... أما بعد: فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

* * *

٣ - وهذه وصاة أبي بكر لعمر رضي الله عنهما:

«إني مستخلفك من بعدي، وموصيك بتقوى الله، إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم قلت: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العقاب والعذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة. فإذا حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائل أبغض إليك من الموت، ولست بمعجز الله».

٤ - وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري وقد ولاه القضاء: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس...»

«سلام عليك، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، أس^(١) بين الناس في وجهك، وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك^(٢) ولا يأس ضعيف من عدلك... البينة على من ادعى... واليمين على من أنكر.

«والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً، لا يمنحك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك... واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً، أو بينة أمدأ ينتهي إليه، فإن أحضر بينته وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو نسب. فإن الله تولى منكم السرائر، ودار بالبينات والأيمان إياك والغلق^(٣) والضجر والتأذي بالخصوم والتكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن الذخر، فمن صفت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام».

* * *

(١) آسى: أي سوى بين الناس.

(٢) الحيف: الظلم.

(٣) سوء المخلوق، وذلك من ضيق الفطن وانعدام الرؤية والفهم الصحيح.

٥ - وكتب عثمان رضي الله عنه إلى عماله حين ولي الخلافة :

«أما بعد . فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم^(١) إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم، وتأخذوهم بما عليه، ثم تعتنوا بالذمة^(٢) فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء» .

* * *

٦ - وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب حين اشتد بينهما الخلاف :

«بسم الله الرحمن الرحيم، من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب :

أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم وأنت بريء من عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت^(٣) شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك ولم أبايحك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يطعك أهل الشام، فأما شرفك في الإسلام، وقربتك من رسول الله ﷺ، وموضعك من قریش فلست أدفعه» .

(١) تقدم إليه : أمره .

(٢) أي أهل الذمة .

(٣) كانت أي الخلافة .

فكتب إليه الإمام علي :

«بسم الله الرحمن الرحيم . . . من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن
صخر:

أما بعد، فقد أتاني كتاب امرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد
يرشده، دعاه الهوى فأجابه، وقاده فاتبعه، زعمت أنه إنما أفسد على بيعتي
خفري^(١) بعثمان، ولعمري، ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين، أوردت كما
أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما أن الله ليجمعهم على ضلال
ولا ليضربهم بالعمى، وما أمرت فلزمتني خطيئة الأمر، ولا قتلت فأخاف على
نفسي قصاص القاتل، وأما قولك إن أهل الشام هم حكام أهل الحجاز،
فهات رجلاً من قريش الشام في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سمعت
كذبك المهاجرون والأنصار، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز».

* * *

خصائص النثر الإسلامي

تمهيد

كان للعرب في جاهليتهم نثر فني، بقي فيما روي لنا من أمثالهم
وحكمهم ووصاياهم وخطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم ومحاوراتهم ونثر
كهانهم، ثم نزل القرآن الكريم وجاءت الدعوة النبوية الكريمة، واختلف
العرب حيالها بين مكذب ومصدق، فكثرت دواعي الحجاج والكلام
والخطابة، وأخذ النثر ينمو ويزدهر ويسمو ويقوى.

وتتلذذ على القرآن والحديث أعلام من البلغاء والخطباء والفصحاء،
فنهجوا نهجاً في تأييد الدعوة ونشر الرسالة والإرشاد إلى الحق والخير

(١) خفر به كضرب، خفراً وخفوراً: نقض عهده وغدره.

والإسلام، وتحسيس الجنود والتبشير بالنصر، فكان لذلك كله أثر في نهضة
الشر الفني بعد عصر النبوة.

ولقد كان في كلام الله وحديث رسوله ألوان رائعة كثيرة من المعاني
الشريفة والأساليب الرفيعة والألفاظ الساحرة، فاقتدى العرب بهما، ونهلوا من
موردهما، وأخذوا يصوغون أدبهم على مثالهما. فانتسعت أغراض الشر
واستحكمت أساليبه، وعذبت ألفاظه، وعمقت معانيه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
جعلاً للشر دولة وضعاه في منزلة أسمى من منزلة الشعر، فأصبح هو أهم
ألوان الأدب في ذلك العصر الكريم.

موضوعات الشر الفني

شملت موضوعات الشر الفني في هذا العصر ما يأتي :

١ - الدعوة إلى العقيدة الإسلامية وبيان مبادئها وغايتها وأهدافها المثلى
الكريمة .

٢ - بيان السياسة الشرعية والاجتماعية في عهود الخلفاء إلى ولايتهم وقضاتهم
وقوادهم، كعهد علي رضي الله عنه إلى الأشتر النخعي، وعهد عمر إلى
أبي موسى الأشعري .

٣ - الخطابة في الأمور الجامعة والحوادث المفاجئة وفي المناسبات الكثيرة .

٤ - وكتب به الرسائل الدينية والسياسية التي تصدر عن الخليفة أو عن ولاته .

٥ - وأصبح أداة الدعوة والدولة، ولسان المدنية الإسلامية كافة .

وهذه أغراض لم يكن للعرب من قبل إلف بها، إنما هي أغراض
جديدة وجه الدين الجديد العرب إليها .

معاني النثر الإسلامي

ومعاني النثر الإسلامي في هذا العصر كانت:

- ١ - تنبع من معين النبوة وأدب القرآن الكريم، ومن الدعوة إلى التوحيد والخلق والفضيلة والحق والخير والإخاء الإنساني وتقرير الإيمان بالله وأنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر.
- ٢ - وكانت تصدر عن عقل خصب وذهن متوقد وتفكير منظم، وملكات حصيفة تثقفت بثقافة الإسلام وكتابه الحكيم.
- ٣ - وصارت المعاني منظمة والأفكار مرتبة بعد الخلط الذي كانت عليه في الجاهلية.
- ٤ - وتمتاز بظهور حرارة الإيمان وقوة العقيدة فيها وبغلبة الروح الديني عليها.
- ٥ - وهي فوق ذلك كله صور للحياة الإسلامية في هذا العصر الكريم بما اشتمل عليه من فتوحات وانتصارات وأحداث سياسية وثورات فكرية واجتماعية.

أسلوب النثر الإسلامي

- ١ - ويمتاز أسلوب النثر الإسلامي بحسن سبكه، وجمال وصفه، وقوة نظمه، وإحكام فصوله، والتتام أجزائه، وذلك من تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الجليل.
- ٢ - كما يمتاز ببعده عن الغرابة والاستكراه والسجع المتكلف والخطأ في مقامات الكلام ومقتضيات الأحوال.
- ٣ - وبكثرة ما فيه من اقتباس من القرآن الكريم وكلام الرسول صلوات الله عليه.
- ٤ - وبقوته ووضوحه وجلالته وسلاسته، مما تجده واضحاً في الآثار الفنية الأدبية التي حفل بها أدب هذا العصر.

الفاظه

وقد بعدت ألفاظ النثر الإسلامي عن الغرابة والوحشية والابتذال، واختيرت اختياراً جيداً، ووضعت في مواضعها الملائمة، ووشيت بالبلاغة والعدوية والسحر، وبعدت عن الخطأ، وسلمت من العيب واللحن والقصور. وهذا كله من أثر بلاغة القرآن الكريم والحديث في السنة المسلمين في هذا العهد.

الشعر الاسلامي

الشعر في صدر الاسلام

وما طرأ عليه في أغراضه وألفاظه وأساليبه ومعانيه

(١)

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تسامىها منزلة، ومكانة لا تدانىها مكانة، فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم، واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثير وعز شامخ، ما من حرب تقوم بينهم إلا كان الذي هاج نارها وأوقد سعيها وشب لظاها هو الشعر.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات، ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن، والشعر الدافع، الذي يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة، ويحتال به على ما يبغي من غرض. ولا تعمّر مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم ﷺ، كانت قد تحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة

والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع . فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويهتك الحرمات، ويخرق الحجب والأستار، ويشير العصبية، وينوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويبعثهم على التقاطع والتدابير والتنافر. فكان بهذا السم وبهذا الروح من عوامل الهدم وأسباب الدمار التي منيت بها الحياة العربية .

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة في القول، والفعل والأدب الذي يليق بالمسلم، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيئ الظن وخداعه وغروره، ودعا أوليائه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤذي نفس مسلم .

أما الإسلام فيهم روح العصبية، وأخمد في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس، أو يذكر بالخصومات، أو يحرك كامن الأحقاد ومستوى الضغائن .

حرم عليهم شرب الخمر، لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج، وغض البصر، وكف الأذى، وصيانة الحرمات . ومن هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه، وجدوا أدباً غير الأدب، وروحاً غير الروح، وأسلوباً في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها، ونحوا من بلاغة الكلام والسمع العفيف تندق أعناقهم وتنقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده .

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عفا لفظه وشرف معناه، من أجل ذلك تحول عن معانيهم التي أجادوها، وأبدعوا فيها إلى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها، بل إن من شعرائهم من

امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدله به خيراً منه. فإن ليبدأ لم يؤثر عنه في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسبت من الإسلام سربالاً

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وافاه أجله، وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام، فقال: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومشربه في الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتخلفت فيها أخيلة الشعراء، هذا التحول قد عاد على الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية، وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعنُّ له، ويقتنص كل فكرة تنهياً أمامه في أي موضوع وفي أي ناحية، وبين شاعر يستولي عليه التحرك من كل ما يخالف دينه ولا يلتزم مع عقيدته.

فهذا الحطيئة لم يرقق الإسلام له طبعاً، ولم يهذب له نفساً، ولم يغير له من سمته، ولم يعدل له من سلوكه، فبقي شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة زائحاً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هددته بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين.

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية، ولم تر له بعد ذلك شعراً قوياً إلا قوله في منافحة أعداء الإسلام، ومكافحة خصوم الرسول ﷺ وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف.

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله ولا تناسب وقاره وكماله، ولم يغض من الشعراء إلا لما يبدو

منهم من سمات وخلائق لا يرضاهما الدين ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

وأما ما عدا ذلك فقد كان النبي ﷺ ينصت للشعر، ويستمع إلى الشعراء ويقول: «إن في الشعر لحكمة». وكان يأمر حسانا أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه.

ولقد وفد على رسول الله ﷺ وفد بني تميم - بعد فتح مكة - ودخلوا المسجد وقالوا: «يا محمد، جئناك تفاخراً فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فأمر رسول الله ﷺ قيس بن ثابت، فرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع
ثم ترى الناس تأتيننا سراتهم من كل أرض هويًا ثم نصطنع
فلما فرغ الزبرقان بن بدر، أمر رسول الله ﷺ حسانا بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته:

إن الذوائب من فهر واخسوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد:

والله إن هذا الرجل (يعني محمداً) المؤتى له^(٢)، لخطيبه أخطب من

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٦.

(٢) أي مسهل له في أمره.

خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا... ثم أسلموا.

فنحن نرى أن الشعر حين أخلص في وجهته، وسلم مما كان يذنبه من هتك الأعراض، وكشف الأستار، كان من أسلحة الدعوة الجديدة والألسنة المجاهدة المكافحة في سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر في هذه الفترة التي صلحت فيها الأخلاق، وتطهرت القلوب، واستنارت الأفئدة، وأظلم الناس عهد وادع يجمله حسن الأدب، وجمال الخلق، وعفة اللسان، وسماحة المقال.

وكانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة لا تعرف الفحش، ولا تحب الجهر بالسوء، ولا تألف الخوض فيما حرم الله، فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام، وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة، ودعوته الحققة إلى معاملة الناس أكرم معاملة.

أما من بقي على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد، فقد نعى عليه الرسول عليه السلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب، لأن لسانه ظل سادراً في غيه ممعناً في كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجا من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين. ولقد أرسل النبي ﷺ محمد بن سلمة ورهطاً من الأنصار، فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شجب بنساء المسلمين. وهذا ضابيء بن الحارث البرجمي هجا بعض بني جدول بن نهشل فأفحش في هجائهم، حتى رمى أمهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحسبه وقال: لو أن رسول الله ﷺ حي لأحسبته نزل فيك قرآن، وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك. ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان رهط بن مقبل بقوله:

وما سمي العجلان إلا بقولهم: خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الخطيئة حين أفحش في هجو الزبرقان بن بدر وعده

بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل
ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة، ووجه رسالة
الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبّل الغايات.

(٢)

اغراض الشعر في صدر الاسلام

هجر الشعراء الأغراض التي تتنافى والدين وتعاليم الإسلام: كالقول
الفاحش والفخر الكاذب والهجاء المقذع، ومن استمر منهم على الهجاء
كالخطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين، وموقف عمر من الخطيئة
معروف... كذلك بطل الكلام في الخمر ووصفها والميسر وفتيانها والجزور
التي ينحرونها عليه وفي تملق الناس بالمدح، وفي صيد الوحش وطرده...
مما كان بعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثاً ولهواً.

وكان كثير من هذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية كالخمر
والميسر وحياة البطالة والصراع والأخذ بالثأر والرغبة في الانتقام والدبيب
والاستهتار والفجور في الحب. ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم
وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة، وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن
الشعر ضعف في صدر الإسلام.

١ - الدعوة إلى الإسلام ومبادئه ومفاضلة خصومه - وكان من أشهر الداعين
على الدعوة ورسولها الكريم: حسان وكعب بن مالك، وعبدالله بن
رواحة، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول
بشعرهم: ابن الزبير، وضرار بن الخطاب، وأبو سفيان بن الحارث،
وهبيرة بن أبي وهب، وأبو عزة الجمحي.

٢ - هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة، وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد
عصر النبوة.

٣ - رثاء من استشهدوا في غزوات الرسول وفي الفتوحات الإسلامية الكثيرة، ومن قتل ظلماً من خلفائه وكبار أصحابه .

٤ - الفخر والتباهي بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التي لم يكونوا عرفوها، وأنواع الحيوان الذي لم يشاهدوه، ومنه الفيلة التي حارب الفرس عليها العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر، وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح، ويكثر في هذا النوع الأراجيز.

٥ - الحكمة، وقد كثرت في الشعر في هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والدين وللتجارب الكثيرة التي أفادوها في الحياة.

ويقول حسان أو حفيده سعيد:

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً من الناس إلا ما جنى سعيد
ويقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
ويقول كعب بن زهير:

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

٦ - المدح، وأشهر شعرائه حسان والنابعة الجعدي وكعب بن زهير والحطيئة. وفي هذا الفن يبدو أثر الإسلام في معانيه وألفاظه.

٧ - كما نظموا في الوعظ والتزهد في الدنيا والدعوة إلى تقوى الله، متأثرين في ذلك بالإسلام.

معاني الشعر في صدر الإسلام

وقد تأثرت معاني الشعر في هذا العصر تأثراً واضحاً بالإسلام والقرآن الكريم فغلب على معانيه:

- ١ - العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعاني والأفكار.
- ٢ - ظهور المعاني الإسلامية والعاطفة الدينية في الشعر وغلبتها عليه وتوليدها من العقائد الإسلامية.
- ٣ - الوضوح والبساطة في المعاني والأفكار والأخيلة.

أسلوب الشعر والفاظه

تأثر الشعراء في عصر النبوة وبعده بالقرآن الكريم وحديث رسول الله تأثراً ظاهراً في الأسلوب والأداء مما أحدث تغييراً واضحاً في أسلوب الشعر في هذا العصر.

١ - فقد هجروا الحوشي والغريب والمبتذل والساقط والملحون، وتردد في شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام.

٢ - وأمعنوا في جمال السبك وعذوبته وإحكامه وتلاؤمه.

٣ - وأكثروا في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق.

٤ - جزالة الأسلوب وقوته، وكثرة روائعه وصوره الأدبية والبيانية.

وبعد فالأقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين إلى طائفتين متميزتين: شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها، وشعراء المدر وهم أهل القرى كالمدينة ومكة والطائف، وقرى عبد القيس في البحرين، والحيرة بسواد العراق.

ويرون أن شعر أهل نجد واليمامة والبوادي أفحل من شعر أهل القرى، وأجزل لفظاً، وأضخم أداءً، وأوسع مذهباً في تنويع أساليب الكلام... وإن كان شعرهم لا يخلو من حوشية في العبارة، ومنها كان فحول الشعراء.

ويرون أن شعراء المدر أليين شعراً، وأرق لفظاً، وألطف كناية، وأدث أسلوباً، وأن أشعرهم جميعاً أهل المدينة، ومنهم كان شعراء النبي الذين

نافحوا عنه الشعراء الناشئين في قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر، وإن شعر الأنصار في الأوس والخزرج في هذا العصر لأن في اللفظ وهان في المعنى عما كان عليه في الجاهلية. وعللوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيراً من بواعث الشر التي تثير النفوس وتشعل الأحقاد. كالعصية الجاهلية، وحب الانتقام، والأخذ بالثأر، والنشوة بالخمير والهجاء الكاذب، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضاء والسرور.

وأمر آخر ذكره، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يبههم ويأخذ بمجامع قلوبهم، صغر قيمة شعرهم في أعينهم، فاستصغروا معانيهم وأسلوبهم بالمقارنة إلى معانيه وأسلوبه، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه، ومثلوا لذلك بقسوة شعر حسان في الجاهلية وليته في الإسلام، وشموخ شعر أمية بن الصلت في الجاهلية واستخذاثه في الإسلام لمكان حسده لرسول الله.

قال الثعالبي^(١): كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً، ويغير في نواصي الفحول، ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء، ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكاً تراجع شعره وكاد يرق في قوله، ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك.

وأكبر من ذلك أن ليبدأ العامري وهو من أفحل شعراء الجاهلية، عندما انقطع إلى حفظ القرآن ومدارسته انقطع عن قول الشعر في الإسلام. ويقولون إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادي بقي شعره إلا قليلاً على غرار شعر الجاهلية من أمثال الحطيثة وكعب بن زهير،

(١) ٨٠ خاص الخاص للثعالبي، ط ١٩٠٨.

وكل هذا كلام مقبول في جملته، ولكن كثيراً من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والمدينة والطائف مدسوس عليهم.

(٣)

وبعد، فقد كان المسلمون الخلفاء يرعون الشعر والشعراء، وكان أبرز عمل قاموا به هو الدعوة إلى المحافظة على الشعر الجاهلي وروايته وكتابته خوفاً من أن يندثر بكثرة مَنْ قُتل من العرب في الفتوحات، ولما شاهدوه من قلة الرغبة في الشعر عند الناس بتأثير الشعور الديني الجديد، ومحافظة على لغة القرآن ولديهم بلاغته وإعجازه... ولهذا قال عمر بن الخطاب: عليكم بديوانكم لا تضلوا، فقالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم... وكان يعتزون بالشعر ويقدرّون رسالته وينصّثون لحكمته وينوّهون بأثره. قال عمر: أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجاته، يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم.

وسئل مالك بن أنس: من أين شاطر عمر بن الخطاب عماله فقال:
أموال كثيرة ظهرت عليهم. وأن شاعرا كتب إليه يقول:

تحج وتغزو كل عام إذا غزوا	فأتى لهم وفر ولسنا بذي وفر
إذا التاجر الهندي جاء بقارة	من المسك راحت في مفارقهم تجري
فدونك مال الله حيث وجدته	سيرضون إن شاطرهم منك بالشرط

قال: فشاطرهم أموالهم...

وقال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب، أنشدني قول زهير فأنشدته
قوله في هرم بن سنان حيث يقول:

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

فقال له عمر: ما كان أحب إليّ لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله.

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له: من أنت؟

قال: أنا ابن هرم بن سنان...

قال: صاحب زهير...

ثم قال: أما إنه كان يقول فيكم فيحسن...

قال: كذلك كنا نعطيه فنجزل..

قال: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم...

وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقاداً بفطرتهم وذوقهم: فأبو بكر «يقدم النابغة»، ويقول: هو أحسنهم وأعذبهم بحراً وأبعدهم قعراً^(١)، وكان عمر يتذوق الشعر وينقده^(٢)، وقدم زهيراً ولم يحكم بذلك فحسب بل شرح سبب حكومته بأنه كان «لا يعاظم في الكلام»، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه^(٣). وكان يرى أنه أشعر الناس^(٤)، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر^(٥).

وقال^(٦) عمر بن الخطاب للوفد الذي قدم عليه من غطفان:

- من الذي يقول؟:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مطلب

قالوا: نابغة بني ذبيان.. قال: هو أشعر شعرائكم.

(١) ٧٨، ج ١، العمدة.

(٢) راجع: ٩٩ إعجاز القرآن، ١٩٦ و ١٧٠ ج ١ و ٢٢٤ و ٢٢٥، ج ٢ البيان والتبيين، ٣٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٦ ج ١ العمدة.

(٣) ١٣٥ الموازنة، ٨٠ ج ١ العمدة، ٣٢ جمهرة أشعار العرب، وص ١٠٥ نقد الشعر.

(٤) ٣٧٩ وما بعدها ج ٢ العقد.

(٥) ٣٢ الجمهرة.

(٦) ٣٤ الجمهرة.

وكذلك كان علي بن أبي طالب، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء، ويقول: هو أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة^(١).

أشهر الشعراء المخضرمين

مزرد بن ضرار الذبياني - زيد الخيل وفد على الرسول عام ٩ هـ وتوفي في هذا العام - المخبل السعدي مات في خلافة عمر - عمرو بن الأهتم المنقري - ربيعة بن مكرم - عبدالله بن غنمة الضبي - سويد بن أبي كاهل اليشكري وتوفي بعد عام ٦٠ من الهجرة - عوف بن عطية بن الخرج التيمي من تيم الرباب - قيس بن الخطيم وقد لاقى رسول الله ولم يسلم - كعب بن زهير - حسان - مالك بن الربيع.

شعراء الحماسة المخضرمون

عمرو بن الأهتم - الخنساء - عمرو بن أحمر - زرعة بن عمرو - عامر بن الطفيل وفد على رسول الله - قيس بن الخطيم أدرك النبي - الحارث بن هشام توفي عام ١٥ هـ - الضرار السلمي - عمرو بن شاس - سلم بن دارة - غسان بن باهلة - عبدالله بن غنمة الضبي - قبيصة بن جابر - عاتكة بنت عبدالمطلب - أمية بن أبي الصلت - أبو خراش الهذلي - عبدة بن الطيب - دريد بن الصمة - الأسود بن يغوث - قتيلة - النابغة الجعدي - سلمة الجعفي - الشماخ - عمرة بنت الخنساء - معن بن أوس - حسان - أبو الطمحان القيني.

صور من الشعر الإسلامي

(١)

قال أبو ذؤيب الهذلي - وكان له أولاد سبعة فماتوا كلهم - يرثيهم:

أمن المنون ريبة تتفجع	والدهر ليس بمعتب من يجزُع
قالت أمانة ما لجسمك شاحباً	منذ ابتذلت ومثل مالك ينفعُ

(١) ٢٧ و ٢٨ ج ١ الممثلة.

أو ما لجسمك لا يلائم مضجعا
فأجبتها أما لجسمي إنه
أودى بني وأعقبوني حسرة
سبقوا هوي وأعنقوا لهواهم
فبقيت بعدهم بعيش ناصب
وقد حرصت بأن أذفع عنهم
وإذا المنية أنشبت أظفارها
فالعين بعدهم كأن حذاقها
حتى كأنني للحوادث مروة
وتجلدي للشامتين أريهم
والنفس راغبة إذا رغبتها

إلا أقض عليك ذاك المضجع
أودى بني من بلاد فودعوا
بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
فتخرموا ولكل جنب مصرع
وأخال أنني لاحق مستتبع
وإذا المنية أقبلت لا تدفع
ألفيت كل تميمة لا تنفع
سملت بشوك فهي عور تدمع
بصفا المشقر كل يوم تفرع
أنني لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا ترد إلى قليل تقنع

* * *

(٢)

وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا:

لعمرى وما دهري بتأبين مالك
فعيني تبكيان لمالك
وما كان وقافاً إذا الخيل أحجمت
ولا بكهام سيفه من عدوه
أبي الصبر آيات أراها وإنني
وإني متى ما أدع باسمك لم تجب
فلئن تكن الأيام فرقن بيننا
فعشنا بخير في الحياة وقبلنا
وكنا كندماني جذيمة حقة
فلما تفرقنا كأنى ومالكا
سقى الله أرضاً حلها قبر مالك

ولا جزعاً مما ألم فأوجعا
إذاهزت الريح الكتيب الممرعا
ولا طالبا من خشية الموت مفزعا
إذا هو لاقى حاسراً ومقنعا
أرى كل جبل بعد جبلك أقطعا
وكنت حرياً أن تجيب وتسمعا
فقد بان محموداً أخي حين ودعا
أصاب المنايا رهط كسرى وتبعنا
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وهام الغواصي المزجيات فأمرعا

* * *

قصة عربي كريم للحطيثة :

وطاوي ثلاث^(١) عاصب البطن مرمل^(٢) يبيداء^(٣) لم يعرف بها ساكن^(٤) رسما
أخي جفوة^(٥) فيه من الإنس وحشة
وافرد في شعب^(٦) عجوزاً إزاءها
حفاة، عراة، ما اغتذوا خبز ملة^(٨)
رأى شبحاً وسط الظلام فراعهُ
فقال: هيا رباه ضيف ولا قري!!
فقال ابنه لما رآه بِحَيْرَةٍ:
ولا تعتذر بالعدم على الذي ترى
فروى قليلاً، ثم أحجم برهة
فبينما هما عنت على البعد عانةً
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها
فأمهلها حتى تروت عطاشها
فخرت نحوص ذات جحش سمينه
فيا بشره إذ جرهما نحو أهله
وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم
وبات أبوهم من بشاشته أباً

* * *

(١) أي مقيم ثلاث ليالي على الطوى: أي الجوع.

(٢) المرمل: الذي نفذ زاده.

(٣) صحراء.

(٤) رسم الدار ما كان من آثارها لاصقا بالأرض.

(٥) الجفوة: الوحشة.

(٦) الشعب: طريق في الجبل.

(٧) جمع بهمة: الصغير من أولاد الضأن والماعز.

(٨) الملة: الرماد الحار.

(٩) النحوص: الأتان السمينه. الجحش: ولد الحمار. اكتنزت: امتلأت.

وقال مالك بن الريب المازني^(١)، يرثي نفسه ويصف قبره وكان خرج مع سعيد بن عفان أخيه عثمان بن عفان لما ولي خراسان، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه فلدغته أفعى فلما أحس بالموت أنشأ يقول:

دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتني	بذي الطبسين فالتفت ورائيا
فما راعني إلا سوابق عبرتي	تقنعت منها إن الأم ردائيا
ألم ترني بعث الضلالة بالهدى	وأصبحت في جيش بن عفان غازيا
فلله دري حين أترك طائعا	بني بأعلى الرقمتين وماليا
تقول ابنتي لما رأت وشك رحلتي	سفارك هذا تاركى لا أبا ليا
ألا ليت شعري عليّ بكت أم مالك	كما كنت لو غادى نعيك باكيا
إذا مت فماعتادي القبور وسلمي	عليهن واسقين السحاب النوادي
ترى جسدنا قد جرت الرياح فوقه	ترابا كلون القسطلاني هابيا ^(٢)
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا	برابية إلى مقيم لياليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي	وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحمداني بارك الله فيكما	من الأرض ذات العرض أن توسما ليا
خذاني فجرائي ببردي إليكما	فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
تفقدت من يبكي عليّ فلم أجد	سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وبالرمل لو يعلمن على نسوة	بكين وفدين الطبيب المداويا
عجوزي وأختاي اللتان أصيبتا	بموتي وبنت لي تهيج البواكيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي	لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
تحمل أصحابي عشاء وغادروا	أخا ثقة في عرصة الدار ثاويا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني	وأين مكان البعد إلا مكانيا

* * *

(١) مالك: شاعر فاتك كان يقطع الطريق وكان من أحسن الناس وجها وأرقهم حديثا، قبره سعيد في طريقه إلى خراسان وتألفه واتخذته في خاصته.

(٢) القسطلاني: نسبة إلى قسطلان، وهو الغبار الساطع، والهابي: التراب الدقيق.

وقال أبو دعبل الجمحي يمدح النبي ﷺ :

إن البيوت معادن فنجاره	ذهب وكل بيوته ضخم ^(١)
عقم النساء فما يلدن شبيهه	إن النساء بمثله عقم
متلهل بنعم، بلا متباعد	سيان منه الوفر والعدم ^(٢)

(١) البيوت: المراد بها القبائل. المعادن: جمع معدن وهو منبت الجواهر. النجار: الأصل، وكل بيوته ضخم: أي القبائل التي اكتنفته من أخواله وأعمامه شريفة عظيمة مثل هاشم وأمية ومخزوم.

(٢) متلهل بنعم: أي فرح يقول نعم. بلا متباعد: أي بعيد من قول لا. وسيان: مثلاً، الوفر: المال الكثير، العدم: قلة المال.

النقائض الشعرية بين شعراء المدينة وشعراء مكة في عصر الرسالة

كان أبرز الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية ورسولها عليه الصلاة والسلام، ووقفوا في مواجهة قريش، ثلاثة من الأنصار هم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكان حسان أشعرهم، ولم يكن شعرهم شعر أناقة وترف على النهج الذي ألفوا أن يقولوه في الجاهلية، وإنما كان شعر منافحة ودفاع عن الإسلام ورسوله والذين اتبعوه بإيمان. كما كان معايرة لقريش بمخازيها، فقد كان الأولى بها أن تكون أول الواقفين تحت راية الإسلام وفي صفوف المسلمين.

ولقد كان مما قاله أحد الصحابة محرضاً ومستحثاً للأنصار ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم. وكان الأنصار في أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركي مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت: أنا لهم، وأخذ يطرف لسانه ويقول: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء، فقال له الرسول: كيف تهجوهم وأنا منهم، قال: إني أسلك كما تسلك الشعرة من العجين. . قال الرواة: فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمشالب، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم

بالكفر، فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل إسلامهم من أشد القول عليهم، وأهونه عليهم هجاء عبدالله بن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة^(١).

ويبدو أن حسان بن ثابت قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر المبين لدعوة دينية شاملة، ندبه رسول الله ﷺ أن ينافح، وخلد مواقفها في غرر شعره، وخلع عليه صاحبها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء، حيث نصب له منبراً في مسجده يلقي من فوقه شعره، ودعا له أن يؤيده روح قدس، ووهب له (سيرين) أخت مارية القبطية، ووعدته الجنة جزاء إجابته عن الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد اعتلى حسان المنبر في يوم انتصاره الأدبي العظيم على شعراء بني تميم في وفودهم على رسول الله ﷺ، حين قدموا عليه بعد فتح مكة، وكانوا سبعين أو ثمانين رجلاً، فيهم وجوه القوم وسادتهم، وكانوا غلاظاً جفاة، فنادوا الرسول من وراء الحجرات وقالوا: يا محمد جئناك لنفاخرك فائذن لخطيبنا وشاعرنا، فأذن لهم، وخطب منهم عطار بن حاجب بن زرارة فغلا في وصفه لقومه، وزعم لهم الملك والغنى والكثرة والمنعة والسيادة والقوة على العرب جميعاً، فأشار الرسول ﷺ إلى ثابت بن قيس الأنصاري ففاخر بالرسول وأتباعه من المهاجرين والأنصار، فدمغ بحقه باطلهم وطامن من غرورهم، وكبريائهم، وفند دعاوهم ومزاعمهم.

ثم قام شاعرهم الزبير بن بدر فأنشد شعراً جمع فيه المكارم والمحامد لقومه، فأومأ الرسول إلى حسان، فأنشد قصيدته السينية، التي أزال بها الغشاوة عن أعين القوم، وجلا الصدا الذي ران على قلوبهم حتى قال الأقرع بن حابس: والله إن هذا الرجل (ويقصد محمداً ﷺ) لمؤتى له، والله لشاعره أشعر الناس، ولخطيبه أخطب من خطيبنا، ولأصواتهم أرفع من

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٥٠، د. سيد حنفي حسنين.

أصواتنا، ثم قال: أعطني يا محمد، فأعطاه عليه الصلاة والسلام، فقال: اللهم إنه سيد الناس... ثم أسلم الوفد...

وكان من أبيات القصيدة التي أنشدتها حسان قوله:

إن الذوائب من فهرٍ واخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع ^(١)
يرضى بها كل من كان سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا ^(٢)
سجية تلك فيهم غير محدثة	إن الخلاق - فاعلم - شرها البدع ^(٣)
إن كان في الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع ^(٤)
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم	في فضل أحلامهم عن ذاك متسع ^(٥)
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطبعون ولا يرددهم الطمع ^(٦)
اعطوني الهدى والبر طاعتهم	فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا ^(٧)
إن قال سيروا أجدوا للسير جهدهم	أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا ^(٨)
ما زال سيرهم حتى استفاد لهم	أهل الصليب ومن كانت له البيع ^(٩)
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم	وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع ^(١٠)
كانهم في الوغى والموت مكتنع	أسد يبيشة في أرساغها فدع ^(١١)

- (١) الذوائب: جمع ذؤابة وهي أعلى الشيء، وفهر: اسم الجد الأعلى لقريش وأصله حجر صلب.
(٢) السريرة والسر: ما يكنه الإنسان في صدره ويخفيه عن غيره.
(٣) السجية: الغريزة.
(٤) أي هم أسبق الناس وغيرهم لهم تبع.
(٥) المقصود بالجهل هنا: الطيش والحمق، والأحلام: جمع حلم والمقصود منه: الأناة، والعقل: أي انهم لسعة عقولهم لا يتسرعون في الغضب إذا استثارهم أحد.
(٦) لا يطبعون: لا يقعون في الدنس والحسة، ولا يرددهم الطمع: لا يهلكهم ويدفعهم إلى المغامرة.
(٧) ونى: أبطأ وتأخر، وما نزعوا: ما انصرفوا عن اتباعه ونصرته.
(٨) عوجوا: أنزلوا، ربعوا: وقفوا وأقاموا - كناية عن كمال الخشوع والاستسلام.
(٩) استفاد: خضع وأسلم القيادة. أصحاب البيع: اليهود.
(١٠) الخور: الضعف والجبن، والجزع والجزاع: الخائف المدعور.
(١١) الموت مكتنع: أي دان قريب... ويبيشة: مأسدة في واد بطريق اليمامة اشتهرت أسودها بقوة البطش، والرسغ: المفصل ما بين الساعد والكف وما بين الساق والرجل، والفدع: اعوجاج الرسغ، وهو في الأسود دليل الصلابة والقوة.

أكرم بقوم رسول الله شيمتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع^(١)
أهدي لهم مدحي قلب يؤازره فيما يجب - لسان حائك صق^(٢)
فإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو شمعوا^(٣)

وهكذا كان لهذه قصيدة أثرها في اعتراف «تميم» أولاً بأن محمداً عليه الصلاة والسلام مؤتى له، وثانياً بهذا الدين الذي يدعو إليه.

والحق أن حسناً كان آية من الآيات التي أيد بها رسوله ﷺ، فقد كان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء، وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح، فكان لا بد له أن يعد لهم شاعراً سليط اللسان قوي البيان سريع العارضة، وقد كان لمعسكر المسلمين شعراؤه، ولا بد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامي، ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام، بثاقب نظره، ندب حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة، فحسان أنصاري والأنصار قد نصرُوا رسول الله بسيفهم، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم، وهو من بني النجار - ذؤابة الخزرج - وهو شاعر ناضج معروف المكانة، وقد كمل رسول الله ﷺ ناحية النقص في عدته الهجائية، فعهد إلى أبي بكر أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، وقد ظهر أثر ذلك كله في شعر حسان ظهوراً لم يخف على فطانة قريش، فقالت بعد سماع شعر حسان: «إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة».

وقد سرَّ النبي ﷺ لهذا التوفيق الذي أصاب شاعره، فكان يستشهده ويطلب الاستماع إليه ثم يقول: «لهذا أشد عليهم من وقع النبيل». وروي أنه قال: «أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى»^(٤).

(١) شيعتهم: حزبهم ومعدهم.

(٢) يؤازره: يعاونه ويسانده، والصنع والصناع: الخادق في صنعه.

(٣) شمع: لعب ومزح، يعني أن فضل رسول الله ﷺ، وقومه على سائر الأحياء لا يجادل فيه أحد سواء كانوا في معرض الجد أو المزول.

(٤) راجع: دراسات في الأدب الإسلامي للأستاذ محمد خلف الله أحمد، ص ٣٥، نسيات من غير الأدب للدكتور محمد سرحان، ص ١٠٤، ط ٢.

وواضح من المواقف التي وقفها حسان وأمثاله، أنه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافعون عنها، فلقد كان لها كذلك أعداؤها ممن أخذوا يكيدون لها شعراً مثل أمية بن أبي الصلت، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن الزبيري، والحارث بن هشام، وغيرهم.

وإذا كان لهؤلاء وأولئك مواقفهم شعرية بعد فتح مكة، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح.

ففي وقعة بدر الكبرى - مثلاً - حيث كان نصر المسلمين رائعاً مؤزراً، يقول حسان بن ثابت:

سرنا، وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون بعين العلم ما ساروا^(١)
دلاهم بغرور ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غراراً^(٢)
وقال: إني لكم جار فأوردهم شر الموارد فيه الخزي والعار

ويمضي شعر المسلمين يسجل على قريش بغيتها وبطرها الذي سجله القرآن الكريم من قبل، فقال كعب بن مالك:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا بغوا، وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناس، حتى جمعهم متكائر

أما مَنْ فر من المشركين يوم بدر، فقد اشتفى منهم شعر المسلمين بالتعيير، والهزاء والزراية، ومن أوجع ما قيل في ذلك ما أنشأه حسان في قصيدة تعد من أقوى ما قيل من الشعر في غزوة بدر، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمرا (أبا جهل) يقتل في ميدان القتال، هذه القصيدة التي بدأها حسان بقوله يتغزل:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسام

(١) الحين: الهلاك.

(٢) دلاهم بغرور: أي أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فأسلمهم للهلاك.

ثم يخلص من الغزل إلى قوله:

إن كنتِ كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
وينوأييه ورهطة في معرك نصر الإله به ذوي الإسلام
لولا الإله وجريها لتركته جَزَرَ السباع ودسنه بحوامي^(١)

ومن أكثر ما رددته شعراء المسلمين يومئذ، تعديدهم الصرعى من
عظماء قريش ووصف هوانهم وقد ألقوا على أرض المعركة ينتظرهم مصير
آخر مؤلم في نار جهنم، ووصفهم الأسرى وقد سُدُوا بالأغلال وقُيدوا
بالأصفاد. وما هو ذا حسان يصف المعركة التي دارت على المشركين فيقول:

طحنتهم والله ينفذ أمره حرب يشبُ سعيها بضرام
من كل مأسور يشدُ صفاده صقرٌ إذا لاقى الكتيبة حامي
ومجدل لا يستجيب لدعوة حتى تزول شوامخُ الأعلام
بالعار والذل المبين إذا رأوا بيضُ السيوف تسوقُ كلَّ همام

ويقول كعب بن مالك:

بهن أبَدْنَا جمعهم فتبدُّوا وكان يلاقي الحين من هو فاجرُ
فخرٌ أبو جهلٍ سريعاً لوجهه وعتبة قد غادرته وهو عائرُ
وشيبة والتميمي غُودرن الوغى وما منهم إلا بذى العرش كافرُ
فأمسوا وقودَ النار في مستقرها وكل كفورٍ في جهنم صائرُ
تلظى عليهم وهي قد شبَّ حميمها بزبر الحديد والحجارة ساجرُ

ولم ينسَ المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ
بالثأر، فهون شعراء المسلمين من ذلك، بل أكدوا أن سيأتي يوم ويفزون فيه
مكة ويستولون عليها، وفي ذلك يقول كعب بن مالك:

(١) راجع: الأثر القرآني في الصورة الأدبية، ص ٢٤٧: رسالة ماجستير، د. صلاح الدين محمد
عبدالتواب، من النقد والأدب، د. أحمد بدوي ص ١٤ - ١٦.

فلا تعجل أبا سفيان وارقب جياد الخيل تطلع من كداء
أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة، فيظهر أن قريشاً تواصلت
على أن تخفي حزنها في صدرها، وأن لا تبوح بالآلامها أول الأمر، إلا أنه لم
يلبث أن انطلق الشعر من عقاله، معبراً عما يجيش في النفوس إزاء هذه
الهزيمة التي حاطت بقريش وإزاء تلك السخرية اللاذعة التي تنطلق من
أشعار المسلمين.

وكان مما قاله شداد بن أوس يكي من لقي مصرعه في وادي بدر ويعدد
عظماء القتلى ويصف مشاعره إزاء قتلهم:

تحيي بالسلامة أم بكر وهل لي بعد قومي من سلام
فإذا بالقلوب قلب بدر من القينات والشراب الكرام
وهذا هو أمية بن أبي الصلت يكيهم ويشني عليهم ويصف مقدار ما ألم
مكة لفقدهم:

ألا بكيت على الكرا	م بني الكرام أولي المماح
ماذا ببدر قالعنق	ل من مرازية ججاجح
شمط وشبان بهالي	ل مناوير وحاح
ألا ترون كما أرى	ولقد أبان لكل لامح
أن قد تنير بطن مك	ة فهي موحشة الأباطح

ومضى بعض الشعراء ليكون مصابهم الخاص أو يندبون بني قبيلتهم
أو يرثون بعض عظمائهم، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشام يرثي
أخاه أبا جهل:

ألا يا لقومي للصبابة والهجر	وللحزن مني والحرارة في الصدر
وللدمع من عيني جرارا، كأنه	فريد هوى من سلك ناظمه يجري
على البطل الحلو الشمائل انشوى	رهين مقام للركية من بدر
وتوعد بعضهم الأوس وهددهم بالانتقام والثأر، وأخذ يخفف من غلواء	

الأنصار فيما ملأهم من الابتهاج بالنصر، ويدعو المكيين بأن يناموا على الضيم، وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر	عليهم غدا والدهر فيه بصائرُ
وفخر بني النجار أن كان معشر	أصبيوا بيدرٍ، كلهم ثم صابرُ
فإن يك قتلى غودرت من رجالنا	فإن رجالا بعدهم سنغادر
ونترك صرعى تعصب الطير حولهم	وليس لهم إلا الأماني ناصرُ
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة	لهن بها ليل عن النوم ساهرُ

ولقد أسهمت المرأة بدورها في البكاء على صرعى بدر من المشركين، ومما يرون من شعر هند بنت عتبة في هذا المضممار، قولها تبكي أباهَا عتبة بن ربيعة^(١):

أعيني جوداً بدمع سرب	على خير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة	بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حُداً أسيافهم	يعلونه بعد ما قد عطب
يجرونه وعفير التراب	على وجهه غارياً قد سلب

وكان من أجمل ما قالت المرأة من الشعر في هذه الغزاة، شعر قتيلة بنت الحارث تبكي أخاها النضر، وتعاتب الرسول ﷺ فتقول^(٢):

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفقُ
أبلغ بها ميثاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها، وأخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديتَه	أم كيف يسمع ميت لا ينطقُ
أحمد، يا خير ضنء كريمة	في قومها، والفحل فحل معرقُ
ما إن ضرك لو مننت ربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ

(١) راجع: شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ليحيى الخبوري، طبعة بغداد، ص ١٧١ و ١٧٢، والأثر

القرآني في الصورة الأدبية، ص ٢٤٩، د. صلاح الدين محمد عبدالنواب.

(٢) المرجع السابق، من النقد والأدب، د. أحمد بدوي ص ٢٣ - ٢٤.

والنضر أقرب من أسرت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشسق
قسراً يقاد إلى المنية متعباً رسف المقيد وهو عان مسوق

وفيما يرى أن رسول الله ﷺ قال عندما بلغه هذا الشعر: «لوبلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»...

ولقد كان من الذين هاجتهم انتصارات المسلمين في بدر وأضرمت نيران الحقد وطلب الثأر في نفوسهم: أبو أسامة معاوية بن زهير حيث يقول:

ولما أن رأيت اقوم خفوا وقد زالت نعماتهم لنفر^(١)
وإن تركت سراة القوم صرعى كأن خيارهم اذباح عثر^(٢)
وكانت جمعة وافق حماما ولقينا المنايا يوم بدر^(٣)
قاسم بالذي قد كان ربي وأنصاب لدى الحجرات مفر^(٤)
لسوف ترون ما حسبي إذا ما تبدلت الجلود جلود نمر

وينهض شاعر يهودي قد ملأ قلبه غيظاً وحقدًا على محمد ﷺ ودعوته، وقد رأى في موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره في يشرب وما حولها فيذهب إلى مكة مستنهضاً قريشاً مستثيراً رجالها وليأخذوا بثارات قتلاهم في بدر فيقول:

طحنت رحي بدر لمصرع أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن المملوك تصرع
نُبئتُ إن الحارث بن هشامهم في الناس بيني الصالحات ويجمع
ليزور يشرب بالجموع وإنما يحمي على الحسب الكريم الأروع

(١) زالت نعماتهم: ذهبت نفوسهم.

(٢) عثر: صمم.

(٣) الجمعة: الجماعة من الناس.

(٤) مفر: جمع أمغر، يعني: أحر.

ومهما كان القوم من جانب شعراء المسلمين، أو شعراء المشركين فقد كان لواء الشعر معقوداً على حسان، حيث كان يضرب بشعره في مقاتل قريش، ويحشد كل إمكانياته البيانية في إطار إيمانه المنيع العميق وحبّه للرسول ﷺ، وكان مما قاله كذلك في هجاء قريش والتهكم بهم بعد بدر:

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم وماء بدر زعمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصدير

ويتعرض حسان لقريش ولأبي سفيان بصفة خاصة، وقد عادى النبي ﷺ عداءً شديداً، وهجاه وسخر من دعوته فيقول حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
فلن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وفاء

وإذا كان حسان لم يكن وحده الذي يصور أحداث المعارك بين المسلمين والمشركين، وإنما شاركه في ذلك أيضاً كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، غير أن حساناً كان قد فاقهما في كثرة النظم، وكثرة ما أجاد أيضاً، حتى علت منزلته واحتل من قلب الرسول ﷺ المكانة الأولى بين الشعراء.

وكنا قد وقفنا من قبل على بعض أشعار كعب بن مالك في تسجيل بعض الأحداث في غزوة بدر...

أما عبدالله بن رواحة فقد أسهم بدوره بقدر لا بأس به في معركة الإيمان ضد الشرك، وكان يضيف على الرسول ﷺ من رائق القول ما ينم عن إحساس صادق ويقين خالص، وكان مما قاله في وداع النبي ﷺ حين خرج إلى غزوة مؤتة:

فشبت الله ما آتاك من حسن تثبت موسى ونصرا كالذي نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

ولكن يبدو أن حساناً كان قد غطى كل أحداث عصر الرسول ﷺ بشعره، بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين، كما فعل في رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمي حليف بني نوفل بن عبد مناف، فقد كان كلاهما يئكي على بدر، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش، ومن هذه المناقضات والقصائد التي قالها حسان:

ابك بكت عيناك ثم تبادرت بدم تعل غروبها سجام
ومنها:

خابت بنو أسد وآب عزيزهم يوم القليب بسوء وفضوح
ومنها:

جمحت بنو جمح لشقوة جدهم إن الذليل موكل بذليل
وإلى غير ذلك من القصائد والمناقضات التي سجل بها حسان أخبار غزوة بدر. أما في أحد، فنراه يؤدي دوره كما أداه في بدر، فهو يرد على المشركين حين أخذتهم الحمية في هذه الغزوة بعد أن قدر لهم فيها النصر، وكانت مهمة حسان فيها لذلك أشق، ولأنه مطالب بأن يقلل من نشوة المشركين بالنصر، وأن يؤكد - في هذه الظروف - أن الغلبة للمسلمين، فهو يرد على أبي سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التي أولها:

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قتله بمصيب
كذلك يعير قريشاً بأن أعطت لواءها لعبد حبشي يُسمى (صؤاب) وهو في كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتلاها وشهادتها، فنراه يقول:

فخرتم باللواء وشرفخر لواء حين رد إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه بعبد وألم من يطا عفر التراب
وها هو ذا يهجو عتبة بن أبي وقاص لأنه رمى رسول الله ﷺ في أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ﷺ، فيسجل حسان هذه الحادثة في هجائه فيقول:

فأخزأك ربي يا عتب بن مالك ولقأك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يميننا للنبي تعمداً فأدميت فاه، قطعت بالبورق

وتتكرر الصورة - والحرب سجال - وحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول ﷺ ويفخر بالمسلمين، ويؤدي دوره في كل ذلك خير أداء، فهو مراسل حربي، يسجل الأخبار، وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين^(١).

إلى أن كان الفتح الأكبر، وهو الذي استعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه - فتح مكة :

فشارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة استعداداً لها، فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح، ويذكرهم بما فعلت بهم قريش :

عناني ولم أشهد بيسطحاء مكة رجال بني كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تُجَنُّ ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي سهيل بن عمرو وخزها وعقابها
إلى أن يقول :

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها
ثم يتم فتح مكة، ويدخل الجيش الإسلامي وعلى رأسه قائده محمد ﷺ، فيعلن حسان انتصار الإسلام، وانتصار الأنصار، بقصيدته التي عرف بها ومطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء
وفيها تلك المقدمة التي استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها، ولكن علل ذلك النقاد بأنها من نظمه في الجاهلية وأكملها في الإسلام^(٢).

(١) راجع: حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٦١، د. سيد حنفي حسين.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤.

ومن هذه القصيدة يقول حسان:

عدمنا خيلنا إن تروها تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأسنة مصغيات على أكتافها الإسل الظماء
تظل جيانا متمطرات يلطمهن بالخمير والنساء
فأما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وتتوالى الأحداث، وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو في كل مرة يسجل الحدث، معبراً عن شعوره إزاءه، وشعور سائر المسلمين.

ثم يأتي يوم يقبض الرسول ﷺ فيه، وتصعد روحه إلى الملاء الأعلى، فيبكيه حسان، لا كما يبكيه كل المسلمين، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول في أجل فترات حياته، وشارك في كل حدث مرّ به، بقلبه ولسانه، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه، فكان بكاءه تسجيلاً لهذا الحدث الجلل، وتعبيراً عن أحزان أمة أسسها رسول الله ﷺ برسالته وإرشاده وقودته، وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان رسول الله ﷺ، تلك التي مطلعها:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد^(١)

هذا هو حسان بن ثابت، الذي يمكن أن نلمس في شعره - وبعض شعر صحابه الذي تمثلنا به - روحاً جديدة، وسمة من الإيمان العميق بالذين اقتنعوا به فاعتنقوه، متخلين بذلك عن الأسلوب الذي تعودوا أن يلتزموه في الجاهلية. ومن هنا جاء الشاعر أغزر معنى وأقل أسلوباً، وربما يكون حسان نفسه قد أحس ذلك، ومن ثم كان يعتمد بين الحين والحين إلى الأسلوب الجزل الذي كان يطرب هو نفسه له وتطرب لسماعه الأذان، ومن أمثلة ذلك قوله في قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق، وكان الأول قد شجب بنساء المسلمين، وألب قريشاً على الرسول ﷺ، وكان الثاني قد حزب الأحزاب ضد المسلمين.

(١) حسان بن ثابت شاعر الرسول، ص ١٦٥.

قال حسان:

لله در عصابة لاقيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرحا كأسد في عرين معرف
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حتفا ببيض ذفف
مستنصرين لنصردين نبيهم مستغربين لكل أمر مجحف

وكان حسان يحن إلى هذا اللون من الشعر الجزل المتسم بالفحولة الذي تعود أن يقوله في الجاهلية كلما كانت المناسبة عظيمة، وأي مناسبة أعظم من فتح مكة، ذلك الحادث الذي هز أعطاف الزمان ما عاش رواة التاريخ، ففي معركة فتح مكة انتصار للمؤمنين على عبدة الأوثان وتوكيد وتثبيت للرسالة السماوية، واسترداد للبيت العتيق، وتغلب على معدن الكيد للرسول ولرسالته في شخص قريش، ولذلك فقد أطلق حسان لشاعريته العنان، فرجعت به في تحليلها إلى نمط الأسلوب الجاهلي لفظاً واصطلاحاً^(١) فقال:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلأء
ديار من بني الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس خلال مروجها نعم وشاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصفيات على أكتافها الأسل الظماء

والقصيدة طويلة موسومة بالفحولة، ولم يتحرج الشاعر فيها من ذكر الخمر لإرضاء لشيطان شعره الأصيل، مشيراً إلى الأماكن الغسانية التي تتصل بطرف من حياته القديمة قبل الإسلام في ظل الغسانية ملوك الشام.

لقد كان شعر حسان وصحابه من شعراء الرسول - وخاصة في تلك الفترة وهذه الظروف، حيث كانت المناقضات والمناظرات، وحيث كان

(١) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٢، د. مصطفى الشكعة.

الدفاع عن الإسلام ورسوله - فكان شعر حسان وصحبه إذن جامعاً بين فحولة شعر الجاهلية وبين المعاني الإسلامية، فإذا كان حسان جاهلياً في قصيدته الهمزية السابقة، ورغم أنها قيلت في أعز مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بكل إمكانياته ومواهبه، فأطلق لشاعريته العنان بغير تحرُّر، فإنه هو نفسه القاتل في رثاء حمزة بعد أن قتل في موقعة أُحد، موازناً بين مثواه في جنة الخلد، ومثوى الهالكين من قريش في القار، مركِّزاً على المعاني الإسلامية:

وإن جنان الخلد منزلة بها وأمر الذي يقضي الأمور شريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معاً في جوفها وصريع

ويمكن القول بأن الشعر على ألسنة الشعراء المنافحين عن العقيدة كحسان وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك، كان مكسوّاً ثوب الإيمان ملتزماً بالمعاني الإسلامية، طالما كان في التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة، جانحاً عنها إلى أسلوب الشعر الجاهلي متى كان في ذلك فائدة للدعوة أيضاً^(١)، وبعبارة أخرى، كان الشعر يلتزم المعاني التي تؤذي نفوس قريش بالحديث عن الأنساب والوقائع والأيام والمآثر، وهو السلاح الذي ينفع مع قريش، ذلك أنها لم تكن تحفل بوصمها بالشرك والكفر وعبادة الأوثان، لأن ذلك كان مصدراً لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم، فكان طبيعياً أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقاً هجاء^(٢).

ولعله من أهم الملاحظات في هذا الشعر الإسلامي - في إطاره العام - أنه شعر مقطوعات، وليس شعر قصائد، وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر إلى موضوعه مباشرة دون تقديم، وكانت الظروف التي

(١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب، والأدب في موكب الحضارة الإسلامية، د. مصطفى الشكعة.

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي، ص ١٦، د. شوقي ضيف، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ص ٦٣.

يعيشها المسلمون - وخاصة الشعراء منهم - تقتضي أن يكون شعرهم سريعاً في مقاومة المشركين حتى يردوهم مخذولين .

ومن هنا كانت الأحداث التي تمضي سراعاً لا تدع للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم ، وإنما كانت تلح عليه إلحاحاً من أجل أن يلاحقها بنفس سرعتها ، ومع ذلك لم يخل هذا الشعر الإسلامي من روعة وجودة وإتقان .

الباب الثالث

الإعلام في الأحب الإسلامي

للدكتور عبد العزيز شرف

القرآن الكريم ونظرية الاتصال الادبي

بسم الله الرحمن الرحيم . . ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا
لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).

بهذه الآيات الكريمة افتتحت الدعوة المحمدية، أو الرسالة الإسلامية
التي حملها الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد بن عبدالله ﷺ، وكلفه
بتبليغها للناس كافة والإعلام عن الدين الحق والإله الواحد الذي لا شريك له
ولا ولد.

وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ
الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ
الْفَجْرِ﴾^(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد خرج إلى غار حراء كعادته في تلك الفترة التي
كان يعتزل الناس فيها، ويقضي الليالي ذوات العدد، متعبداً، متحشداً،

(١) سورة العلق.

(٢) سورة القدر.

متاملاً.. في الكون مناجياً من كونه سبحانه وتعالى . ففاجأه جبريل عليه السلام بأمر الله جل جلاله - قال رسول الله ﷺ: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب.. فقال: «اقرأ. قلت: ما أقرأ. قال: فغتنني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ. فغتنني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أقرأ. فغتنني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. قال: فقرأتها ثم انتهى، فانصرف عني، وهيب من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاب».

قال رسول الله ﷺ: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء انظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

قال ﷺ: «فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك... فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني».

وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ مبتدئاً باسم ربك و﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي الذي لا يداني كرمه كرمهما كان، و﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أرشد ووفق إلى الكتابة به، وفي هذا تنبيه على فضل علم الكتابة، فما دونت العلوم ولا ضبطت كتب الله تعالى المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها لما استقامت أمور الدين والدنيا و﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي علمه ما لم يكن يعلم، أو عرفه ما لا يستطيع معرفته بقواه البشرية المحدودة.

وإن من ينظر إلى الكهرباء واللاسلكي والصواريخ الموجهة والطائرات التي تخترق حاجز الصوت والإذاعات المرئية والمسموعة والأقمار الصناعية ورحلات الفضاء وكل وسائل الاتصال وغيرها في الصناعات والمعلومات والتكنولوجيا الحديثة، يعلم حق العلم أن العقل البشري مهما سما وارتفع وتوغل في دنيا العلوم فهو عاجز قاصر لا يستطيع أن يحقق شيئاً من المعرفة بغير إلهام وتعليم من العليم الخبير عز وجل.

ولا شك أن افتتاح الرسالة المحمدية بكلمة «اقرأ» يعني التأكيد على اقتران العلم بالدين وارتباطه بالدعوة والاتصال، ويبان أن العلم أساس للحقائق الكونية كلها، وأن العلم بالله أو معرفة الله سبحانه وتعالى هي رأس جميع الحقائق الكونية. . إن الله يأمر بالقراءة التي هي أهم وسائل العلم وأولها، وقد كرر الأمر بالقراءة مرتين، وذكر العلم ثلاث مرات، وذكر القلم مرة في هذه السورة، ثم ذكره بعد ذلك عندما أقسم سبحانه قائلاً ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١).

والعلم في الإسلام من وسائل تثبيت الإيمان، والعلماء هم أعرف الناس بالله وأكثرهم خشية له جل جلاله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢)، وللعلماء عند الله مكانة لا يرقى إليها غيرهم، فهو سبحانه يقول ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾^(٣)، ولقد أمر الله رسوله الكريم أن يلجأ إليه داعياً أن يزيده علماً فقال ﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً﴾^(٤)، والآيات القرآنية في فضل العلم وفي الحض على التعليم وفي تقدير العلماء كثيرة.

والعلم الذي يدعو إليه الإسلام ليس قاصراً على الدين وحده، وإنما هو

(١) سورة القلم، الآية الأولى.

(٢) سورة فاطر، الآية ٢٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٤) سورة طه، الآية ١١٤.

العلم بمعناه الواسع . والله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التأمل في خلق السموات والأرض ، وفيما سخره لنا من بحار وأنهار وجبال وسهول ووديان وأنعام وغيرها . . وهو يقول عز من قائل ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) .

وهكذا اقترن الإسلام بالعلم منذ تلك الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم على محمد رسول الله ﷺ .

والثابت أن العرب كانوا في جاهليتهم أميين أي بلا كتاب ، ولم يكن فيهم من يعرف الكتابة إلا قلة قليلة لعلها كانت ممن تسلسل من ولد إسماعيل عليه السلام . وقد وردت في القرآن كلمة الأمي والأميين ووصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالنبي الأمي ، وقد وردت في سورة مكية ومدنية . ففي سورة الأعراف قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (٢) ؛ وفي البقرة قوله عز شأنه ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٣) ؛ وفي آل عمران قال جل جلاله ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يقولون إن الأميين من لا كتاب لهم من الناس ، ومن هؤلاء العلماء الطبري الذي فسر الآية ١٩ من آل عمران ﴿فَلِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَصْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَسْلَمْتُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بأن قال : «المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يقول : يا محمد ، قل للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أسلمتم ...» .

(١) سورة الجاثية ، الآية ١٣ .

(٢) الآية ١٥٦ .

(٣) الآية ٧٧ .

(٤) الآية ٧٥ .

وهنا تفسير آخر يقول سُمي بـ«الأمي» لأنه من أمة العرب التي لم تكن تكتب أو تقرأ، وقد بعثه الله بالحق رسولا وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة وهذه إحدى المعجزات، لأنه ﷺ تلا القرآن على قومه كما أنزل عليه فلم يغير ولم يبدل لفظاً أو حرفاً وفي ذلك يقول العلي القدير: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١).

وقال القرطبي ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ الضمير في قبله عائد إلى الكتاب أي القرآن المنزل على محمد ﷺ - أي وما كنت يا محمد تقرأ قبله ولا تختلف إلى أهل الكتاب - بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك. فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ويخط حروفاً لارتاب المبطلون أي أهل الكتاب - وكان لهم في ارتيابهم متعلق - وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه أمي لا يكتب ولا يقرأ - قال مجاهد: «كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ... فنزلت هذه الآية». ولا شك أن نزولها دليل على نبوة محمد ﷺ لقريش لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ومع ذلك فقد جاءهم بأخبار الأنبياء والأمم والأحداث التي وقعت في الأيام الموعلة في جوف الزمن.

وقد تعرض الجاحظ لهذا الموضع أيضاً فقال مقالاً عن كلام شيخ من البصريين «أن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب، ولا يقرض الشعر ولا يتكلف الخطابة ولا يعتمد البلاغة، لينفرد سبحانه بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ويقصره على معرفة مصالح الدين، دون ما تنبأ به العرب من قيافة الأثر والبشر، ومن العلم بالأنواء وبالخيال وبالأنساب وبالأخبار، وتكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم وتكلم بالكلام كان ذلك أدل على أنه من الله.

«ورغم أن الله تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب الناسب، ولكن ليجعله

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

نبياً، وليتولى من تعليمه ما هو أذكى وأنمى، فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القبائل ليجلي له الكثير»..

وقد ردّ الجاحظ على كلامه هذا بقوله: «وقد أخطأ هذا الشيخ وإن كان لم يرد إلا الخير - وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه - ولو زعم أن أداة الحساب والكفاية وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة، ولكنه ﷺ صرف عن تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أذكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب وأقوف من كل قائف، ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب ومتفرس ناسب، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة.. وما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ولزوم طاعته والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم ومكروهم ومحبتهم، ولكنه أراد ألا يكون متعلقاً عما دعي إليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف في المؤونة وأسهل في المحنة، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون عليها».

وحديث الجاحظ هذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(١). كما يذكرنا بحادثتين وقعتا لرسول الله ﷺ وهو فتى يرعى الغنم، وكان مع زميل له، فحدثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الفتيان، فأفضى إلى زميله بذلك ذات مساء وطلب منه أن يقوم على حراسة أغنامه، لكنه ما أن بلغ أعالي مكة حتى استرعى انتباهه حفل زواج، فوقف عنده ثم ما لبث أن غلبه النوم، ونزل مكة ليلة أخرى لهذه الغاية فامتلات آذانه بأصوات موسيقية عذبة كأنما هي موسيقى السماء، فجلس يستمع ثم غلبه النوم حتى الصباح.

(١) سورة يس، الآية ٦٨.

وماذا عسى أن يكون الشعر والنثر والموسيقى وكل المغريات بالنسبة لرجل أعده الله سبحانه وتعالى ليكون الإعلامي الأمثل، والداعية الأول إلى دينه الحق؟ نعم لقد عصمه الله وصرف اهتمامه إلى ما هو أهم وأعظم إلى الرسالة التي أعده لحملها والقيام بتبعتها.

وإذا كان القرآن الكريم قد بدأ يلفظ «اقرأ» فإن ذلك لدليل على حكمة بالغة الأهمية تهدف إلى حض الناس على التعليم والثقيف والاستشارة، فالقراءة تفتح أمام الجاهل صفحات جديدة للحياة الكريمة وتأخذ بيده إلى الحقائق، بل تصل به إلى جوهر القيم وتضعه على المسار الصحيح، أو بعبارة أخرى تضع له المنهج السليم، والمنهج السليم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم هو جانب من جوانب الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم، ذلك الذي يحدد معالم نظرية إعلامية متكاملة تتضمن علم النبوة أو علم الرسائل الإلهية، كما تتضمن علم المعجزات وتشيد المجتمع الإسلامي على الصورة التي يريدها الله، فإنها تتضمن عدداً من العناصر الاتصالية المتكاملة المتصلة الحلقات اعتماداً على نظرية الوحي، حيث يوحى إلى الرسول ﷺ من عند الله فيقوم الرسول بالتبليغ والإعلام، والرسالة القرآنية تعتمد على أسس وضعها الله سبحانه وتعالى في نفوس الجماهير الذين يتلقون هذه الرسالة.

فالعنصر الأول: وهو الوحي، أشار إليه القرآن الكريم في أكثر من موضوع، فقال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿أَكَاٰنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ اَنْذِرِ النَّاسَ﴾^(٢)، وقال عز من قائل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ اَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا اَوْحَيْنَا اِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ﴾^(٣)، وقال جل جلاله: ﴿وَاَوْحَيْنَا اِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ

(١) سورة النساء، الآية ١٦٣.

(٢) سورة يونس، الآية ٢.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣.

يَأْمُرُهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾، ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴿٢﴾، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٣﴾، ﴿كَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿٤﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿٥﴾، ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٦﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧﴾، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٨﴾، ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿١٠﴾، ﴿أَنْ اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴿١٢﴾.

وكل هذه الآيات الكريمة تؤكد أن عنصر الوحي في النظرية القرآنية للإعلام هو العنصر المعجز، لأن ما يُوحى به الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يأتي به بشر، ومن هنا كانت معجزة محمد عليه الصلاة والسلام تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين، فإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم كانت معجزاتهم معجزات حسية تراها العين وتسمعها الأذن وتلمسها الأيدي، ولكن معجزة

(١) سورة يوسف، الآية ١٥.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٠.

(٣) سورة فاطر، الآية ٣١.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٤٤.

(٥) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٦) سورة طه، الآية ١٣.

(٧) سورة الأنبياء، الآية ١٠٨.

(٨) سورة الأحزاب، الآية ٢.

(٩) سورة ص، الآية ٧٠.

(١٠) سورة فصلت، الآية ٦.

(١١) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(١٢) سورة النجم، الآية ٤.

محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزة عقلية تعتمد على التأمل ومخاطبة العقل - والله سبحانه وتعالى في ذلك حكمة - فالبشرية في عهودها الأولى كانت في مراحلها البدائية التي تحتاج في الإقناع إلى الوسائل الملموسة، في حين أنها في عهد محمد ﷺ كانت قد بلغت درجة من الرقي العقلي واللغوي تجعلها في حاجة إلى معجزة عقلية وبلاغية تبهر عقولهم، وتكشف شمس بلاغتهم، وقد أرسل الله إليهم القرآن الكريم معجزة في اللغة والعقل متحدياً الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١).

ومن يدرس القرآن الكريم يجد، حجة الله سبحانه على خلقه، وحجة النبي في رسالته، ومرجع الشريعة المحكم في بيانه، والفيصل عند الاختلاف، والنهج السليم عندما تلتوي الطريق، والسراج المنير عندما يطبق الظلام.

حدّث الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم». فقلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله تبارك وتعالى.. فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٢) من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»...

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٧.

(٢) سورة الجن، الآية ٢.

وفي معنى هذا الحديث الشريف رُوي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن هذا القرآن مآدبة الله تعالى، فتعلموا من مآدبته ما استطعتم.. إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه. لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستوعب، ولا تنقضي عجائبه. فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات».

ومن الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم نزوله منجماً على مدى السنوات الثلاث والعشرين التي هي مدة الرسالة المحمدية. فقد نزل على فترات غير محددة الأوقات، ولم ينزل دفعة واحدة كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام، وكما نزل الزبور على داود عليه السلام. وقد تساءل القرشيون عن السبب في هذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١). وهذا الرد الإلهي قد تضمن ثلاث إجابات^(٢) تفسر السبب في نزوله منجماً: أولها، تثبيت فؤاد الرسول بموالة الواحي بالقرآن، فإن موالاته فيها أنس للنبي عليه الصلاة والسلام وتثبيت لعزيمته وتأييد مستمر له، فيقوم بحق الدعوة بالجهاد في سبيلها، وإذا كان المرء يستأنس بوليّه إذا داوم الاتصال به، فكيف لا يستأنس رسول الله بلقاء الروح الأمين الذي يعيئه بكلام رب العالمين في موالة مستمرة؟

وثانيها، أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءاً جزءاً، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ في الأجيال كلها جيلاً بعد جيل، وما يحفظ في الصدور لا يعثره التغيير ولا التبديل، وما يكتب في السطور قد يعثره المحو والتحريف والتصحيف.

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٢.

(٢) محمد أبو زهرة: المعجزة الكبرى للقرآن، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠، ص ٢٢ وما بعدها.

ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ... كان رسول الله ﷺ يحفظ جزءاً جزءاً، وكان حريصاً على أن يحفظه عند نزوله فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه. وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في ذلك ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١).

ونرى من هذا النص حرص النبي ﷺ على أن يحفظ ما يُوحى إليه... فيحرك به لسانه متعجلاً الحفظ، فبينه الله تعالى إلى أنه سبحانه يتولى جمعه والقراءة له، وأنه مبينه وحافظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٢).

وثالثها، ترتيل القرآن بتعليم تلاوته، وإن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريقة ترتيله هي من تعليم الله تعالى، إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه تعالت قدرته وسمت كلماته وعظم بيانه، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمنا، إنما نتبع ما علم الله تعالى نبيّه من ترتيل محكم جاء به التنزيل، وأمر به النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (٣).

وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجماً. فلو أنه نزل جملة واحدة ما تمكن النبي عليه السلام من تعليمه لقومه مرتلاً وهم حملته إلى الأجيال من بعده.

وهناك سبب آخر يراه الشيخ محمد أبو زهرة لنزول القرآن منجماً نلمسه من حال العرب ومن شؤونهم، ذلك أنهم كانوا أمة أمية والكتابة فيهم ليست رائجة، بل يندر فيهم من يعرفها، وأندر منه من يتقنها، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا أنزل جملة واحدة، إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه، وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف.

(١) سورة القيامة، الآيات ١٦ - ١٩.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

(٣) سورة المزمل، الآية ٤.

ونحن نرى أن التفسير الإعلامي لفائدة إنزال القرآن منجماً، أنه كان ينزل لمناسبات وأحداث، فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه، والمبين الأول هو النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

وقد اهتمت الآيات المكية - وهي التي نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة - بالعقيدة، وركزت على عبادة التوحيد باعتبارها العبادة الحققة، ودعت إلى الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد، ثم بينت ضلال الشرك وإثم الكفر وما حاق بالمشركون والكافرين من مختلف العصور من عذاب أليم مريع. وروت قصص الأنبياء وأخبار الأمم الغابرة، ثم حذرت من المحرمات.

أما الآيات المدنية، فيمكن القول إنها في مجموعها تشريع شامل كامل لم يترك صغيرة ولا كبيرة للدولة الإسلامية المثالية كما يريد الله سبحانه وتعالى للبشر. فقد نظمت فيها العلاقات بين الناس، وشرعت لهم النظم والقوانين التي تضمن لهم الحياة الكريمة المتعاونة، وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق داخل الدولة. كما وضعت أسس العلاقات الدولية ونظم الحرب، وروعت فيها حقوق الإنسان حتى العدو في ساحة القتال وبعده، وأحسن مثل على هذا ما جاءت به الآيات الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٢).

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٢) سورة النحل، الآيات ٩٠ - ٩٢.

ولقد أحصى القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن الكريم السور المدنية فقال عن قتادة: «نزل بالمدينة من القرآن... البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، أما بقية القرآن فقد نزلت سورة بمكة في مرحلتي السر والعلن».

ولا ندرى لماذا جعل سورة النحل من السور المدنية مع أنها نزلت في مكة كما تقول المصاحف التي بين أيدينا؟ والمتتبع لأسباب نزول الآيات القرآنية يرى أن كلا منها قد نزل لسبب قوي كان يحتم نزول الآية بذاتها، من ذلك مثلاً قصة المجادلة خولة بنت ثعلب الخزرجية وزوجها أوس بن الصامت التي نزلت الآيات فيها تقول: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(١).

وكان أوس قد حرم زوجته خولة عليه كما حرمت عليه أمه إذ قال لها: «أنت علي كظهر أمي»، وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية لأنه في التحريم أوكد، وفي قطع الصلة أبين، فأسقط في يد خولة وحارت في أمرها، وعز عليها أن تنفصل عن أوس وهو زوجها الحبيب إليها وأبو أولادها، فذهبت إلى الرسول ﷺ تستنجد به ليجد لها مخرجاً.

(١) سورة المجادلة، الآيات ١ - ٤.

وانتظر الرسول أن ينزل الوحي بشيء في أمرها ليقضي لها ولكن الوحي تأخر عليه، فأخذت خولة تلح وهي تبكي وحر الرسول الكريم ماذا يفعل أَوْ يَقُول لها وهو لم يتلق وحياً بشأنها، فقال لها: ما عندي في أمرك شيء، فعادت خولة إلى الرسول شاكية متوسلة راجية أن يرحم حالها، ففتحت لتوسلاتها أبواب السماء وسمع الله شكايتها فغشي الرسول ما كان يغشاه عند نزول الوحي، ثم نطق لسانه بتلك الآيات الكريمة، وهكذا حلت المشكلة وجعل الله للمسلمين وسيلة يتحللون بها من تلك العادة الجاهلية الذميمة.

محمد عليه الصلاة والسلام وبلاغة الاتصال

والداعية الأول والأمثل في الإسلام هو محمد بن عبد الله ﷺ، الذي اختاره الله وأدبه وأعدّه الإعداد الصالح اللازم للدعوة. . فكان مثلاً في الأمانة والشجاعة والصدق وكريم الأخلاق. ويكفي أن الله سبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١). لقد كان خلقه القرآن، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٢).

ولما كان رسول الله ﷺ قد تخلّق بالقرآن، فإن أفعاله كانت تفسيراً له، ولما كان قد انفعّل بالقرآن فإن نطقه كان تعبيراً عنه، وعلى المسلمين جميعاً خاصة رجال الإعلام والدعاة والمشتغلين بالاتصال الجماهيري في الدول الإسلامية كافة، أن ينسجوا على منواله وأن يسيروا على نهجه قدر استطاعتهم، وأن يحاولوا الوصول إلى القمة الشامخة السامقة التي تربع عليها.

وأول ما اشتهر به رسول الله ﷺ هو الصدق والأمانة حتى لقد سُمّي بالصادق الأمين. . وحتى أن أعداءه من المشركين كانوا يشهدون له بالإجماع

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

بهذه الصفات، ويذكر أصحاب الأخبار أن أبا سفيان الذي كان من زعماء الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين «هرقل» ملك الروم عن النبي ﷺ، وقد سأله عن نسبه الكريم قال: «إنه من أوسطنا نسباً». ولما سأله عن أخلاقه ﷺ قال: «لولا أنني أخشى أن يحفظ عني كذبة في العرب لكذبت، ولكنني أقولها ناصعة إنه الصادق الأمين في القول وفي الفعل».

ولما اختلفت قريش ووصل الخلاف بهم إلى حدّ التهديد بسفك الدماء، حكموا بينهم أول داخل من باب المسجد، فلما دخل محمد بن عبدالله صاحوا جميعاً: «هذا هو الصادق الأمين». وقد استطاع بعقله وحكمته وسداد رأيه أن يفضّ النزاع.

وكثيراً ما احتكم إليه المتخاصمون من العرب قبل بعثته ﷺ، وقد روى له «الربيع بن خيثم» كان يتحاكم له رسول الله في الجاهلية قبل البعث، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة ووجهه للعدل وكونه لا ينطق إلا بالحق، ولقد بلغ من إحساسه ﷺ بالعدل والأمانة أنه قام في مرض الموت وقد بلغ به الإعياء أشده وقال: «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري، فليقتد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتد منه، ومن أخذت منه مالاً فليأخذه مني ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللني فليقتد ربي وأنا طيب النفس».

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم ويحض على العدل، وكثيراً ما نبه أصحابه المسلمين إلى العدل وقال: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». وقال: «مَنْ مشى مع ظالم فقد سعى إلى النار». وقال أيضاً: «لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا ولم ينكروا». وقال كذلك: «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ويقول القاضي عياض في فضل عقل الرسول ﷺ وآثاره في الدعوة الإسلامية: «وإنما وفور عقله وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة مع عجب شمائله وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه... لم يمتري في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه». ولقد قال وهب بن منبه: «قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً». وفي رواية أخرى: «فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا».

أما بلاغته ﷺ وبراعته في الاتصال بالجماهير ومقدرته على إقناعهم، فقد كانت مثلاً يُحتذى في هذه النواحي أيضاً، وقد وصف الجاحظ بلاغته فقال: «الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصفة ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميرات حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام حفَّ بالعصمة وشدَّ بالتأييد ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله تعالى المحبة عليه، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإلهام وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يبرز له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتاج إلا بالصدق، ولا يطلب الفخر إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لا يسمع الناس بكلام قط أتم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً،

ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح في معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في وصف كلامه ﷺ: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد الكلام كسردهم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه».

ومما قاله القاضي عياض في وصف بلاغة الرسول وفصاحته ﷺ: «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يحل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان، وقلة تكلف، وأوتي جوامع الكلم، وخص ببذاءع الحكم، وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله تعالى، ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحققه وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد هدف كلامه مع «وطيفة الهندي»، و«قطن بن حارثة العليمي»، و«الأشعث بن قيس» و«وائل بن حجر الكندي» وغيرهم من أقبال «حمير» و«ملوك اليمن»...

ومن الذين وصفوه وصفاً دقيقاً صادقاً «أم معبد» فقد قالت تحدث زوجها عنه: «مرُّ بنا رجل مبارك، ما مسح ضرع الشاة الجاف بيده، حتى تفاجت وردت واشترت، فأتيت له بالإناء فحلب فيه فجة حتى غلبه الشمال، وقد شربت حتى رويت فسقى صاحبيه حتى رويأ وشرب هو آخرهم». وقالت في وصف النبي: «هو رجل ظاهر الوضأة، مبتلع الوجه، حسن الخلق، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي صوته صحل، ليس بالطويل المغط، ولا بالقصير المتردد، ولا بالجعد القطط، ولا السبط، شديد سواد الشعر، في عنقه سطح وفي لحيته كثافة، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صلب، وإذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر، غصن بين غصنين»... الخ.

وإذا كانت نظريات الإعلام الحديثة تؤكد على ضرورة وجود الثقة كاملة بين المصدر والمتلقي، بل إن النتائج التي وصل إليها الباحثون أخيراً في جامعة «ييل» تشير إلى أن أهم مكونات تصديق المصدر تتلخص في ثلاثة أشياء هي: النية والخبرة والثقة... فإن هذه الصفات كانت من أسس الدعوة المحمدية قبل هذا بأربعة عشر قرناً من الزمان، فقد كان ﷺ على خلق عظيم حجب الناس فيه وجعلهم يثقون به ثقة كاملة.

وقد قال عن نفسه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد وجهه الله سبحانه وتعالى إلى أسلوب الدعوة القائمة على الخلق العظيم في قرآنه الحكيم: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

ولقد أحب الناس محمد بن عبد الله وتآلفوا معه، وأقبلوا على دعوته لما اتصف به من حلم وصبر وصفح وعفو عند المقدرة، وليس أدل على ذلك من قصته مع «غورث بن الحارث» حينما تصدَّى ليفتك برسول الله وهو نائم في ظل شجرة وقت القيلولة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه في يد «غورث» وهو يقول: «مَن يمنعك مني؟». فقال عليه السلام بهدوء وإيمان ولسان صادق: «الله!» فسقط السياف من يد «غورث»، فأخذه النبي ﷺ وقال لغورث: «مَن يمنعك مني؟»، قال غورث: «كن خير آخذ»، فتركه وعفا عنه، فدنا قلب الرجل بعد نفوره، وصار داعية لمحمد ﷺ بعد أن كان يريد قتله، وقد ذهب الرجل إلى قومه يحببهم في محمد ﷺ ودينه، فقال لهم: «جئكم من عند خير الناس»، وهكذا حول عفو رسول الله «غورث» من الشر إلى الخير وجعله من خيرة الدعاة لمحمد ودينه بعد أن كان يريد قتله والقضاء على دينه.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

ولقد كان العفو من الصفات التي جمعت القلوب على حب رسول الله ﷺ، وألفت بين النفوس وجعلت الناس يحبونه إلى درجة جعلتهم على استعداد لفدائه بأرواحهم، ولم يخرج على هذا الإجماع إلا مَنْ ركب الشيطان رأسه فطغى وبغى واستكبر، وآثر الضلال على الهدى.

يقول هند بن هالة ربيب رسول الله ﷺ في وصفه: «وإن من أول صفات محمد بن عبد الله ﷺ أنه يخزن لسانه فلا يظهره إلا لخير يرتجيه... فلا يشجع على نفره، بل إنه لا ينطق إلا فيما يعني الذين يخاطبهم ويفيدهم ويكون فيه تأليف لقلوبهم، وتقريب لنفوسهم، وتأنيس غريبتهم، وأمر بإعطاء ذي الحق، ولا يتكلم في مرء، ولا يذم أحداً ولا يكثر في قول خشية سقط اللسان، لا يعيب الحرمات، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمته القول، فإذا تكلم هو كان كلامه فصلاً، وكان قوله حكماً».

ومن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التي كان لها أثرها الكبير في الدعوة الإسلامية، أنه كان يأتلف مع أصحابه، ويوزع محبته بينهم، وكان متواضعاً، فإذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي المجلس، وقد حث أصحابه على ذلك، وإن أرشد ففي رفق يكتفي معه بالإشارة، فإن لم يكف كان التعريض، فإن لم يكف كان التنبيه في تعميم، فإذا رأى بعض الناس سيئاً فلا يواجهه بالإساءة، بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ ومن ذلك ما قاله يوم خرج على الناس بعد قصة الإفك فقال: «أيها الناس... ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي».

ولم يكن ﷺ يذم أحداً مهما كان السبب، بل إنه قد امتنع طول حياته عن الذم إلا أن يضطره الحق اضطراراً فإنه يتكلم بالكناية.

روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة أنها قالت في أخلاق محمد ﷺ: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده

شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه
أسرهما إلا أن يكون إثماً، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك
حرمات الله فينتقم الله عز وجل»...

وقد وصفه أبو هريرة رضي الله عنه فقال: «كان يقبل جميعاً ويدبر
جميعاً - بأبي وأمي - لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق»...

ومن هذا الوصف يتضح لنا أنه ﷺ كان يحسن استقبال الناس فيقبل
على الواحد منهم إقبالاً كاملاً، وإذا تركه فإنه لا يتركه إلا بعد أن يتم حديثه
وينتهي راضياً مستريح النفس؛ وأنه ﷺ لم يكن ينطق فحشاً أو يستعمل ألفاظاً
نايبة، أو يصخب، أو يغاضب، أو يمازح، أو يجادل في الأسواق والأماكن
العامة.

وروى أبو أمامة رضي الله عنه فقال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً
على عصا فقمنا له، فقال: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم
بعضاً». وقال: «إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، أو أجلس كما يجلس
العبد».

وفي حديث لعمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما
أطرت النصارى ابن مريم... إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».
وقال ﷺ: «إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وقد أجمع الرواة على أنه ﷺ كان متواضعاً في غير ذلة، وكانت له هبة
ترهب الكفار والمشركين وتملأ قلوبهم رعباً وهلعاً... وهي للمؤمنين رحمة
تزيدهم إيماناً به وحباً له.

ومما يرويه ابن اسحق أن رجلاً من أراش قدم إلى مكة بليل له،
فاشترها منه أبو الحكم عمرو بن هشام «أبو جهل»، ثم ماظله في الدفع،
فأقبل الأراشي حتى وقف بدار الندوة ورسول الله ﷺ بناحية من المسجد
جالس فقال الأراشي: يا معشر قريش من يؤديني على أبي الحكم، فإني
رجل غريب ابن سبيل وقد غلبني على حقي؟ فقال له أهل ذلك المجلس:

أترى ذلك الرجل الجالس؟ - وأشاروا إلى رسول الله وهم يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه . فأقبل الأراشي على رسول الله وروى له القصة ، فقام معه رسول الله ﷺ . فلما رأوه قام معه قالوا لرجلٍ مَمَّنْ معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع . وخرج رسول الله حتى جاء بيت عمرو بن هشام فضرب عليه بابه ، فقال عمرو بن هشام : من هذا؟ قال الرسول : محمد . . . فاخرج إليَّ . فخرج إليه وما في وجهه من رائحة قد انتقع لونه . فقال له الرسول : اعط هذا الرجل حقه . قال عمرو : نعم . . . لا تبرح حتى أعطيه الذي له . فدخل وعاد بحق الرجل فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله وقال للأراشي : الحقُّ بشأنك ، فأقبل الأراشي حتى وقف على الندوة وقال : جزاء الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي . وجاء من بعده الرجل الذي بعثوا به معه فسألوه عما رأى فقال : عجباً من العجب . . . والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه . وروى لهم ما حدث ، ثم لم يلبث أن جاء عمرو بن هشام فقالوا له : ويلك . . . مال لك؟ واللوات ما رأينا مثل ما صنعت قط . قال : ويحكم ! واللوات ما هو إلا ضرب على بابي وسمعت صوته فملتت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصارته ولا أنيابه لفحل قط . . . واللوات لو أبَيَّتْ لأكلني .

وتروى لأبي جهل قصة مماثلة ، فقد حاول يوماً أن يضرب رسول الله بحجر ضخم أعده لذلك عندما يسجد للصلاة ، ولكنه ما كاد أن يرفع الحجر ويهم باللقائه فوق رأس رسول الله ﷺ حتى انتابه الفزع وألقى بالحجر بعيداً ، ثم أسرع إلى أصحابه وهو يرتعد . فسألوه ما به فروى لهم القصة وقال : «وما أن هممت بإلقاء الحجر حتى وجدت بيني وبين محمد فحلاً بشع الصورة مكشّر عن أنيابه يريد أن يلتهمني ، فنجوت بنفسي» .

ومن الأمور التي تؤكد ما كان لرسول الله ﷺ من هبة ومهابة بين أصحابه وصف الواصفين لمجلسه ، فقد أجمعوا على عظم مهابته وشدة

وقاره، وسمته وقالوا: «إن مجلسه كان يحفه الوقار، لا يتكلم فيه أحد إلا إذا أذن له الرسول في القول، وإذا صمت عليه السلام صمتوا جميعاً في هدوء واطمئنان».

ولهذا عجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشد العجب عندما دخل يوماً إلى رسول الله فوجد بعض النسوة يتسابقن في سؤاله ويتصايحن عليه، وما كدن يرين عمرًا حتى سكتن جميعاً، فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله... ما الذي أضحكك؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «هؤلاء النسوة كن يتصايحن علي، فلما رأيتهن سكتن». فقال عمر: «أي عدوات أنفسهن، أتبهني ولا تهين رسول الله؟» فقالت إحداهن: «ولكنك أفظ وأغلظ». فأسكتها الرسول وقال نافيا الغلظة عن صاحبه: «لا... إن الشيطان لا يسير في فج يسير فيه عمر».

ويروي عمرو بن العاص أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت والملا من قریش جالسون في فئاته، فكلما مر النبي ﷺ غموا بالقول فيبدو ذلك في وجهه. وكرروا ذلك سبعا حتى أتم الطواف. ثم التفت إليهم وقال لهم في قوة المؤمن وهيبته: «يا معشر قریش شأهت الوجوه! وأرغم الله هذا المعاطس! لقد جئتكم بالذبح». أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فما كان منهم أحد إلا كان يقابله بأحسن القول ويقول: «اذهب أبا القاسم موفورا، ما علمنا عليك شراً قط».

وروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: «دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: «زِنْ وارجح». فوثب التاجر إلى يد النبي يقبلها، فجذب يده، وقال: «هذا ما يفعله الأعاجم بملوكهم ولست بملك. إنما أنا رجل منكم». ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها، فقال ﷺ: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

هكذا كان رسول الله من حيث التواضع والوقار والهيبة وهو على نفس الدرجة من الرحمة والشفقة والرأفة... وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزیز بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

سأله أصحابه يوماً قائلين: «يا رسول الله، أكثرت من ذكر الرحمة.. ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا». فقال ﷺ: «ما هذا أريد... إنما أريد الرحمة بالكافة».

ومما يروى عن رحمته عليه السلام أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا، فأعطاه ثم قال له: «أأحسن إليك؟». قال الأعرابي: «ولا أجملت». فغضب الحاضرون من المسلمين وقاموا إلى الرجل. فأشار الرسول لهم أن كفوا... ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابي وزاد شيئا، ثم قال: «أأحسن إليك؟» قال: نعم... فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء. فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك». قال: نعم. فلما كان العشي جاء فقال ﷺ لأصحابه: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي بذلك. قال الأعرابي: نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لها بين يديها فأخذها من قمام الأرض فردها حتى جاءت إليه واستناخت، وشد عليها رحلها واستوى عليها. وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار.

هذه صورة من صور الرحمة عند رسول الله ﷺ، وهي تبين لنا كيف كان رحيماً مع المسلمين رءوفاً بهم حريصاً على صالحهم، وكيف كان قدوة

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

لهم وأسوة حسنة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

وهناك صور أخرى كثيرة تبين كيف أن الرحمة عند رسول الله ﷺ تنبئ عن حكمة الدعوة والإرشاد والهداية إلى الحق. . . تقرب الشارد وتصلحه ولا تعاقبه أو تنفره. وتسوس النفاق وتحوله من الباطل إلى الحق وتضعه على الجادة بدون عنف أو عقاب أو قسوة. وفي ذلك كمال التبليغ للدعوة الإسلامية، وبيان للإعلاميين والدعاة يشرح لهم كيف أن الرحمة وسيلة الوصول إلى النفوس والاستئثار بالقلوب وإقناع العقول.

وتتجلى الرحمة في أرق صورها والطف مشاهدها بين الرسول وأهل بيته. . . بينه وبين أولاده وأحفاده. فقد كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفف في صلاته ليكون بجوار الطفل مَنْ يرحم بكاءه. وقد روت لنا الكتب أن أحد السبطين كان يركب على ظهره وهو ساجد، فكان عليه السلام يطيل السجود حتى لا يزعجه. ويستمر الطفل مرتحلاً ظهر جده الرؤوف الرحيم حتى يتركه.

وعندما أرسلت إليه ابنته زينب الكبرى لتقول إن ولدها يحتضر، أرسل إليها عليه الصلاة والسلام يقول: إن الله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمى فلنحتسب لنعتبر. فأصرت زينب على أن يحضر وأقسمت عليه. فقام ﷺ ومعه مَنْ بحضرته من الصحابة، فلما رأى الطفل حمله ثم وضعه في حجره ونفس الطفل يخرج، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام. فقال له سعد بن أبي وقاص «ما هذا يا رسول الله؟» قال: هذه رحمة وضعها الله في قلوب مَنْ شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»

وكما كان ﷺ رحيماً بالأبناء كان رحيماً بالأبء كذلك، والعلاقة بين الأبء والأبناء في الرسالة المحمدية تأخذ وضعاً سامياً رفيعاً. . . وقد بلغ من

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

تقدير القرآن لقوة هذه العلاقة أن قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١).

ولم يسمح الإسلام للابن بأن يعق أبويه حتى ولو كانا مشركين، ولكنه أباح للابن ألا يطيع أبويه في الشرك دون أن يهدر حقهما عليه، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفًا.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٢).

وقد قدم الرسول ﷺ برَّ الوالدين على الجهاد في سبيل الله . جاء إليه رجل فقال: جئت أبايعك على الهجرة وترك أبي يبيكان . فقال ﷺ : ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما .

وجاءه صحابي يسأل الإذن في الجهاد، فسأله الرسول: ألك أبوان؟، قال: نعم . قال: ففيهما فجاهد . وحدث الصحابي معاوية بن جاهمة السلمي، قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني كنت أردت الجهاد معك ابتغي وجه الله والدار الآخرة . قال: ويحك أحية أمك؟ قلت: نعم، قال: ارجع فبرها . ثم أتيت من الجانب الآخر فقلت: يا رسول الله . . إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة . قال: ويحك أحية أمك؟، قلت: نعم يا رسول الله . قال: فارجع إليها فبرها، ثم أتيت من أمامه وأعدت ما قلت . . . فقال: ويحك الزم رجلها فشم الجنة .

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٢) سورة لقمان، الآيتان ١٤ و ١٥ .

وعن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال: هما جنتك ونارك.

وإذا كنا فيما تقدم قد تحدثنا عن الرحمة وصلة الرحم وعن الصلة بينهما وبين مفهوم الاتصال، فإن الإعلام الإسلامي يحرص على أن تكون الرحمة بجميع أشكالها وصورها إحدى وسائله وأساليبه في الاتصال بالجماهير. وكذلك العفو والتسامح وهما صفتان من صفات رسول الله ﷺ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهما في قوله الكريم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١). وفي قوله أيضاً: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢).

وقال أنس بن مالك: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذاً شديداً حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ فإذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال الأعرابي: يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر له بعتاء.

ولو كان أحد رجال قريش في مكان رسول الله ﷺ وقام هذا الأعرابي بهذا العمل معه لضربه فشده أو قتله، ولكن سماحة الرسول الكريم أبى أن يفعل ذلك فالتفت إليه وضحك وكأن شيئاً لم يحدث، بل القارئ لهذه القصة قد يرى أن الرسول قد ضحك لكي يخفف من وقع هذا التصرف الغليظ على صاحبه وعلى من يشهدون الواقعة.

وروي أنه لما كذبت قريش دعوة الإسلام وبالغت في الإساءة إلى النبي وإيذائه، حتى أنه لجأ إلى ثقيف بالطائف يرجو أن يجد النصرة عندهم، فما

(١) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٤.

كان منهم إلا أن أغروا سفهاءهم به فطاردوه وضربوه بالحجارة، فاشتكى إلى الله سبحانه وتعالى ما يجد منهم وقال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداه ملك الجبال وقال: «مُرني بما شئت. . إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». قال النبي ونفسه تقطر رحمة وسماحة: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وعن السماحة والعفو عند رسول الله تحدثنا القصة التالية وقد وقعت يوم الفتح الأبلج - فتح مكة - فقد طلب الرسول الكريم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وهو يقول: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته فخذوها بأمانة الله عز وجل». وابتسم الرسول الكريم لعثمان ابتسامة ذات معنى، فأطرق عثمان في خجل وكان لذلك قصة. فقد كان الرسول ﷺ قد قال لعثمان يوماً وهو يدعوه للإسلام: «ولعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت». فقال له عثمان يوماً: «قد هلك قريش وذلت». فأجابه الرسول الكريم عليه أذكى الصلاة والسلام: «بل عزت وعمرت يومئذ يا عثمان».

هكذا عفا رسول الله عن عثمان وسامحه في لحظة كان فيها هو المنتصر الذي بيده أن يمنع ويمنع، وكان فيها يستطيع أن يفعل بعثمان ما يشاء، ولكنه رسول الله ونبيه الكريم الذي جبل على مكارم الأخلاق.

وفي نفس اليوم - يوم الفتح - بعد الخطبة، التفت رسول الله ﷺ إلى

الذين عادوه وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما في طاقتهم لكي يقضوا عليه وعلى دعوته، وقال لهم: «ما ترون أنني فاعل بكم؟». قالوا وهم يرتعدون: «خيراً.. أخ كريم وابن أخ كريم». فقال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». فذهل القوم وتسابقوا إلى الدخول في الإسلام وباتت مكة ليلتها وقد رفرف عليها الإيمان.

نستخلص من هذه القصص التي تؤكد ما كان عليه رسول الله من عفو وسماحة، أن الداعية الإسلامي يجب أن يطهر نفسه من كل حقد وغلٍّ، حتى ولو كان لمقابلة إساءة قديمة بمثلها، أو الانتقام لموقف سبق أن تعرّض له على يد أحد الذين يدعوههم. وأن يطهر نفسه أيضاً من الأنانية والأثرة، ولن يكون له ذلك إلا الفناء في دعوته، ولقد قالت عائشة رضي الله عنها في هذا المعنى: «إن النبي ﷺ لا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح».

ومن الصفات التي زانها رسول الله ﷺ صفة الحياء، وقد قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها». وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء: «كان النبي ﷺ أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات إغضاء».

وقد تمثل القاضي عياض بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ﴾^(١)، وقد نزلت هذه الآية لأن بعض أصحابه كانوا يستغلون كرمه الشديد وحياءه الشديد أيضاً، فكانوا يجلسون في بيته فيتناولون الطعام ويأخذون في الحديث مما يؤدي إلى اضطراب في بيته وإقلاق لراحة أهله، ولم يكن النبي لفرط حيائه يأمرهم بالكف عن ذلك أو يطلب إليهم الخروج، فتولى الله تعالى ذلك عنه وعلم المؤمنين الأدب في هذا المقام، وأعطى رسوله من هذه المهمة التي تجعله يخرج عن طبيعته في الحياة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوهَا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِهِ
مِنَ الْحَقِّ»^(١).

جاء في كتاب الشيخ محمد أبو زهرة سؤال حول صلة الحياة والشمائل
النبية بدعوة الرسول ﷺ وتبليغ الرسالة، وهو سؤال يرتبط بالإعلام الإسلامي
بوجه عام:

يقول: «إن خلق الداعي يجذب إلى موضوع الدعوة، فلو كان الداعي
فحاشاً، أو صخاباً، أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته، لنفر منه الناس
وما استجاب له إلا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة بمقدار
ما يهمهم ليها».

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ويوجهها نحو الحق، فإن الحياء
أشد الأخلاق اجتذاباً للنفوس، فإن الحياء يجعل صاحبه لا يفاجئ الناس بما
لا يسرهم بل يجيء إليهم من جانب ما يألفون فلا تتشعب عن الحق، وإن
عنف الداعي وتفحش قوله يعوق دعوته ويكون استثقاله مؤذياً إلى رده، وإذا
كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف، وقوة في الحق، وصل إليه في
مداخل سهلة لينة، ولقد قال في وصفه علي بن أبي طالب: «كان أوسع
الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة». ولقد
كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف والمعشر مع الحياة والاستمساك بالحق
مزيجاً من أخلاق كريمة جعله لا يترك التنبيه إلى الحق في رفق، وجعله يصل
إلى ما يريد من إيغاله في القلوب.

وقد ذكر ابن عباس صفات رسول الله ﷺ فقال: «كان أجود الناس
بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير
من الريح المرسلة».

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

ولقد قالت له خديجة رضي الله عنها: «أبشر يا ابن العم واثبت، فوالله الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً. . إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقوي الضعيف، وتعين على نوائب الحق».

وقد عرف عن النبي ﷺ أنه ما كان يرد أحداً، وأنه كان يجود بالموجود كله، وقد ذكر أن رجلاً جاءه يسأله حاجة، فقال: «ما عندي شيء، ولكن اتبع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه».

ولقد قال عمر رضي الله عنه وقد رأى الرسول الكريم يتحمل ثمن البيعات ليؤديه إذا لم يكن معه، فقال له: «ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه». فكره عليه الصلاة والسلام من صاحبه ذلك لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التي فطره الله عليها، وقد لاحظ أنصاري كان في حضرة الرسول وصاحبه فقال: «يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا». فتبسم رسول الله ﷺ، وعرف البشر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت».

والمعروف أنه كان يأمر بلالاً قائلاً: «انفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا».

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما من يوم يصبح إلا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا».

والمطلع على السيرة النبوية يجد أن من شمائل الرسول ﷺ الوفاء بالعهد ورعايته، وأوضح مثل على ذلك وفاؤه بأُم المؤمنين خديجة إلى درجة جعلت عائشة رضي الله عنها تغار من كثرة ذكره لها وبره لمن كان على صلة بها، فقالت: «هل كانت إلا عجوزاً بدّلك الله خيراً منها». فقال: «والله ما أبدلني خيراً منها. آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بماله إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

ومن ذلك بره بحليمة السعدية وأولادها، وبره بأُم أيمن التي كان يقول عنها: «هي أُمي بعد أُمي».

ولما كانت الشجاعة إحدى الصفات التي يتحتم وجودها في الداعية بصفة خاصة، ورجل الاتصال بصفة عامة، فإنها كانت في أعظم صورها إحدى صفات الرسول ﷺ. ولم تكن شجاعة حسية فحسب وإنما اجتمعت عنده ﷺ الشجاعة الحسية مقترنة بالشجاعة المعنوية، وسلامة التصرف وسداد الرأي والإقدام حيث يتحتم الإقدام، والمبادرة حيث تكون إحدى الضرورات التي يفرضها الموقف.

وليس أدل على ذلك من تصرفاته قبل البعث حيث كان لا يحفل بأصنام القوم ولا يسجد لها ولا يعترف بها، وهو يعلم خطر ذلك عليه، وأنهم جميعاً يفرضون احترامها وتبجيلها. ولم يكن ﷺ يحلف بها، ويُروى أنه في إحدى رحلاته اختلف مع البائع على الثمن، فطلب منه البائع أن يحلف باللات والعزى فرفض.

وعندما اشتد الخلاف بين القبائل القرشية، وأصرت كل واحدة منها أن تستأثر بشرف وضع الحجر الأسود إلى مكانه من جسد الكعبة، واشتعلت الخصومة وتطايير الشرر ينذر باقتراب حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس، وبقيت قريش أربع ليال والخطر يتهدها، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر، وحاول العقلاء والكبار من رجالات قريش أن يحسموا الأمر قائلين: «إن رفع الحجر لم يكن ضمن الاقتراع عند البناء، وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد». ولكن محاولتهم كلها راحت عبثاً إذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده، وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم: «يا عبد الدار هذه جفتنا قد امتلأت بالدماء، فتعالوا وغمسوا أيديكم فيه ولنتعاقد على الموت إن فاتنا شرف وضع الحجر الأسود مكانه». وجاء بنو عبد مناف وقالوا: «لن يفوتنا هذا الشرف، الموت لنا إن فاتنا». وصاح بنو أسد: «ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدي نعلن أن هذا الشرف لن يستأثر به

غيرنا إلا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطون الوحوش في الجبال».

وهنا تقدم منهم أبو حذيفة المخزومي وقال: «كفى يا معشر قريش. لقد أردنا البر ولم نرد الشر! فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فإن فعلتم تشتت أموركم وطمع فيكم غيركم، حَكِّمُوا بينكم أول من يدخل من هذا الباب فيفصل في خلافكم، فوافقت القبائل كلها على ذلك وتعلقت أعينهم بالباب الذي أشار إليه أبو حذيفة، تتربقب الداخل المجهول للحكم بينهم ويفض خلافهم، وإنهم لكذلك إذ يدخل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فهتفوا جميعاً: «هذا الأمين... هذا محمد بن عبد الله الهاشمي، قد رضىنا بحكمه»، وأقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم فطلب ثوباً ثم وضع الحجر بيده الكريمة فيه، وقال ﷺ: «ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل». فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة وفي الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود، وفي الربع الثالث العاص بن وائل، وفي الربع الرابع أبو حذيفة المخزومي نفسه. ثم قال ﷺ: «ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً». ثم ارتقى ﷺ على الجدار ورفع القوم له الركن، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة في مكانه.. وهكذا حلت المشكلة العويصة وحقنت دماء قريش.

قبل رسول الله ﷺ الحكم في هذا الخلاف المستحکم المشتعل بشجاعة، ولم يجفل أو يتردد مع علمه أن هذه القبائل قد جبلت على المشاكسة وحب السيطرة والاستئثار، وأن إرضاءهم جميعاً أمرٌ من الأمور التي تكاد تكون مستحيلة، ولكنه أقدم وحكم بشجاعة، فكان أن وفقه الله وجعلهم جميعاً يرضون عن حكمه.

وبعد أن بعثه الله تعالى بدعوة التوحيد تجلت شجاعته في المجالين - المعنوي والحسي - في معارك الرأي ومعارك السيف.

عن علي رضي الله عنه قال: «لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ

وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً^(١).

وعنه أيضاً قال: «كنا إذا حمي البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»^(٢).

وعن سعد بن عياض الشمالي قال: «كان رسول الله ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً».

وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره ثارت حرب اشتركت فيها قريش وهي حرب الفجار، فإذا هو يصحب الجيش المحارب ويقف على خط القتال ويخوض أول معركة من المعارك الحربية، وكانوا قد حددوا له دوره في المعركة وهو أن ينبل على أعمامه - أي يمدهم بالنبال - ولكن ما أن بدأت المعركة وحمي وطيسها حتى جاوز هذه المهمة وأخذ يرمي بالسهم والنبل.

لقد غلبته شجاعته ودفعته إلى أن يكون مقاتلاً على الرغم من عوده الأخضر وسنه الصغيرة.

وهو الذي حدث فيما بعد بقوله: «ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، فإنهن من الحق... ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها».

وليس من شك في أن هذه الأمثلة - وغيرها كثير - للشجاعة النادرة تتيح صاحبها أن يبلغ الدعوة وأن يؤدي الرسالة غير هياب ولا وجل ولا متردد.

ولقد فرض الجهاد في الإسلام بهدف تبليغ الدعوة، وكان ذلك بعد أن حاول الرسول بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد أن جادلهم بالتي هي أحسن ولم يبق إلا أن يستعمل السيف.

(١)، (٢) الحافظ أبو محمد عبدالله لأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩ هـ، كتاب أخلاق النبي ﷺ وآدابه (مخطوط) حققه: حسن محمد مرسي وراجعه محمد عبدالرحمن عثمان، القاهرة، مؤسسة الأهرام، ١٤٠١ هـ.

يقول الدكتور إبراهيم إمام : «الأصل في الجهاد أنه يمهّد الطريق لحرية الإعلام الإسلامي، ويتيح الفرصة أمام رجاله كي يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأنه بعث رحمة للعالمين في وقت كان العالم فيه يئن تحت نير الظلم والتعسف والطغيان، وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض الطاعة المطلقة لكل طاغية، غير أن تبليغ الرسالة والإعلام بالدين الحق أسمى واجبات المسلمين مهما كانت العقبات التي تكتنف الطريق، ومهما كانت الصعوبات التي تواجه المؤمنين. وقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأنه يعصمه من الناس في سبيل الدعوة إلى الحق ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

وقد نشط الطغاة والأباطرة للقضاء على دعوة الإسلام ورسوله، فأرسل كسرى من يقتل النبي ﷺ وقتل العديد من المؤمنين، وقد حاول بعض اليهود أن يقتلوا الرسول وأصحابه وحاولوا أن يفتنوه وأن يسحروه، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعاً.

ولقد كان الجهاد في وقت من الأوقات هو الوسيلة الوحيدة لتعبيد الطريق وتمهيد أمام الإعلام الإسلامي، وتهيئة المناخ اللازم لإبلاغ العباد كلمة الله العليا ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

فالمسلمون يجاهدون بالسيف لرفع كلمة الله، ويقاتلون لإزاحة العقبات عن الطريق للدعوة إلى سبيله. وهم يؤمنون بأن حرية الإعلام هي القاعدة الأساسية التي يختار على هذيتها الإنسان دين الحق. فليس القتال لإزهاق الأرواح وإنما رغبة لإشاعة جو الدعوة إلى التوحيد، وإعلام الناس بحقائق الدين القائم على الحق والحرية والعدل والإيمان بالواحد الأحد ﴿كُتِبَ

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾.

فالإعلام الإسلامي ضرورة حتمية لكمال الرسالة حتى تصل حقائق الإسلام إلى كل إنسان، فإذا كفر فقد كفر عن بيته وبذلك يتحقق قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١).

ولا يتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ، وحمله الدعوة والإعلاميون والمرشدون والمفسرون كما حمله الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد أوصى الرسول من بعده بأن يخلفوه في حمله... وهذه رسالة الإعلام الإسلامي... فلقد خاطب النبي عليه الصلاة والسلام مَنْ عاصروه من العرب وَمَنْ جاورهم من دول أخرى، وكان من أسس الدعوة مطالبة الأجيال كلها في مشارق الأرض ومغاربها بالافتداء بمنهج الرسول الكريم من أجل الإنسانية كلها.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢).

فالإعلام الإسلامي مهمة مستمرة دائمة في كل زمان وفي كل مكان، لذلك كان هذا التكليف موجهاً إلى الأمة الإسلامية جميعاً.

وقد اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية، وكان ذلك الاتفاق إجماعاً انعقد في عهد الصحابة وفي عهد التابعين رضي الله عنهم، والإجماع لا ينقضي بتخلي المسلمين عنه أو عدم القيام به.

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

الأشكال الاتصالية في الأدب الإسلامي

اتسمت الأشكال الاتصالية في صدر الدعوة الإسلامية بالطابع الشخصي والجمعي والحضاري، وقد تحدثنا عن رسول الله ﷺ كداعية أمثل في إطار نظرية الوحي التي تمثل نظرية متكاملة للاتصال، وسوف نتحدث هنا عن الاتصال الشخصي الذي يتحقق في الجماعات الأولية التي يرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ويتم فيها الاتصال بالمواجهة - سرية كانت أو علنية -.

الاتصال الشخصي في الأدب الإسلامي

ذلك أن الرسول ﷺ لم يجهر بالدعوة إلا بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه، ثلاث سنوات تمثل المرحلة السرية في الاتصال الشخصي بعد نزول الوحي... إذ قال عز وجل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، وقال جل جلاله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ومن ذلك يتضح أن هاتين المرحلتين السرية والعلنية، كانتا تستندان

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٢) سورة الشعراء الأيتان ٢١٤ و ٢١٥.

إلى الاتصال الشخصي الذي يكون بطبيعته بين أفراد العشيرة والأقربين من الأهل والصحاب.

فقد اعتمد رسول الله ﷺ في الاتصال الشخصي بمن يثق ويسطمئن إليهم، كزوجته خديجة رضي الله عنها، وابن عمه عليّ كرم الله وجهه، وصديقه أبي بكر، ومولاه زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبد الله، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وغيرهم من الأبرار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ولقد كان الاتصال يتم خفية وبعيداً عن أعين المشركين من قريش، وظل كذلك سنوات ثلاثاً أثمرت فيها الدعوة غرسها، وأصبح حول رسول الله واحد وخمسون مسلماً يمثلون أوائل الدعاة في الإسلام وللإسلام، وهم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١).

وقد تضمنت المرحلة السرية هذه صفحات مشرقة لكل واحد من هؤلاء، فأول من أسلم كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، وقد احتضنت الدعوة في بدايتها منذ هبط الوحي على النبي ﷺ، وكلنا يعرف موقفها حينما جاءها وهو يرتجف فطمأنته، ثم آمنت به وصدقت بما جاءه من عند الله، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، وقد أرسل إليها سبحانه وتعالى تخية طيبة مباركة من السماء، فقد أمر نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأنه عز وجل يقرئها الإسلام وأن لها بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

أما عليّ بن أبي طالب فكان في حجر الرسول ﷺ قبل الإسلام، ويذكر هشام أن رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج

(١) سورة الواقعة، الآيتان ١٠ و ١١.

معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، وقد عثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فأجابه ﷺ: «أي عم.. هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسوله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ - بعثني الله به رسولاً إلى العباد.. وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه» فقال أبو طالب: «أي ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت».

وقال ابن هشام إن أبا طالب قال لابنه علي: «أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟» فأجابه: «يا أبتي، آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته»، فقال أبو طالب: «أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه».

وأما زيد بن حارثة فقد أسلم كذلك فور نزول الوحي على الرسول ﷺ وصلى معه، يقول ابن هشام إن زيدا كان رقيقاً على عادة الجاهلية اشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه لعمته خديجة رضي الله عنها فوهبته بدورها إلى زوجها قبل البعث، فأعتقه ﷺ وتبناه إلى أن أنزل الله عز وجل ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾^(١)، وقد بلغ من حب رسول الله لزيد أن ناداه الناس بـ «حبيب رسول الله»، وقد دخل زيد في الإسلام فور دعوة رسول الله له، فكان من الأوائل الذين صدقوا به وآمنوا معه.

وكان أبو بكر بن قحافة التيمي صديقاً حميماً لمحمد ﷺ وكان يقدر أمانته ونزاهته وصدقه ووجهه للعدل والحق، وكان رسول الله يبادلُه الحب

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥.

والتقدير ويعتز بصداقته ويفضي إليه بأسراره، ولذلك كان أبو بكر أول من تلقى تفاصيل الوحي من رسول الله ﷺ.

ولم يتردد أبو بكر لحظة واحدة في التصديق والدخول إلى الدين الحق، وقد أعلن إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وقد استجاب الكثيرون إلى الإسلام بدعوته لأنه كما يقول ابن هشام كان «رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بقريش وما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يفتدون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر. . لعلمه وتجارته وحسن مجالسته - فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه ممن يفتشاه ويجلس إليه».

أما الاتصال الشخصي في المرحلة العلنية فقد توسل بالقرآن الكريم والقدوة الحسنة، إلى جانب الأحاديث النبوية الشريفة.

يقول الرواة: إن النبي ﷺ بعد أن أمر بالجهر وإنذار عشيرته الأقربين وخفض جناحه للمؤمنين، جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحزمة والعباس وأبولهب، فقدم لهم طعاماً صنعهم لهم ثم قال: «خذوا باسم الله»، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجة، ثم أراد رسول الله أن يكلمهم فبادره أبولهب إلى الكلام فتفرق القوم ولم يكلمهم، وفي اليوم التالي أمر علياً فصنع لهم طعاماً ودعاهم إلى المائدة مرة أخرى، فحضرُوا وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً، ثم تكلم رسول الله فقال: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم رجلاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه»، ويقول الطبري: «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فاجتمعت قريش فقالوا: ما لك؟ قال ﷺ، رأيتم إن أخبركم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبولهب، تباً لك. . ألهذا دعوتنا وجمعتنا؟

فأنزل الله عز وجل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾^(١).

وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد توسل بكل الوسائل التي تحقق أهداف الاتصال الشخصي، فقد دعا قومه إلى طعامه مرتين، وأقام لهم حفلاً وتحدث إليهم بلطف ولين، ولم يكن فظاً غليظ القلب، ثم قدم لحديثه بأسئلة يعرف إجابتها مقدماً، وذلك ليستدرج القوم لما يريد ويمهد للأمر في نفوسهم.

ولولا معارضة أبي لهب له لانصاع الناس وآمنوا جميعاً به، ولكن هذه المعارضة في حد ذاتها جاءت لتؤكد أن الأمر ليس أمراً عائلياً أو عصبية أسرة أو إجماع قبيلة تريد أن تسود وأن يكون لهذا الأمر الدنيوي، ولكنها رسالة رب العالمين إلى الناس كافة.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)، وقف وقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً». يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنت رسول الله سأليني ما شئت من مال لا أغني عنك من الله شيئاً، وهذا الحديث يخرج على شرط البخاري، وروى مثله الإمام أحمد في مسنده.

ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير: «لما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق ذرعاً فجلس في بيته كالمريض، فأتته عماته يعدنه فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي، فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك، فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين، فبادرهم أبو لهب فقال: هؤلاء عمومتك وبني عمك، فتكلم ودع

(١) سورة المسد، الآية ١.

(٢) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

الصباء، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك فحبسك.. وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يشب بك بطون قريش وغيرهم من العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جثتهم به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في هذا المجلس.

وكان رسول الله ﷺ حكيماً غاية الحكمة، مدركاً تمام الإدراك لأبعاد الموقف الاتصالي وما تمثله معارضة أبي لهب من معوقات اتصالية أمام الدعوة الجديدة، لهذا بادر بالصمت وأرجأ الحديث إلى مجال آخر لا يكون فيه الجو الذي شحنه أبو لهب بالمعارضة.

فلما اتاحت له الفرصة وتبهاً له المجال الاتصالي المناسب، قال ﷺ: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأثق به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ثم قال «إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعلمون، وإنها للجنة أبدأ أو للنار أبدأ».

ولقد أفحم أبو لهب بهذا القول فلم ينطق بحرف، وتكلم أبو طالب فقال: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعين وإنما أنا أحدهم، غير أنني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأنفعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب، وهنا استفز أبو لهب فقال: هذه واللات السوءة.. خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم، فأجابه أبو طالب بإصرار: والله لنمنعه ما بقينا.

وتعتبر الأحاديث النبوية الشريفة الدعامة الثانية للإعلام الإسلامي بعد القرآن الكريم، ذلك أن القاعدة الأساسية في نظرية الإعلام الإسلامي تقوم على أساس من الثبات في الأصول والتطور في الفروع.

الأحاديث النبوية الشريفة في الاتصال الشخصي والجمعي والحضاري

والأحاديث النبوية الشريفة تمثل بطبيعتها وسيلة من أهم وسائل الإعلام الإسلامي ذلك أن «الحديث» من حيث المعنى هو أداة اتصالية، فقد كان لكلمة الحديث معنى عام هو الخير أو المحادثة - دينية كانت أم غير دينية - ثم أصبح لها معنى خاص هو ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل يروى عنه .

وتأسيساً على هذا الفهم فإن الحديث أصبح يطلق عند المسلمين على ما يروى عن الرسول، ويطلق على العلم الخاص به علم الحديث .

أولاً: طابع التعليم والتوجيه والإرشاد .

ثانياً: طابع الإعلام والدعوة والتبليغ .

وهذان الطابعان يمثلان الوظائف الأساسية للإعلام بوجه عام، وللإعلام الإسلامي بوجه خاص .

ومن أحاديث الرسول ﷺ جميعاً نجد تحقيقاً لهذه الوظائف سواء أكانت تستهدف التنشئة الاجتماعية أو التوجيه أو الهداية على النحو المستفاد من الدلالة التي ترتبط بلفظ السنة ذاته، والتي كان المقصود بها عند العرب «النهج القديم المأثور الذي يعتاده المرء في كافة المعاملات»، وهذا اللفظ كان له احترامه عند الجاهليين الذين يعتبرون السنة فضيلة من الفضائل .

ولما جاء الإسلام، كان في جوهره ثورة على السنن الجاهلية وما يرتبط بها من وثنية وعادات سيئة وتقاليد ضارة بالمجتمع، وقد استبدل الإسلام سنن الجاهلية وعاداتها وتقاليدها بسنن قوية وعادات سليمة وتقاليد مفيدة يتوسمها المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان، ذلك أن الدرس المستفاد من الأحاديث النبوية، إلى جانب ما أوضحه القرآن الكريم حول الدعوة والتبليغ أن الإعلام الإسلامي إنما هو فريضة واجبة يتوجّه بها إلى العالم كله، لا إلى

أمة بعينها، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «نصرت بالرعب عن مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث لقومه خاصة وبعث للناس عامة»^(١).

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في أصول الإعلام الإسلامي، إذ قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(٢)، فأصبح الواجب إذن على القائمين بالإعلام الإسلامي أن يتخذوا من شخصية الرسول وخلفه، وشخصيات الصحابة وخلفهم مثلاً علياً يترسمونها ويحتلون خطواتها في أداء رسالتهم الخالدة العامة.

وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، قد بذلوا كل ما في طاقتهم في سبيل جمع أحاديث الرسول وأخباره نبزاً للإعلام الإسلامي في كل العصور، فإن هذه الأحاديث والأخبار ذاتها كانت في حينها تمثل رسالة إعلامية مباشرة للقوم الذين تخاطبهم، وقد استمرت فعاليتها إلى يومنا هذا، وسوف تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وينقسم الحديث إلى: حديث إلهي وهو الحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل، وحديث نبوي وهو ما تحدث به رسول الله وما روي عنه ﷺ.

وهذان النوعان من الحديث يمثلان الرسالة الإعلامية المفسرة للقرآن الكريم، وقد توسل بها الرسول ﷺ في كل مراحل الدعوة الإسلامية، وقد طبعت بطابع الاتصال الشخصي الشفهي الذي يؤكد علماء الإعلام أنه ناجح في الاقناع، لأنه يتلافى سلبيات الإعلام الأخرى وخاصة مقاومة المستقبل

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

التي تضعف بدورها تأثير الإعلام، فالاتصال الشفهي يتسم بالحوار والاقناع وتبادل الأفكار، ودحض الحجج والبراهين، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج ما يجعل المستقبل يؤمن تأمناً قليلاً على الرسالة التي تلقاها، بل إنه يصبح في أغلب الأحوال داعية لنفس الرسالة بين جماهير أخرى لا يلبث بعضهم أن يتحول بدوره إلى دعاة كذلك، وهكذا تدور الدورة الاتصالية في الإعلام الإسلامي.

لذلك لم يكن غريباً أن يتوسل الرسول ﷺ بالاتصال الشخصي في مراحل الدعوة المختلفة وتبليغ رسالة ربه إلى الناس، ولقد نجح ﷺ نجاحاً باهراً منجزاً شداً انتباه غير المسلمين وكل من تصدى لدراسة حياته والكتابة عنه، وتقول دائرة المعارف البريطانية في مادة قرآن: «جاء محمد بدعوة جديدة هي دعوة الإسلام، وكان هذا الرسول أفضل الأنبياء والشخصيات الدينية وأكثرهم حظاً من النجاح، فقد أنجز في عشرين عاماً من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين - يهوداً أو نصارى - الذين كانت تؤيدهم السلطة الزمنية، ورغم أنه كان أمام ذلك الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ومعاقرة الخمر واضطهاد الضعفاء والحروب والمنازعات بين القبائل العربية، ومئات الشرور والآثام الأخرى».

وهذا التأكيد من دائرة المعارف البريطانية الذي نقلناه بنصه يوضح ما نعينه بنجاح الاتصال الشخصي في دعوة الرسول ﷺ، في مراحلها التي أشرنا إليها.

الاتصال الشخصي بالقبائل العربية

ومن وسائل الاتصال التي لجأ إليها الرسول ﷺ لتبليغ دعوة الإسلام، عَرَضُ نفسه على القبائل العربية الوافدة إلى مكة للحج أو العمرة أو التجارة، كما كان يحرص على حضور الأسواق خاصة في المواسم والأعياد ويروى أنه ﷺ كان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان إني

رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشرکوا به شيئاً، وأن تخلصوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتتبعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به».

وكثيراً ما كان أبو لهب يحرك العوامل الوسطية عند هذه القبائل بأن يتبع ابن أخيه فيقول معقّباً على قوله ﷺ: «يا بني فلان.. إن هذا إنما يدعوكم أن تسلكوا اللات والعزى عن أعناقكم، وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه».

العوامل الوسيطة ومقاومة المضمون الاتصالي

وإذا كان علماء الإعلام في عصرنا هذا يقولون إن الاتصال قد ينجح مرة وقد يفشل أخرى أو يحقق عكس المطلوب منه، فإننا نستطيع أن نستقرئ هذا من المواقف التي عرض فيها الرسول ﷺ نفسه على القبائل، وما لقيه من نجاح أو فشل بسبب محاولات أبي لهب المضادة والتي كانت تثير العوامل الوسيطة في النفوس وتستهيئها استهواءً عكسياً، ولم تكن المقاومة قاصرة على أبي لهب، بل كانت تشمل الكثير من سادة قريش وأصحاب الرأي والجاه والمال فيها من الذين غلبت عليهم الضلالة فلا يتبعون الحق لذات الحق، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين عميت قلوبهم وكان على إدراكهم غشاوة.

يقول ابن كثير إن رسول الله ﷺ: «استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك شرع سواء، وتسلبط عليه وعلى من اتبعه من أحد الناس من ضعفائهم، الأشداء الأقوياء».

وكان أشدهم قوة بعد أبي لهب أبو جهل عمرو بن هشام المعروف بأبي الحكم، والذي كان فاجراً في القول والعمل، ولم يدخل في الإسلام وسعى

في مقاومة الدعوة واضطهاد كل من آمن بها خاصة الضعفاء ومن لا حول لهم ولا قوة. أما أبو لهب فهو كما تقدم فقد اختار لنفسه موقعا يناوئ منه الدعوة الإسلامية، وقد يكون سادة قريش هم الذين وضعوه في هذا الموقع استغلالاً منهم للصلة الفعالة بينه وبين ابن أخيه، مما يجعله مصدر ثقة، وعاملاً من العوامل الوسيطة الفعالة في مقاومة النبي ﷺ، وإضعاف حجته وإصابته بالإحباط وإيلامه في نفسه، لأن الظلم هنا يقع من أقرب المقربين إليه، وهو الذي يفترض فيه أن يكون أول المؤيدين والمساندين لدعوته.

قال ابن اسحاق: «كان رسول الله ﷺ كلما اجتمع له الناس بالموسم، اتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده».

وقد لقي رسول الله قوماً من الخزرج في أحد المواسم عند العقبة، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال لبعض: يا قوم.. تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بهم، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجنبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

وكانت هذه بداية نجاح الاتصال الشخصي بين رسول الله ﷺ، وانتصاره على مقاومة العوامل الوسيطة التي أزكاها أبو لهب وغيره من أشباهه.

وإذا كان لفظ الجمع في اللغة العربية يعني تأليف المتفرق، فإن الاتصال الجمعي كما يذهب إلى ذلك علماء الإعلام يكتسب من هذه الدلالة

اللغوية خصائصه ومفهومه من حيث اعتماده على التفاعل المباشر بين الجماعة والداعية أو المرسل .

الاتصال الجمعي

ولما كان الإسلام هو الدين القائم على جمع الناس تحت راية واحدة لا إله إلا الله ، وتوحيد صفوفهم وبت التواد والتراحم والتآزر والتضامن في نفوسهم ، كان الاتصال الجمعي من أهم مميزات الإعلام الإسلامي .

قال تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

وقال سبحانه : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢).

وقال عز شأنه : ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

وقال جل جلاله : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^(٤).

هذه الآيات وغيرها تؤكد على أهمية الاتصال الجمعي في الإعلام الإسلامي لما تتضمنه من التأكيد على الإلفة والاجتماع على كلمة الحق ، والتسليم لأمر الله والاعتصام بحبله سبحانه ، وهو الذي يقول عنه المفسرون إنه السبب الموصول إلى البقية والحاجة ، ولذلك سمي الأمان حبلاً لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر ، كما كره الله الفرقة وحذر المسلمين منها ونهاهم عنها .

وقال رسول الله ﷺ : «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة» .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ٢٦ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ١٥ .

قيل: يا رسول الله وما هذه الواحدة؟ قبض يده وقال: الجماعة، ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

ولقد شرع الإسلام صلاة الجماعة في المساجد لحكمة بالغة هي التأليف بين قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتحقيق المساواة بينهم، والتمرس على المشاركة العملية والوجدانية، والتدريب على العمل تحت قيادة واحدة، ثم إن صلاة الجماعة فيها حركة السعي إلى المساجد، وفيها سهولة إعلام الناس بالأمور العامة والأحداث الهامة أيضاً.

ولذلك أكد الرسول الكريم على طلب صلاة الجماعة التي أصبحت سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الإسلام، بل دعامة، وقد داوم على إقامتها رسول الله ﷺ والخلفاء والتابعون من بعدهم، وما زالت إلى يومنا في كل مجتمع إسلامي، وستظل إلى يوم الدين بإذنه تعالى.

قال ﷺ: «صلاة الجماعة تعادل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة»^(٢)، وقال: «وما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»^(٣).

أما صلاة الجمعة فقد قال الله عز وجل بشأنها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾^(٤).

وقال رسول الله ﷺ «من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه».

كما قال: «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه، وهذان الله تعالى له وآخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٤) سورة الجمعة، الآية ٩.

به سبقاً وأهل الكتاب لهم تبع»^(١)، - وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة التي ثبتت فريضة بالكتاب والسنة.

ومن مظاهر الاتصال الجمعي في صلاة الجمعة الخطبة، وهي الرباط الروحي للمصلين والمخبر الإعلامي للمسلمين، ومن خلالها يمكن توجيه الناس وإرشادهم وإعلامهم والأخذ بأيديهم إلى خير السبل وأسلمها.

الخطب النبوية والاتصال الجمعي

يقول ابن القيم الجوزية عن خطب النبي ﷺ: «إنها كانت تقريراً لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وذكر الجنة والنار وما أعد لأولياته وأهل طاعته، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبه إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه... لا كخطب غيره التي تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة، ولا تذكيراً بأيامه، ولا للنفوس على صحبتته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلى التراب أجسامهم... فيا ليت شعري إي إيمان حصل بهذا، وأي توحيد وعلم نافع يحصل به؟

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلاً ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحبهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحبه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحبهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم. ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنة لا ينبغي

(١) الحديثان متفق عليهما.

الإخلال بها، وأخلُّوا بالمقاصد لا ينبغي الإخلال بها فوضعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع فنقص . . بل عدم حفظ القلوب منها وفات المقصود بها».

أما النووي فيقول: «يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تعكير، ولا تكون ألفاظاً مبتذلة ملفقة لأنها لا تقع في النفوس موقعاً كاملاً، ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مقصودها، بل يختار ألفاظاً جزلة مفهومة».

أما الخطابة النبوية الشريفة فيتمثل فيها الاتصال الجمعي في أسمى معانيه فقد كانت أداة الدعوة، واللسان الناطق بالرسالة الإسلامية، وأداة الاتصال والتعبير في مجالات العقيدة والشريعة والأخلاق، فإذا كانت الكتابة غير شائعة في هذا العصر، فإن الخطابة كانت مثل الوسيلة الأساسية للاتصال الجمعي، ولذلك اعتمد عليها النبي ﷺ في دعوته عشيرته الأقربين، وفي اتصاله بأحياء العرب وبالأسواق العامة ومواسم الحج، فكان عليه السلام يخطب ويقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة، ويقوم في مجتمعات جديدة يشرح لهم بيانه وفصاحته، رسالة الإسلام، وهي فصاحة فطر عليها وقواها تلمذته للقرآن الكريم.

سأله أبو بكر رضي الله عنه مرة: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك. فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». وفي الخطابة النبوية الشريفة تتجلى قيمة الحرية في الاتصال الجمعي، فكان عليه السلام يقول بعد الثناء والتشهد «أما بعد». وكأنه يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي.

فالانصال الجمعي - كما يتضح من دراسة الخطابة النبوية الشريفة - لا يتم من جانب واحد، وإنما كان يتاح فيه للمتلقي توجيه الأسئلة والتفاعل

الذي يتيح رجوع الصدى من المستقبل إلى الرسول ﷺ وهي الميزة التي يفقدها الاتصال الجماهيري المعاصر، ذلك أن الرسول ﷺ كان يقطع خطبته لحاجة تعرض، والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها، وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذافاة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها ولم يكن يأخذ بيده سيقاً أو خلافة، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر، وكان يخطب للنساء على حدة في العيدين ويحرضهن على الصدقة.

ولقد كانت الخطابة من أهم وسائل الرسول ﷺ في الاتصال الجمعي في الإعلام الإسلامي بعد الجهر بالدعوة مباشرة، حين صعد على الصفا حاملاً عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، ويذكر ابن كثير أن أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله بعد النبي ﷺ هو أبو بكر رضي الله عنه.

ولما كانت أول جمعة للنبي ﷺ بالمدينة، خطب المسلمين فكان مما قاله :

«الحمد لله، أحمدده واستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفر، وأُعادي مَنْ يكفر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، مَنْ يقطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبته، وإن تقوى الله يبيض الوجه ويرضي الرب ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في

(١) سورة الحجر، الآية ٩٤.

جنب الله، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين كذبوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه. جاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، فأكثروا من ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس.

«وذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله».

خطبة الوداع وحقوق الإنسان

ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع، وهي مشهورة وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الإنسان.

قال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس اسمعوا قولي فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع ولكن لکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون، قضی الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائکم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبداً به من دماء الجاهلية.

«أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضکم هذه أبداً، ولكنه إنْ يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالکم، فاحذروه على دينکم.

«أيها الناس إنَّ النسيءَ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

«أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساكنكم حقاً ولهن عليكم حقاً. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهم ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

«فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت. وقد تركت فيكم ما أن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً. . . أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه. . . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم. فقال رسول الله: اللهم اشهد».

ومن خطبة الوداع نستخلص دستوراً للإعلام الإسلامي ينص على الدعوة إلى التوحيد الخالص، والإيمان بالله، كما ينص على الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة في النفس والمال والعرض، وإلغاء التعامل بالربا، وتأكيد حقوق المرأة ووجود رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية والأسرية، وصيانة الروابط الدينية والأخوية والاتصالية بين المؤمنين كما تنص هذه الخطبة على إعلان المساواة التامة بين بني الإنسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة، بغض النظر عن اللون والجنس، وهذا النص يمثل عماداً من أعمدة الإعلام الإسلامي الذي أكدت عليه خطبة الوداع. وهي الخطبة التي أرست كذلك من مبادئ الإعلام الإسلامي: التحذير من وسائل

إفساده للأخوة، وللاتصال بين المسلمين وتفريق صفوفهم . وكذلك الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، لأنهما الهدى الذي لا يضل من تمسك بهما .

وقد نصت خطبة الوداع صراحة على أن الإعلام الإسلامي إنما يقوم على أساس من تبليغ الرسالة للناس كافة، وهذا الأساس يمثل جوهر الإعلام الإسلامي .

صلاة العيدين والاتصال الجمعي

وصلاة العيدين شعيرة تمثل الاتصال الجمعي في أروع مظاهره، فالأعياد بطبيعتها مواسم إعلامية، والعيذان الكبيران في الإسلام هما عيد الأضحى وعيد الفطر، وأكبرهما هو الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام، ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور . وكلاهما - كما يقول العقاد - رمز واضح إلى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامعة لكل الفضائل، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات .

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الدين، وفيها نسمع التكبير ثلاثاً نسقاً، فنقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً . لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . وفي هذا التكبير تلخيص لرسالة الإعلام الإسلامي حيث يتم التواصل بين المسلمين ودينهم على أتم ما يكون التواصل، وتصبح الأعياد الإسلامية تجديداً للتوَادِّ والالفة والتعارف بين المسلمين .

فالعيد إذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الجمعي في الإعلام الإسلامي . وقد تكون كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة على

ما تعنيه . فالعيد يعود كل سنة في موعد محدد ، كما أنه سيوجب مجتمعا مستقراً له دينه ونظامه الاجتماعي القائم على أسس راسخة .

وهذه الدورية للعيد أي عودته سنوياً في الموعد المحدد، صفة من أهم صفات الإعلام بوجه عام .

والعيدين الإسلاميان - وهما عيد الفطر وعيد الأضحى - كان لهما أصل قديم قبل الإسلام ، فكان العرب يصومون من أسبوع إلى أسبوعين في موعد الانقلاب الصيفي الذي وافق شهر القيظ ، أو شهر رمضان . وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون قرابين إلى أربابهم عند منصرفهم من الطواف ، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة إلا من الكساء الذي يخصصه السدنة للحج في جوار مكة . فلما جاء الإسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية وحولها إلى العبادة الإلهية ، وساعد على زوال الأثر المادي منهما أن الإسلام حرم النساء ، وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لإعادة التاريخ القمري إلى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة .

الحج والاتصال الإعلامي

ويمثل الاتصال الإعلامي شكلاً من أشكال الاتصال في الدعوة الإسلامية ، إذ يعني الاتصال على مستوى الأمة ، الأمر الذي يتفق مع جوهر الإسلام كرسالة للناس كافة وليس لقبيلة أو شعب معين ، وهو الأمر الذي لاحظته الأستاذ مونتجمري وات عميد قسم الدراسات العربية الأسبق بجامعة «أدنبره» في كتابه «الإسلام والجماعة المتحدة» ، حين ذهب إلى أن فكرة «الأمة» ، كما جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعاً لكل فيض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى «الوحدة» في «أمة» واحدة ، تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة .

وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض

على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولمّ شملها ونفي الغرباء عنها.

ويذهب العقاد^(١) إلى أن مونتجمري قد أصاب في التنويه بمعنى «الأمة» في العقيدة الإسلامية، واعتباره أنه معنى فريد خلقتة العقيدة الإسلامية ولم يكن له مرادف في لغة من اللغات لا قبل الإسلام ولا بعده.

فكلمة (Nation) التي تقابل هذه الكلمة باللغات الأوروبية، مأخوذ في أصلها من معنى الولادة، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هي الرابطة التي تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية، وكلمة (People) تقابل عندهم كلمة الشعب أحياناً باللغة العربية، وترجع في أصلها إلى السكن والاقامة، وكلا المعنيين - معنى الولادة ومعنى السكن - قاصر عن الدلالة على «الأمة» التي جاء بها القرآن الكريم في معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة، ويلزم من دلالتها وحدة الوجه الإسلامي في نهاية الأمر.

وإذا كان الاتصال الإعلامي بالمعنى الحديث، ويشكله التكنولوجي، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهي، فإن الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وتحقق فيه الدلالة الإسلامية لمعنى «الأمة» على أفضل نحو حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وجعل الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه «عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين فيه»، على حد تعبير الإمام الغزالي رضي الله عنه - وقد أنزل الله عز وجل قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

(١) عباد محمود العقاد: المجموعة الكاملة، ج ٦، الاسلاميات ٢، ص ٥٢١ (م ٩ نظرية الاعلام).

(٢) سورة المائدة، الآية ٣.

وقال الله عز وجل ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١).

وقال قتادة: لما أمر الله عز وجل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج، نادى: يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتاً فحجوه، وقال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^(٢)، قيل التجارة في الموسم والأجر في الآخرة، وهذه المنافع تتضمن فوائد إعلامية بطبيعة الحال من حيث تبادل الأفكار والمعلومات في إطار القيم الإسلامية، وقد جعل رسول الله ﷺ طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج، والمماراة تناقض طيب الكلام ولقد اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة منزل الوحي والدعوة الإسلامية الأولى، وجعلها مصدر الإعلام العربي على قدر ما عند العرب من معرفة، وبها حج بيت الله الحرام، وملتقى العرب في موسمه، وبها أسواق الأدب التي يتبارى فيها الشعراء والخطباء في عكاظ وذو مجاز ومجنة.

ولذلك كانت الأحداث فيها تنتقل أخبارها إلى بلاد العرب، ومنها سار خبر الرسالة الإسلامية ودعوة النبي ﷺ الحق وتجاوبت أصداؤها، ومن العرب من كان يجيء مكة المكرمة بهدف التعرف على أمر ذلك الرسول الكريم ﷺ، ومنهم من يرسل إليه من يتعرف دعوته كما فعل أكثم بن صيفي حكيم العرب، إذ أرسل نبيه إلى النبي ﷺ يتعرف ما يدعو إليه، فلما حضروا وسألوا النبي ﷺ، تلا عليهم قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)، فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول ﷺ قال: إنه إن لم يكن ديناً فهو خلق الناس أمر حسن، يا بني كونوا في هذا الأمر أولاً، ولا تكونوا آخراً.

(١) سورة الحج، الآية ٢٧.

(٢) سورة الحج، الآية ٢٨.

(٣) سورة النحل، الآية ٩٠.

وقد أسلم أبوذر الغفاري بهذا الإعلام العام الذي اشتهرت به دعوة النبي ﷺ، كما أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو إذ جاء النبأ بدعوة النبي ﷺ، وكان رجلاً شريفاً شاكراً، وكذلك فعل الجارود بن المعلی وغيرهم من زعماء القبائل الذين دخلوا في الإسلام.

الاتصال الحضاري والأدب الإسلامي

والاتصال الحضاري من أهم أشكال الإعلام الإسلامي، لأنه يقوم على أسس إسلامية مستقاة من القرآن والسنة، ويرتكز على التوحيد والإيمان والتسليم والطاعة لله رب العالمين، ويتغيا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوق المادي، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على حرية الفكر، ودعم حرية الإنسان وكرامته، وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظل إخاء شامل، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية، ذلك أن الحضارة الإسلامية قد استمدت مقوماتها من الإسلام ذاته، الذي أتم صقل الأمة العربية والإسلامية وتهذيبها، وأودع في شعوبها طاقات جديدة، وصفى طاقاتها الموروثة فاستأصل منها الغريب والشاذ وما لا يتلاءم مع طبيعة المجتمع المثالي الذي يريده الإسلام.

فالالاتصال الحضاري في الإسلام لم ينسخ النظرة الواقعية، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس إلى الاهتمام بدنياهم إلى جانب الاهتمام بدينهم، كذلك وجه عنايته إلى رفاهية المسلمين، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد فسعادتهما مكفولتان في الإسلام ولا يطغى حق واحد منهما على الآخر، وهذه التعادلة في الاتصال الحضاري الإسلامي بين المادة والروح، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، مسيطرة لطبيعة الإنسان وخلقه، هو مادة وروح، جسد وقلب، ولقد كان المجتمع العربي قبل الإسلام يحيا على واحدة منهما ويهمل الأخرى، فكانت النتيجة الانغماس في الفوضى وعدم

الاستقرار والإخفاق في الوصول إلى هدف منشود. . وتكفل التعادلية بين القوتين في الاتصال الحضاري البقاء للإنسانية والسير قدماً، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تنفي برفاهية الخلق، ولا تنهض وحدها بحل مشكلات الإنسان.

والمجتمع المتحضر هو المجتمع الأخلاقي أو «المدينة الفاضلة» بتعبير الفارابي، وهنا يغدو الاتصال الحضاري وسيلة لجعل أمور الحياة خاضعة لقانون الأخلاق النابع من جوهر الإسلام، كدين إنساني عام يخاطب الأمم جميعاً فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة، فكل إنسان في جوانب الأرض أهل لأن يأوى إلى هذه الأخوة الإنسانية حيث شاء، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة، وهكذا أعلنها النبي عليه السلام وخلفاؤه الراشدين وتابعوهم الأبرار في صدر الإسلام، ولم يمضِ ربع قرن من التاريخ الهجري حتى قامت بينات الواقع على حقيقة الاتصال الإنساني في الدعوة الإسلامية، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان في عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون، عرب وفرس وترك وهنديون وصينيون وأفريقيون من السود الأسويين، وهكذا يتأكد لنا أن الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي يتسم بالشمولية في مخاطبة الناس جميعاً بلا تفرقة.

يقول العقاد:

«إن ديناً من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتب عريقة في الحضارة، وإنما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية، أو على تحويل

(١) سورة سبأ، الآية ٢٨.

الوثنيين الذين درجوا على عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام من رموز القوى الطبيعية».

«فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود، ولما قام المكابيون ليكروها قبائل البادية على قيود الشعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنية مغرقة في الجهالة وكان المكابيون يسمون أمراءهم رؤساء كهان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه، فأكره القبائل على قبول سلطان «يهوا» إنما كان عندهم بمثابة الخضوع السياسي الذي يلزم الأجانب والغرباء كما يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة».

«والبرهمية ظلت ديانة قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البوذية، فنجحت في تحويل الوثنيين إليها في الصين واليابان ولم تحول إليها قط أمة ذات كتاب... والمسيحية حولت إليها الرومان وغيرهم من الغربيين أو الشرقيين، ولكنهم كانوا جميعاً من الوثنيين الذين وقفوا عند خطوات الدين الأولى ولم يجاوزها إلى عقائد أهل الكتاب».

«أما الإسلام فقد حول إليه على خلاف ذلك أعرق الأمم في الحضارة وفي الإيمان بالعقيدة الكتابية، فأسلمت فارس وأسلمت مصر وهما على التحقيق أعرق أمم العالم يومئذ في تاريخ الحضارة، أولاهما كانت تؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وغلبة الخير على الشر وخلود الروح، وثانيهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها في العالم القديم».

هذه المزية ينفرد بها الإسلام بين جميع الديانات، وهي آية العالمية والصلاح لدعوة الأمم جمعاء، سواء منها الأمم المغرقة في الحضارة والدين أو الأمم التي لم تبلغ بعد الارتقاء في التحضر والاعتقاد^(١).

فالارتقاء الحضاري في الإسلام اذن اتصال موجه إلى الإنسانية جمعاء على توالي العصور واختلاف الأزمان، وهو ملتزم بما أنزله الله للإنسانية، وهو

(١) العقاد: المجموعة الكاملة، م ٨، الإسلاميات ٤، ص ٣٣٥.

سبحانه وتعالى بكل شيء عليم وبعبادہ رؤوف رحيم ، وهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم^(١).

قال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

ولقد اشتمل التشريع القرآني على معالم هذا الاتصال الحضاري من مبادئ وقيم تصلح للإنسانية جمعاء ، فالأخوة الإسلامية أصبحت هي الأساس في الاتصال الحضاري بدلاً من العصبية ، والاتحاد أصبح هو العماد الذي يقوم عليه هذا الاتصال الحضاري ، والحياة التي تقوم على الخير هي الهدف المنشود من هذا الاتصال ، وتتمثل هذه الأسس في الآيات الكريمة :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

وإن كان التشريع القرآني قد رسم على هذا النحو الأسس التي يقوم عليها الاتصال الحضاري القويم ، فقد أكد أن تنكّب هذا الطريق واختيار السير في طريق الفساد إنما ينتهيان بهدم البناء الاجتماعي والحضاري

(١) د. إبراهيم امام : الإعلام الإسلامي ص ٤٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

وتقويض أسسه، ويتمثل هذا الإنذار للحضارات المنحرفة في الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(٢).

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(٣).

والأمثلة على انهيار الحضارات كثيرة، فهي هو محمد إقبال يقول: «مثلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت، أينعت كالفاكهة وحن قطافها، وسوف ينهار العالم الذي حوله مقامرو الغرب إلى حالة من الفساد، ولقد رأت أوروبا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية، وسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وورث محمداً وإبراهيم قيادة العالم».

ولقد تنبأ المؤرخ الإنجليزي توينبي بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما، ويذهب كولن ويلسون إلى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التي مرت بها حضارة الرومان، وكتب «جيبون» في كتابه «انهيار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها» يقول: «إن روما تحولت إلى حضارة لا تفكر إلا في الجنس والحرب».

والتشريع القرآني يبين الأسس القويمة للاتصال الحضاري السوي كما

(١) سورة الرعد، الآية ١١.

(٢) سورة هود، الآيتان ١١٦ و ١١٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية ١٦.

يبين عوامل هدم الحضارات المنحرفة، ويذكر المؤمنين على الدوام بنعمة قيام الأمة المتحدة المؤتلفة بعد تنازل، ويحذر من الجاهلية التي تعيد الفقرة بعد الوحدة، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١).

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

وتأسيساً على هذا الفهم نحاول استخلاص مظاهر الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي فنجد أنه يقوم على الشورى والعدل كركنين أساسيين للوسيلة والهدف، وتبين الآيات الكريمة هذا التحول من النظام القبلي إلى الاتصال الحضاري في الإعلام الإسلامي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٣).

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٤).

والإسلام في تجددته وتجديده وانطلاقه وامتداده، ليس إلا تفسيراً حقيقياً للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة في الحياة، فالله جل شأنه قد مدَّ الظل ولو

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٠٢ و ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

شاء لجعله ساكناً، كما قال في محكم آياته، والله لم يجعل الليل سرمداً ولم يجعل النهار سرمداً، ولكن جعلهما موصولين امتداداً وانطلاقاً إلى أبد الأبدين، ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب، أو ليل دائم وحسب، لكان ذلك جموداً لا تصح به الحياة ولا يصح عليه الإحياء.

والإسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود، وآية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم وحثه عليه. وقد أعلى الإسلام من شأن العلم ولم يساو بين عالم وغير عالم، لأنه يريد للناس والإنسانية أن يتجددوا مع الحياة، ولا يقفوا بها عند حد معين.

ولعل إيراد بعض آيات من مادة «العلم» في القرآن يساند هذه القضية، فالقرآن يقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١)، ويقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(٢)، ويقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(٣). ويقول: ﴿وَرَأَاهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾^(٤)، ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥)، فالعلم متغير، متجدد، قابل للتطور والارتقاء وليس كذلك العبادات، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العلم، لأنها دعوة إلى التجديد في الحياة.

وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من المسلمين، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين في الإسلام، من أمثال «سيكار» الفرنسي الذي ملأ مجلة «مراكش الكاثوليكية» في الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون في الإسلام زعم فيها أن الإسلام لم يدع إلى العلم بمفهومه العام، ولكنه دعا إلى علم الدين، وذلك ليجرد الإسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقاً والحث عليه... ونسي المسكين الحديث النبوي:

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

(٥) سورة الزمر، الآية ٩.

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨.

«اطلبوا العلم ولو في الصين». فلو كان العلم هنا دينياً ما دعا النبي إلى طلبه في الصين، لأن أهلها من عباد الأوثان. . وهذا الحديث مما رواه العقيلي، وابن عدي، والبيهقي وابن عبد البر عن أنس.

والإسلام - في دعوته إلى التجديد والانطلاق في آفاق الكون، والنظر في ملكوت السموات والأرض، وعدم الجمود عند حد معين - لم يجبر على سنن غريب عليه، وليس منه. . . فهو في ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبي إلى سبيل ربه. . . وهو أبو التجديد ورائده. . . وخاصة في كثير من شؤون التشريع، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والإصلاح ما جعله حرياً بأن يوصل بالتجديد لا بالجمود. . .

لقد قلل من تعدد الزوجات وكان مطلقاً بلا قيود، وجعل نظام الميراث يتسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها للولد الذكر والانثى والأبوين كرهها الناس وقالوا: «تعطى المرأة الربع والثلث، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة». وهذا يدل على أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت، وإنما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحروب.

وإذا كان الإسلام قريناً للتجديد وداعياً له، فما بال المسلمين قد تأخروا - وخاصة في القرون الأخيرة إلى اليوم؟ - الحق أن هذا التأخر ليس من الإسلام، ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا إلى التوقف، بل مالوا إلى معاداة العلم ومحاربة الإصلاح وسدوا على أنفسهم باب الاجتهاد، وإلا فكيف نعلل ازدهار الإسلام وقوة المسلمين وتقدمهم في القرون الأولى للإسلام، وتأخرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم في العصور الأخيرة مع أن الدين واحد والعبادات واحدة؟ الحق إن طرائق المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين، فليس غريباً أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله.

الأدب وتطور الإعلام الإسلامي

نحاول في هذا الفصل أن نعرض عرضاً سريعاً لتطور الإعلام الإسلامي، في إطار منهج الدعوة الإسلامية عبر التاريخ فيما بعد البعثة النبوية المباركة... في محاولة لتحليل الوسائل التي اتبعت في نشر الإسلام بالإعلام وحده، ودور الدعاة والتجار في هذا المجال تأسيساً على أن انتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده، لا سيما في الشرق الأقصى على شواطئ المحيط الهادي، وأواسط وجنوب أفريقيا ولذلك نحاول أيضاً أن نعرض عرضاً خاطفاً لكيفية دخول عشرات الملايين في الإسلام بدافع الاقتناع الذاتي عبر وسائل الإعلام المختلفة باختلال العهود والعصور.

منهج الإعلام الإسلامي

ذلك أن القرآن الكريم قد حدد منهج الدعوة الإسلامية، وهو المنهج الذي يدحض حجج بعض المستشرقين حول كون القوة عاملاً هاماً في انتشار الإسلام، فالمنهج القرآني في الإعلام الإسلامي يتضح من الآيات الكريمة التالية^(١):

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

(١) ومرجعها على التوالي: سورة البقرة، الآية ٢٥٦؛ والنحل ١٢٥؛ والكافرون ١٦؛ والنحل ١٤٢؛ والعاثية ٢١ و٢٢.

﴿اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

وهذا المنهج القرآني هو الذي جعل الكثير من الناس يدخلون في الإسلام حباً وطواعية واقتناعاً لا خوفاً من السيف، بل إنهم احتملوا السيف في سبيل الله على نحو ما نعرف عن مسلمي مكة. أما مسلمو المدينة فقد أقبلوا على الإسلام مقتنعين. ذلك أن الإيمان بالله وحده هو أساس قيام المجتمع الإسلامي في الماضي والحاضر والمستقبل. وعن هذا الإيمان تتحقق أهداف الإعلام الإسلامي في تقوية أواصر الترابط وحسن العلاقات بين الأفراد والشعوب، والاستعداد والإعداد للدفاع عن الحق والمثل العليا.

الدعوة الإسلامية لم تنقصر بالسيف

من أجل ذلك لم تنقصر الدعوة الإسلامية في غزوة أول معركة فحسب، وإنما انتصرت انتصاراً كونياً غير مجرى التاريخ، ونظم مسيرة الإنسان في العالم. ولقد سئل رسول الله ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليري، فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

ومن هذا الحديث ومن نهج القرآن الكريم في الدعوة الإسلامية يتكشف لنا منهج الإعلام الإسلامي في الإقناع بالحجة والمجادلة والموعظة الحسنة، ذلك أن الحروب والفتوحات في الإسلام لم يقصد منها إكراه أحد على الدخول في الإسلام، وبذلك استبعد الإسلام «جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى والتي ذاق العالم من ويلاتها لا في الحروب الصليبية المعروفة فحسب، ولا في الاضطهاد

الاسباني للمسلمين في الأندلس فحسب، بل في كثير من بقاع الأرض، وفي كثير من أدوار التاريخ، والتي ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها وإن كانت تتخفى تحت عناوانات أخرى غير عنوان التعصب الديني»^(١).

ولقد تبين في الفصل السابق كيف أن الإعلام الإسلامي إعلام إنساني، يستبعد من حسابه الحروب، كما يستبعد من سيادة عنصر أو تغليب جنس. فالناس قد جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليستذل بعضهم رقاب بعض، ولا ليسود جنس أو شعب. ومن ثم يتعين باعث واحد وهدف واحد للفتح الإسلامي هو الذي قال عنه الرسول ﷺ: لتكون كلمة الله هي العليا.

ويتضمن هذا المنهج الإسلامي في الإعلام أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٣). وما كان الجهاد إلا سبيلاً لبلوغ تلك الغاية السامية، بعيداً عن الإكراه في الدين، يقول الله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟﴾^(٤). فالاختيار والحرية من الظواهر الإنسانية في الإعلام الإسلامي، والإكراه والقسر من الوسائل الاستبدادية التي تتنافى وطبيعة الإسلام التي تكفل حرية الفرد فيما يعتقد، كما تكفل حرية الإعلام الإسلامي، لأن الإكراه على الإيمان يضاد طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان على الأرض، كما يضاد طبيعة الإنسان ذاتها التي يخاطبها الإعلام الإسلامي.

وهذه الطبيعة الإنسانية هي التي كرمها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم حين قال جل شأنه ﴿وَصَوِّرَكُمْ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾^(٥)، كما زود الله سبحانه وتعالى الطبيعة الإنسانية بالإدراك والشعور ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية، ص ٣٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٤) سورة يونس، الآية ٩٩.

(٥) سورة غافر، الآية ٦٤.

نُظْفَةِ أَمْشَاجٍ نُبْتِيَةٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا^(١). وهذا الإدراك الإنساني هو الذي يتعامل معه الإعلام الإسلامي، تاركاً للإنسان الحكم على ما يرى أو يسمع أو يفكر، وأن يرجح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أفضل.

فالإكراه مرفوض في الإسلام الأمر الذي يجعل الإعلام الإسلامي ناهضاً على أسس من الحرية الإنسانية في الاعتقاد والإيمان، وهو لذلك يتوسل إلى الطبيعة الإنسانية بالإقناع الإنساني المذهب الذي حدّد منهجه القرآن الكريم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

والجهاد في الإسلام يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامي، بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾^(٢). ذلك أن الجهاد يتيح للإعلام الإسلامي أداء الرسالة من خلال مقاومة القوى المادية التي تتمثل في الجبابة والطفأة والأكاسرة، لتهيئة مناخ حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وحرية الإعلام الإسلامي. فكل قوة مادية تقوم في وجه هذه الحرية هي قوة معتدية، وفي هذا السبيل كان الجهاد وكانت الفتوح الإسلامية في عهدها الأول حيث انتشر الإسلام داخل الجزيرة وخارجها. ولم يتقرر الجهاد إلا في حالة من حالتين: الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلمية والإعلام الإسلامي، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً أو جماعات.

الفتوحات الإسلامية وانتصار الدعوة

فالفتوح الإسلامية إذن كانت تستهدف تحقيق رسالة الإسلام ليكون هو دين البشرية كافة، لا عن طريق الإكراه، ولكن عن طريق الدعوة والإقناع والإعلام، «وضمامنا لحرية الدعوة، ولحرية العقيدة، ساقط الجيوش وخاضت

(١) سورة الإنسان، الآية ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

المعارك، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة.

«ومن ثم تهاوى جميع الأباطيل والمفتريات التي تقولها الغربيون على الفتوحات الإسلامية، طبيعتها وبواعثها، والتي نشأ بعضها عن التعصب الديني ضد الإسلام والمسلمين، ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الإسلام على فتوحاتهم هم، وقياس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الإمبراطورية الاستعمارية عندهم في القديم والحديث»^(١).

وقد نجح الإعلام الإسلامي في أداء رسالته النابعة من الإسلام كعقيدة يقوم عليها نظام اجتماعي متميز عن سائر النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية، ومن خصائص الإسلام التي أدت إلى نجاح الإعلام الإسلامي أن الإسلام دين عالمي مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الديني، ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى موكبه في سر، وأن يتمتع فور اعتناقه بكافة الحقوق التي يتمتع بها أول مسلم من أي جنس ومن أي قبيلة. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢).

ومن الصور الرائعة في الإقناع عند الدعاة الأوائل في الإسلام ما يرويه المؤرخون حول قصة خالد بن الوليد والرومي جورج أو جورجيا كما يرد في بعض المصادر الإسلامية القديمة. وهي قصة تتضمن ثلاث دلالات لها صلة بموضوعنا هذا من قرب، وتعني:

أولاً: إن الدعاة المسلمين على رغم من أنهم قد أكرهوا على القتال فإنهم أبلوا بلاء حسناً، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وفي الوقت نفسه لم يضرهم النصر بالسيف ويدفع بهم إلى الإمعان في القتال، بل كانوا

(١) سيد قطب: دراسات إسلامية، ص ٤٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

يؤثرون الدعوة السلمية بالإقناع والمجادلة والموعظة الحسنة على الاستمرار في القتال.

ثانياً : إن موقف خالد من القائد الرومي كشف عن منهج الإعلام الإسلامي من حيث التدرج في الإقناع والصبر عليه والصدق فيه، الأمر الذي يجعل المتلقي في هذه الحالة يقبل الدعوة الإسلامية إقبال المحب المقتنع الذي يتحول إلى مدافع عنها بكل ما يملك من غالٍ ونفيس.

ثالثاً : إن الحوار والحدل بين خالد وبين القائد الرومي جورج انتهى بالتأكيد على ما سبق أن ذكرناه حول عالمية الإسلام وتبرئته من العصبية العنصرية والدينية، فأكرم الناس عند الله أتقاهم في الإسلام.

فالقائد الرومي جورج يخرج من معسكره متحدياً أمير جيش المسلمين خالد بن الوليد أن يبرز له . فلما برز له وتقاربا بجواديهما وقد أمن كل منهما صاحبه دار الحوار الآتي بصوت خفيض :

— أصدقني ولا تكذبني يا خالد فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع .

— فيم يا جورج؟

— هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه؟ فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

— لا والله .

— لماذا سميت بسيف الله إذن؟

— إن الله سبحانه بعث فينا نبياً دعانا، فنفرنا ونأينا عنه، ثم إن بعضنا كذبه وباعده وقتله .

— وهل كنت من ذلك البعض؟

— نعم، ثم إن الله أخذ بقلوبنا فهدانا به فتابعناه

— أهو الذي سماك سيف الله؟

- نعم . قال : . . . أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين .
 - وإلام تدعوني ؟
 - إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله .
 - ومن منزلة من يدخل فيكم اليوم ؟
 - منزلتنا واحدة فيما فرض الله علينا شريفنا ووضعنا ، أولنا وآخرنا .
 - وهل لمن دخل فيكم اليوم مثل ما لكم من الأجر ؟
 - نعم وأفضل .
 - كيف يساويكم وقد سبقتموه ؟
 - إننا دخلنا في الإسلام وبايعنا نبيه وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات . . . وحق لمن يرى ما رأينا ويسمع ما سمعنا أن يسلم ويباع وأنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج . . . فمن دخل اليوم في الإسلام بحقيقة ونية صادقة كان أفضل منا .
 - والله لقد صدقتني . . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .
- بهذا التدرج في الإقناع يتضح ما نعينه بإنسانية المنهج في الإعلام الإسلامي ، واعتباره أن السيف مجرد وسيلة لتهيئة المناخ الملائم للدعوة التي تعتبر هي الأصل ، والسيف هو الاستثناء .
- ولذلك يمكن القول إن الإعلام الإسلامي - لكونه إنسانياً يحرص على إقناع البشر بقيم الإسلام الخالدة - استطاع أن يفيد من الفتح الإسلامية في الإقناع الخالص ، لأن هذه الفتح هيأت حرية الإعلام والدعوة وحرية العقيدة والعدالة المطلقة لجميع الناس .
- بل إن الصليبيين حينما جاؤوا إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية بهدف محاربة الإسلام والقضاء عليه ، لم يتحقق لهم حلمهم ، وإنما اعتنق

الإسلام جموع كثيرة منهم انخرطت في صفوف المسلمين تحارب أبناء دينها الأول من الصليبيين. يقول توماس أرنولد: «لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى العهد الأول، أي في القرن الثاني عشر، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين حتى ساعات انتصار المسيحيين».

وحينما تعرض الإسلام لهجمات المغول الضارية وقف رجاله في مواجهتها بالعقيدة، وسرعان ما دخل المغول في الدين الذي حاربوه. يقول سير توماس أرنولد: «لا يعرف الإسلام من بين ما نزل من خطوب وويلات خطباً أعنف من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال، واستطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه».

ويذهب المؤرخون المنصفون^(١) إلى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم، فقد كانت الحروب تشتعل وكان المسلمون يتصرون، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف، وحينئذ يتقدم الدعاة ورجال الإعلام الإسلامي فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه. وبالدعوة والإعلام الإسلامي دخل الناس أفواجا في الدين الجديد، فمنهم من أسرع في اعتناقه، ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة.

ويقول أحدهم: «إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع

(١) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٧٩.

الميلادي كانت لا تزال مسيحية، على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين»^(١).

فالإسلام لا يُكره أحداً على اعتناقه، ولذلك يجيء الإعلام الإسلامي ليقوم بالإقناع والموعظة الحسنة، على نحو ما نعرف من دخول الإسلام إفريقية كما يقول أحد المستشرقين ذلك أن الإعلام الإسلامي قد توسل بالثقافة والفكر والدعوة فانتشر الإسلام بين شعوب البربر، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دوراً كبيراً^(٢).

وعن انتشار الإسلام في إفريقية يقول الكاتب المسيحي الفرنسي هوبير ديشان^(٣) حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى سنة ١٩٥٠ :

«إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقيا لم يقم على العكس وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفردون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعها بقية القبيلة. وقد يَسَّرَ انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل تناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه آيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين. وقد حجب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره البعيدة عن التكلف، مثل الثوب الفضفاض والمسبحة والكتابة العربية والوقار الديني وشعائر الصلاة، مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالذي يدخل في الإسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية».

(١) د. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٧٩.

(٢) د. أحمد شلبي: المرجع السابق، ص ٢٨٠.

(٣) هوبير ديشان: الديانات في إفريقية السوداء، ص ١٢٨ - ١٢٩، د. أحمد شلبي، المرجع السابق ص ٢٨١.

تلك شهادة شاهد من أهلهم تؤكد الحقيقة التاريخية للانتشار الإسلامي بالإقناع والإعلام، وتدحض ما يزعمه الزاعمون حول انتشار الإسلام بالسيف.

الإعلام الدولي والاتصال التدويني في عهد الرسول .

وهكذا دخل الناس ويدخلون إلى ما شاء الله في الإسلام أفواجاً فحينما كان الرسول ﷺ في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة دان بالإسلام في حياته أكثر من مائة ألف، والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة، فلقد تمكّن الإسلام من أنفس هؤلاء جميعاً، ولما كان الإعلام الإسلامي عاماً بنص القرآن الكريم، توسل الرسول ﷺ بالإعلام التدويني إلى جانب الإعلام الشفهي والاتصال الشخصي والجمعي، فأرسل كتبه ودعائه إلى الملوك ورؤساء الأمم يدعوهم إلى الإسلام حتى لا يكونوا ممن يصد عنه أو يقف في سبيل دعوته.

وقد اختار عليه السلام من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة بالإعلام الإسلامي وأرسلهم إلى الملوك، فاختار دحية بن خليفة الكلبي رسولاً إلى ملك الروم وكتب له كتاباً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تول فإن إثم الأكافرين عليك».

وتحفل المصادر بروايات مختلفة عن كيفية استقبال هرقل لدحية وإن كانت تجمع جميعاً على الأثر الإيجابي لرسالة النبي ﷺ ومن ذلك أن هرقل بمجرد أن قرأ الكتاب استدعى أعوانه ودعاهم إلى اتباع ما بشر به كتابهم المقدس من قبل من أمر محمد الوارد في الإنجيل، وكان رد الفعل من جانبهم مباشراً ومخالفاً لما أراد، فما كان منه إلا أن رجع عن قوله الأولى وخاطبهم بقوله إنما قال ما قال ليتأكد من مدى اقتناعهم بدينهم، وقد تبين له ذلك بما لا يدع مجالاً للشك.

وتذكر رواية أخرى عن ابن اسحاق، أن هرقل قال لدحية حين بلغه الكتاب: ويحك! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا نتظره ونجده في كتابنا، ولكنني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته. فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له صاحبكم، فهو والله أعظم في الروم مني وأجوز قولاً عندهم مني، فانظر ما يقول لك.

قال: فجاءه دحية فأخبره بما جاء به رسول الله ﷺ إلى هرقل وبما يدعو به إليه، فقال ضغاطر: صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا باسمه، ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداء ولبس ثياباً بيضاء، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة، فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله. قال: فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني.

واجتمع الروم على حرب المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه، وكانت وقعة مؤتة، كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله ولكن القرآن الكريم كان قد حدث المسلمين من قبل عن هزيمة الروم في «سورة الروم». وفي ذلك صورة من صور الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم، وإخباره عن أمور وقعت في المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء من السماء ولا في الأرض. ومن ذلك إخبار القرآن الكريم عن هزيمة الفرس بعد غلبهم، فقال سبحانه ﴿أَلَمْ * غَلَبْتَ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾^(١).

وقد حدث ما أخبر به القرآن... فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك

(١) سورة الروم، الآيات ١ - ٤.

وهزم الفرس في بضعة سنين، وما كان النبي ﷺ ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب وما يتوقع من بعده.

ولقد توسل النبي ﷺ بالإعلام التدويني في الدعوة الإسلامية والاتصال الدولي، فبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه: «سلام على من اتبع الهدى وآمن به. إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك». ولما وصله الكتاب قال: «من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه». ولم يسلم. وبعث عمرو بن أمية الضمري ومَنْ معه من مهاجري الحبشة. ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفرًا وأجاب إلى الإسلام. كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة.

كما بعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا. أسلم تسلم فإن أبيت فإنا عليك إثم المجوس».

فمزق كسرى كتابه، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه». ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياي به. فاختر باذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك. . . وقد بعثني إليك لتنتلق معي. وقالوا قولاً تهديدياً. في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي فأخبرهما بذلك فقالا: هل تدري ما تقول؟ إننا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال: نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر،

وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء .
فخرجوا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب
بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه
أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري . وكان ذلك سبباً في إسلام شيرويه ومن
معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء .

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم، وهو
الذي بعث إلى رسول الله ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم، فكان بذلك رحم
بين العرب وأهل مصر . وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوزة بن علي
الحنفي وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين،
وعمر بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين .

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلمهم
بدعوته ويطلب منهم اتباعه، وكان هذا الإعلان سبباً في إجابة البعض وشاغلاً
لفكر الآخرين . فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد دخلت في
الإسلام، ومعظم الناس في البلدان الأخرى قد بدأوا يفكرون في هذا الدين
الجديد ويتناقلون أخباره، إلى أن تمت الفتوحات فدخلوا فيه أفواجاً إذ كانوا
قد هيئوا لذلك من قبل .

وهكذا يمكن القول إن انتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده، وإنما كان
الفتح بمثابة تمهيد الطريق أمام حرية الإعلام الإسلامي وإتاحة الفرصة أمام
رجاله ليبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة، لأن الرسول ﷺ بعث رحمة للعالمين،
وكان العالم في تلك العصور يئن تحت نير ظلم الطغاة والباطرة المستبدين
الذين لا يقرون حرية الإعلام الإسلامي، ولا يمكنون الرسول عليه الصلاة
والسلام من أداء رسالته، ومن هنا كانت فريضة الجهاد . يقول الله تعالى في
كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (١) .

(١) سورة النساء، الآية ٧٦ .

الجهاد وحرية الاعلام الاسلامي

فحرية الإعلام الإسلامي تقتضي الجهاد بهدف الحفاظ على الإيمان بالله ونشر كلمته، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهَ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١).

فوعده الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره أمر قرره القرآن الكريم، ويصفهم الله تعالى بأنهم إذا مكن لهم في الأرض وهباً لهم حرية الإعلام الإسلامي حققوا إيمانهم بالله في مظاهره من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء رسالة الإعلام الإسلامي من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، يقول الله في كتابه الكريم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٢).

ومن هنا كانت الفتوحات الإسلامية تمهيداً لحرية الإعلام الإسلامي، فأقبل الناس في مشارق الأرض ومغاربها على اعتناق الإسلام لقوته الذاتية، وما يتضمنه من مبادئ كريمة ومثل عليا. وكان أمام رجال الإعلام الإسلامي في عهد الرسول ﷺ ومن بعده، في حياته أسوة حسنة، وما تدل عليه من دلالة عميقة في مسيرة الدعوة الإسلامية... الدعوة إلى هداية الله. وليس هناك تغيير عن الإخلاص الكامل لله أبلغ من أن تكون حياة صاحب الدعوة إليه كلها وفقاً على عبادته والتوجه إليه، بحيث يصبح صاحب الدعوة المثل الأول للإنسان المؤمن منهجاً وتطبيقاً.

(١) سورة الحج، الآيات ٣٨ - ٤١.

(٢) سورة الحج، الآية ٦٢.

ظهر هذا المغزى العميق في انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية أولاً ثم ما سمع عنه الفرس والروم وعن انتصاراته وعن مبادئه السمحة بعد ذلك، لأنهم لأول مرة يسمعون عن دين يدعو إلى المساواة بين الناس ولا يجعل فضلاً لعربي على أعجمي إلا بالتقوى فكان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة حتى اضطر القائد الفارسي في نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا، وسميت هذه الموقعة «موقعة ذات السلاسل»، وفعل الروم مثل ذلك أيضاً.

وانتشر في فارس مبدأ الحق الإلهي المقدس، وكانوا مع الروم في معارك متصلة، وكانت الشعوب تضج تحت حكم الرومان، ولذلك كثيراً ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم في الكفاح.

يروى البلاذري أن المسلمين بعد أن أخلوا حمص أعد الرومان جيشاً كبيراً ليستعيدوا به هذه المدينة، ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم. ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم. وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا.

ويقول كيرك^(١) Kirk إن غمار أهل المدن والريف في دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين، فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم، ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باضطباعها الصبغة الرسمية دخلت في دور الجمود المسيطر على رجال الحكم. ولم يبق في الكنيسة شيء من الإخاء الذي امتاز به صدر المسيحية، وحصل انشقاق في الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه، ولو أنه اتخذ شكلاً دينياً حول تفسير طبيعة المسيح. ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق

M. Kirk: A short History of The Middle East, p.29.

(١)

موجز تاريخ الشرق الأوسط، ص ١٤، د. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم، فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية. فالتفت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد، وتطورت الأمور في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذي يجعلها لقمة سائغة لأي فاتح يعرض عليهم من الحرية في شؤونهم ما لم ينالوه على يد أباطرة الرومان.

«وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق، وكان الاضطهاد الديني ببلاد الفرس على أشده. وضعف سلطان الساسانيين الذي امتدَّ حوالي أربعة قرون، وزال حكم يزيدجرد الثالث آخر ملوكهم وكان شاباً في الحادية والعشرين قليل التجارب ورث دولة ضعيفة لا يستطيع السير بها في ركب الحياة».

وفي ضوء هذه الاعتبارات كانت الفتوحات الإسلامية سبيلاً لتوفير حرية الإعلام الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ونذكر هنا ما قاله الدكتور حتي في كتابه تاريخ العرب:

«وكان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر، فقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحتها سطوة الغريب، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ما فيه لا في ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضاً، حيث تسنى له أن يعيد قيادته الفكرية».

ويقول كيرك^(١): «ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا

Kirk: A Short History of The Middle East, p.29.

(١)

لا يحلمون بها، وقام المسلمون بكثير من الاصلاحات التي تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والري والهندسة والجسور، وكان القانون الإسلامي يسري على المسلمين فقط، أما غير المسلمين فقد ترك الفصل في شؤونهم للقانون المدني الذي كان معمولاً به قبل الفتح، ووضع أمر تنفيذه في يد رؤسائهم الدينيين وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشؤونها المالية، ذلك النظام الذي ظل سائداً في البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية، والذي لا يزال معمولاً به في الشؤون المالية في معظم ممالك الشرق الأوسط التي لم يوجد فيها القضاء بجعله مدنياً بحثاً لا دخل فيه للشريعة».

وفي هذا المناخ الذي وفره الفتح الإسلامي، قام رجال الإعلام والدعوة الإسلامية يؤدون رسالتهم الإعلامية فيتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه ومن غير إكراه، فأقبل أهل هذه البلدان على الإسلام معتنقين، وانتشر الإسلام وانتشرت معه اللغة العربية... لغة القرآن والإعلام الإسلامي، وأفاد الإعلام الإسلامي من التنظيمات الحضارية في الدولة الإسلامية، ذلك أن الإسلام دعوة إلى الحق، وهو ما جاء به القرآن الكريم خاصاً بهداية الناس ويطلب الإيمان بما أنزل فيه من تحديد للصراط المستقيم، وهو في جانب الدعوة إلى الحق لا يجعل للمؤمنين ولاية على قوم، ويمنعهم من أن يمارسوا ضغطاً أو إكراهاً في أية صورة من صور الإكراه للإيمان والإسلام.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

ومن هنا كان المنهج الإسلامي للإعلام واضحاً ومحددأ أمام رجال الدعوة الإسلامية، في توفير الحرية في مشيئة الإنسان عندما يدخل في الإسلام.

فالمنهج الإسلامي للإعلام والدعوة إذن يرفض الإكراه في الدين والعقيدة، كما يذهب إلى أن تكون الهداية واضحة تجعل قبول الإسلام

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٥.

لذاته، كما أن إطار الرسالة الإسلامية للإعلام والدعوة إطار سلمي، إطار قدوة للعمل الخير المستقيم، فلا يعظ الإعلامي الإسلامي بقول دون أن يحققه هو في سلوكه، ولا يرفع مبدأً أو شعاراً دون أن يطبقه التطبيق العملي في حياته.

وبهذا المنهج سار الدعاة ورجال الإعلام الإسلامي في كل البلدان يوجهون دعوتهم إلى الله، في إخلاص وتجرد عن الغل والحقد تجاه من لا يؤمن بهذه الدعوة بعد عرضها عليه، مسترشدين بقول الله تعالى ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

الاعلام الاسلامي في إفريقيا

ونكتفي هنا بالحديث عن انتشار الإسلام في إفريقيا بالإعلام الإسلامي وحده والذي استغرق وقتاً أطول من الفتوحات الإسلامية الأولى، حيث زاد في إفريقيا على عشرة قرون، وعن انتشار الإسلام بالإعلام والدعوة في إفريقيا يتحدث الكاتب المسيحي هوبير ديشان الذي كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بإفريقية سنوات طويلة، وشاهد بنفسه تقدم الإسلام وانتشاره.

يقول: «إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يرق على القسر، وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفردون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلا إيمانهم العميق بدينهم.

«وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول، تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين الفطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف ووسائل الانتساب إليه أيسر وأسهل، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه

(١) سورة الشعراء، الآية ٢١٦.

سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين^(١).

وإذا كان «ديشان» قد أوضح أن نشر الإسلام بإفريقية كان بالسلم فإن كاتباً غريباً آخر يؤكد أن نشر المسيحية بهذه القارة كان يتم في أكثر الأحوال قسراً وبالعنف والإلزام.

يقول سير توماس أرنولد Sir Thomad Arnold: «في سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية، وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة أنحاء المملكة، وإلزام المسلمين بالتعميد خلال ثلاث سنوات والوثنيين خلال خمس سنوات، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة، فأذاع بعد أيام قليلة مرسوماً أنذر فيه كل الموظفين المسلمين بأن المهلة الممنوحة لهم هي ثلاثة أشهر فقط».

ويعلق Massaia الذي ينقل عنه T. Arnold أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجباري ولكنه كان تنصيراً عديم الأثر، ويروي أنه شاهد بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلاً مباركاً من رجال دينهم يحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه.

ويقول الرحالة روبل Rubell إنه كثيراً ما لاحظ أثناء رحلاته ببلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص أميناً كل الأمانة موثقاً به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع على شخص مسلم^(٢).

وفي سنة ١٨٠٢ م أصدر مجلس العموم البريطاني بحثاً يؤكد فيه أن الإسلام قد سما بالإفريقيين الذين اعتنقوه إلى درجة جعلتهم قدوة للآخرين، وسبباً للدخول في الدين الإسلامي، ومن هذا البحث ما يلي:

(١) هوبير ديشان: الديانات في إفريقية السوداء، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) نقلا من توماس أرنولد: السابق، ص ١٣٩.

«منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلاً، اسمها بلاد الماندنجو، وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين «الإسلام» فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد، وجروا على عادات المسلمين وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم ببيع الرقيق، وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن واستأصلوها ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان، وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة، وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادة سريعة وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها، أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو، ويعودون معهم قسط وافر من الدين والشرعية، وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتقدير، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشاراً سلمياً في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندنجو، حاملاً تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائماً على خرافات الزنوج»^(١).

ولقد كان موقف الإسلام من الرق والتمييز العنصري سبباً من الأسباب القوية التي دفعت بالإفريقيين إلى اعتناق الإسلام الذي جعل الناس سواسية أمام الله، وكفل لهم الحرية، وأتاح لهم فرص الحياة الإنسانية الكريمة، وكل هذا لم يجده في غيره من الديانات أو النظم الوضعية.

وفي هذا المعنى يقول سير توماس أرنولد: «ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في إفريقية الزنجية تقدماً جوهرياً، بسبب عدم أي إحساس باحتكار

Claude George: The Rice of British West Africa, pp.130- 131.

(١)

الأسود. وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منخفضة كما كانت الحال لسوء الحظ في العالم المسيحي».

والى جوار ما سبق ذكره عن انتشار الإسلام بقوته الذاتية وإمكاناته الطبيعية وما يدعو إليه من قيم عليا، نجد أن الداعية الإسلامي كان مثلاً أعلى أمام هؤلاء الإفريقيين، وكانت وسائله الإعلامية إسلامية في مضمونها وشكلها ومظهرها ومخبرها، مما يجعلنا نقرر أنهم قد سبقوا كل ما ذهبت إليه النظريات الحديثة في الإعلام حول ضرورة أن يكون المصدر محل ثقة على النحو الذي فصلناه في غير هذا الموضع.

وقد وصف D.J.E. Ast الدعاة المسلمين في إفريقية بقوله «إنهم يحظون بأوفر نصيب من الإجلال... وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية داراً لاستقبالهم والخطوة بهم. وهم يعاملون بأعظم مظاهر الإقدام والتقدير، ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون أكبر مناصب الحكومة، كما يحتلون بين الماندنغو مكانة أعظم شأنًا وينالون احتراماً يلي مكانة الملك، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هبة».

وفي الدول التي اتخذ فيها القرآن أساساً للحكم في كل المسائل المدنية تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجاً شديداً لكي يفسروا معاني القرآن، وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوبون خلال إمارات يعادي بعضها بعضاً، أو يباشر أصحابها مع بعضهم البعض حرباً فعلية، ويجلهم الناس مثل هذا التبجيل لا في البلاد حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله، سواء في الحصول على حاجاتهم أو في درء المصائب وصرفها عنهم.

الإعلام الإسلامي في حاضره

نواصل في هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامي في حاضره تأسيساً على أنه حقق خلال عصور الدعوة الإسلامية وظائفه المنشودة، متوسلاً بكل الوسائل الإعلامية المتاحة شفهاً أو تدوينياً أوهما معاً.

تطور الإعلام الإسلامي في وسائله

ومن ذلك مثلاً أن الإعلام الشعري كان من الوسائل التي تجمع بين خصائص الحضارة السمعية والحضارية التدوينية، فقامت قصائد حسان بن ثابت بدور كبير في مناصرة صاحب الدعوة الإسلامية، ثم في عصر بني أمية وجد ما يسمى بالشعر السياسي على نحو ما نعرف عن جرير والفرزدق والأخطل والراعي، وازدهر هذا الشعر في العصر السياسي الذي استخدم في الدعاية المذهبية للسنة، أو المعتزلة، أو الشيعة والخوارج، ثم في عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك، وهي العهود التي شهدت الحروب الصليبية، كان للشعر المكان الأول في الإعلام والدعاية، وبالشعر كما بالسيف نجح الفاطميون في مصر، وبالشعر كما بالسيف نجح صلاح الدين وأولاده في محاربة الصليبية وفي التغلب عليهم وطردهم من البلاد الإسلامية.

وبقيت للإعلام الشعري مكانته ووظيفته السياسية والاجتماعية والإعلامية والدعائية إلى يومنا هذا، ففي كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية والاجتماعية الخطيرة، نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفي .

أما الدور الذي لعبه الإعلام الخطابي دينياً وسياسياً في تاريخ العرب الديني والسياسي، فلا يقل في خطورته عن دور الإعلام الشعري ما لم يكن أكبر منه، فالإعلام الخطابي منذ ظهور الإسلام وسيلة أساسية للإعلام الإسلامي اعتمد عليها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام في نشر الدين الجديد، وفي شرح المبادئ التي نادى بها في الجزيرة العربية.

واعتمد الإعلام الإسلامي الخطابي عبر العصور وحتى عصرنا هذا، حيث أفاد من الوسائل التكنولوجية، وفي التراث الإسلامي نماذج رفيعة للإعلام الخطابي على نحو ما يتضح في خطب الإمام عليّ كرم الله وجهه، وفي خطب الراشدين والدولة الأموية والعباسية، بل وفي خطب الحروب الصليبية حيث بلغ الإعلام الخطابي الديني السياسي مداه في إثارة المشاعر والخواطر، وفي التهينة للحرب، وإذا ما انطلق النفير العام للقتال ارتفعت أصوات الخطباء في المساجد الكبرى في كل من القاهرة ودمشق أو القدس، وذلك لتحسيس المسلمين وتهيتهم للجهاد في سبيل الله، حتى إذا انتصر الجيش الإسلامي تسابق الخطباء إلى إلقاء الخطب التي كان أشهرها وأروعها إذ ذاك ما يُلقى في المسجد الأقصى، وكما نجد الشعراء في الوقت نفسه يتسابقون كذلك إلى نظم القصائد التي تثني على الأبطال، وقد عرفت القصائد التي نظمت في تهنة صلاح الدين مثلاً بانتصاراته على الصليبيين في يوم حطين، باسم مشهور في تاريخ الأدب العربي هو «القدسيات» .

فالإعلام الخطابي في رأينا مظهر من مظاهر الاتصال الشخصي الذي هو أخطر وسائل الإعلام قديماً وحديثاً، ولذلك وجدنا هذه الوسيلة الإعلامية لا تختفي في عصر الوسائل التكنولوجية، بل إن الإذاعة والتلفزيون والصحف

تحرص جميعاً على تسجيل هذه الخطب وإذاعتها بهدف توسيع الحوار ليشمل الناس جميعاً.

فلقد أفاد الإعلام الإسلامي إذن من هذه الوسائل ومن غيرها، كالكتاب والمناظرة والندوة، وكل وسائل الاتصال المتاحة في عصور الحضارة السمعية والتدوينية، وحينما يطل عصر الحضارة الطباعية تصبح الصحافة علامة من علامات الإعلام الحديث والمعاصر.

الإعلام الإسلامي في العصر الحديث

ولكن الإعلام الإسلامي إذ متاح له وسائل اتصال جديدة، قد مر في العصر الحديث بثلاثة أدوار:

محمد بن عبد الوهاب . . . ويقظة الإعلام الإسلامي

الدور الأول: وهو ما يمكن أن نطلق عليه «يقظة الإعلام الإسلامي»، حيث انبعثت الدعوة الوهابية من قلب الجزيرة العربية مطالبة بتجديد العقيدة السلفية والرجوع بالدين إلى أصوله الأولى، والابتعاد عن البدع الدخيلة. فكان لهذه الدعوة أثر كبير في نفوس المسلمين، إذ بعثت فيهم روحاً جديدة، وأحدثت يقظة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.

وفي توضيح هذا المغزى يقول العالم الإسلامي الشهير أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»:

«ورأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي، أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ودخله الكثير من الفساد.

«فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم، والمسيطر عليه وواضع قوانينه التي يسير عليها، والمشرع له، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في حكمه ولا مَنْ يُعِينُهُ على تصريف أموره، لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عَوْنٍ أحد مهما كان من المقررين إليه، هو الذي بيده

الحكم وحده وهو الذي بيده النفع والضرر وحده لا شريك له، فمعنى لا إله إلا الله ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسيّر العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو، وليس في الوجود مَنْ يستحق العبادة والتعظيم إلا هو، وهذا هو محور القرآن ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

إذن فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة، إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه! فهذه الأولياء يحج إليها وتقدم لها النذور ويعتقد أنها قادرة على النفع والضرر، وهذه الأضرحة التي لا عداد لها تقام في جميع أقطاره يشد الناس إليها رحالهم ويتمسحون بها ويتذللون لها ويطلبون جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم. ففي كل بلدة ولي أو أولياء، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة، تشترك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير، وكأن الله سلطان من سلاطين الدنيا يتقرب إليه بذوي الجاه وأهل الزلفى لديه، ويرجحون في تغيير القوانين وقضاء الحاجات، أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٢) وقولهم ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣)؟ بل وأسفاه لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد، فهؤلاء أهل بلدة متفوحة باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة مَنْ قصدها من العرائس تزوجت لعامها، وهذا الغار في الدرعية يحج إليه الناس للتبرك، وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا، ففي مصر شجرة الحنفي ونعل الكلشنى وبوابة المتولي^(٤). وفي كل قطر حجر وشجر، فكيف يخلص التوحيد من كل هذه العقائد؟

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) سورة الزمر، الآية ٣.

(٣) سورة يونس، الآية ١٨.

(٤) شجرة الحنفي، شجرة كانت في جامع الحنفي بالقاهرة يتبرك بها، ونعل الكلشنى نعل قديمة في تكية =

«إنها تصد الناس عن الله الواحد وتشرك معه غيره، وتسيء إلى النفوس وتجعلها ذليلة وضيفة مخرفة، وتجردها من فكرة التوحيد وتفقدتها التسامي».

هكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك، وفكرة التوحيد في التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة.

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب، وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات.

اقتفى محمد بن عبد الوهاب في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ظهر في القرن السابع الهجري في عهد السلطان الناصر هو «ابن تيمية»، وهو - مع أنه حنبلي - كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة. وكان حر التفكير في حدود الكتاب وصحبة السنة، ذلق اللسان، قوي الحجة، شجاع القلب لا يخشى أحداً إلا الله، ولا يعبأ بسجن مظلم ولا تعذيب مرهق، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة، ولم يعبأ بما ورد في الكتاب والسنة، وخالف إمامة أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك.

ويظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية، فأعجب به وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويسدرها، وفي المتحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب. دعا «محمد عبد الوهاب» مثله إلى ترك البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة، ولا بوساطة توصل ولا شفاعة، وزيارة القبور تكون للعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله وقوانينه الثابتة التي لا تختلف، والتي نظم الله بها الكون، فالذبح للقبور، والنذور لها، والاستغاثة بها، والسجود عندها شرك لا يرضاه

= الكلثني يزعمون أن الماء إذ شرب منها ينفع للتداوي من العشق، وبوابة المتولي بالقاهرة أيضاً مملوءة بالمسامير بها تعلق الشعور والخيوط لقضاء حاجة من علقها.

الله، وهو هدم للتوحيد الذي جاء به الإسلام من أساسه، ومثل ذلك تجصيص القبور وبناء الأضرحة وتشيد الأبنية عليها وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك، فكل هذه لا يعرفها الإسلام.

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام من عادات وتقاليد، فلا اجتماع لقراءة مولد، ولا احتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنازة، ولا إقامة أذكار يغنى بها ويُرقص، ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع.

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال، ويجب أن يعود إلى الإسلام بساطته الأولى ونقاؤه وجاذبيته، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك فلا إله إلا الله معناها كل ذلك، والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد كدلائل الخيرات وما في البردة من مثل قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
وقوله؛

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
ونحو ذلك من أقوال فاسدة كاذبة، فلا التجاء إلى الله، ولا اعتماد إلا على الله سواء كان في الدنيا أو الآخرة.

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن لحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسياتهم ليس له سبب إلا العقيدة، فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدها صافية نقية من أي شرك، وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق، وعدم الخوف من استنكار المنكر، والأمر بالمعروف

مهما تبع ذلك من عذاب، ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رَفْعِ لواء الحق ودَفْعِ الظلم، وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحموا، ثم ماذا؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة، فانحدروا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء! وركنوا إلى ذلك في حياتهم العامة، فالزراع ينجح لرضاء ولي، ويخيب لغضبه والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوي أو مثله، وتموت إذا لم تنذر، وهكذا في الأمراض والعلل والغنى والفقر كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها، ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذلل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة الحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر، فذلوا للحكام والأغنياء، كما ذلوا للخشب والأحجار، وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عدداً وتزداد النفوس ذلة، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فَقْدِ سيادتها وانهايار عزتها، ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحققة، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات - باللين إن نجح وبالقوة إن لم ينجح - والله المتسعان»

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها، ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس هما القلب إن صلحا صلح كل شيء، وإن فسدا فسد كل شيء.

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب.

وتناول الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية، الدعوة في بحث نشره سنة ١٣٥٤ هـ عن الحياة الأدبية في جزيرة العرب، وهذا ما قاله عنها:

«ولا يستطيع الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثاني عشر الميلادي، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب واضطرته أن يهتم بأمرها، وأحدثت فيها آثاراً خطيرة هان شأنها بعض الشيء، ولكنه عاد فاشتد في هذه الأيام وأخذ يؤثر لا في الجزيرة العربية وحدها، بل في علاقاتها بالأمم الأوروبية.

«هذه الحركة هي الحركة الوهابية التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد، نشأ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفقه وقضاء، تثقف على أبيه ثم رحل إلى العراق فسمع من علماء البصرة وفقهائها، وأظهر فيها آراءه الجديدة القديمة معاً، فسخط عليه الناس وأخرج من البصرة، وكان يريد أن يذهب إلى الشام فحال الفقر بينه وبين ذلك، فعاد إلى نجد وأقام مع أبيه حيناً يناظر ويدعو إلى آرائه، حتى ظهر أمره وانتشر مذهبه وانقسم الناس فيه قسمين فكان له أنصار وكان له خصوم، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ليجيروه، ويجمعوا دعوته، حتى انتهى به الأمر إلى الدرعية. وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وباعه على المعونة والنصرة، ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهباً رسمياً يعتمد على قوة سياسية تؤيده وتحميه. بل تنشره في أقطار نجد بالدعوة اللينة حيناً وبالسيف والحرب في أكثر الأحيان.

«وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت في الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها، واشتد خطرهما حتى أشفق منها الترك أشد الإشفاق قاوموها ما وسعتهم المقاومة، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين، وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي باشا، فنجح المصريون في إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة وردّ أمرائها إلى ما كانوا عليه من قبل ذلك الوضع. فلا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد لنعرف ما هو وما مبلغ تأثيره في الحياة العقلية العربية في هذا العصر الحديث.

«قلت إن هذا المذهب جديد وقديم معاً، والواقع أنه جديد بالنسبة إلى

المعاصرين، ولكنه قديم في حقيقة الأمر، لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل الشوائب والشرك والوثنية، وهو دعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ملغياً كل واسطة بين الله وبين الناس، هو إحياء للإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب، فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة... كانوا يعظمون القبور ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله، ويعظمون الأشجار والأحجار ويرون أن لها من القوة ما ينفع ويضر، وكانوا قد عادوا إلى سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة، وأصبح الدين اسماً لا معنى له، فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقاً، على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً.

«ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد في نجد قد أحاطت به ظروف تذكر بظهور الإسلام في الحجاز، فقد دعا إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس، ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب وتعرض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبي نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي إلى المدينة، ولكن ابن عبد الوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة وأصحابها أداة لدعوته، فلما تم له هذا دعا الناس إلى مذهبه فمن أجاب منهم نجاء، ومن امتنع أغرى عليه السيف وشب عليه الحرب، وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم في سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبي وهاجروا معه.

«ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها، لكان من المرجح أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول.

«ولكن الذي يعيننا من أمر هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواح مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلاً أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان، وهو قد لفت المسلمين جميعاً - وأهل العراق والشام بنوع خاص - إلى جزيرة العرب».

وتناول الأستاذ عباس العقاد في كتابه «الإسلام في القرن العشرين» حركة الإصلاح هذه، وقال ما نصه:

«وظاهر في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقي في رسالته عنتاً فاشتد كما يشتد مَنْ يدعو غير سميع، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع، والتماس المصالح بغير أسبابها، وإتيان المسالك من غير أبوابها، وقد مرَّ على البادية زمن كانوا يتكلمون فيه على التعاويذ والتمايم وأصاليب المشعوذين والمنجمين، ويدعون السعي من وجوهه توسلاً بأباطيل السحرة والدجالين، حتى الاستسقاء، ودفع الوباء، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان البدع والخرافات».

وقال أيضاً في الكتاب نفسه وهو يتكلم عن كتاب التوحيد تأليف الإمام ما يلي:

«إن الكتاب الذي تضمن دعوة الشيخ - وفيه يحصي الشيخ الذنوب التي تكفر صاحبها وتعتبر شركاً بالله، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحرار والأولياء».

«ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه».

«ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمايم للوقاية، والتبرك بالشجر والحجر والذبح لغير الله، والنذر لغير الله، والاستعانة بغير الله، والعبادة عند القبور، وأن الغلو في عبادة الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، وأن الكهانة

والعيافة والتبطير والتنجيم من الشيطان، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التي تحرم الاستسقاء بالأنواع وأنكر على الصوفية تأويلاتهم وخوارقهم، واستشهد على تحريم الصور بقوله عليه السلام فيما يرويه عن ربه: ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقي؟ ويقول عن عائشة: أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. وحذر من المغالاة في تعظيم النبي عليه السلام مستشهداً بقول أنس: إن ناساً قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن سيدنا. فقال: أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل.

«وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو. وقوله عليه السلام: هلك المتنتعون، هلك المتنتعون، هلك المتنتعون».

وأدى الأستاذ أحمد حسين العالم المصري ومؤسس حزب مصر الفتاة فريضة الحج في سنة ١٩٤٨ م / ١٣٦٧ هـ، ثم أصدر بعد عودته كتاباً فيما جعل اسمه «مشاهداتي في جزيرة العرب»، وهاك ما كتبه عن الدعوة ومؤسسها العظيم، قال بعد أن وصف ما كانت تخب فيه جزيرة العرب من جهالة قبل ظهور الدعوة ما يلي:

«وفي وسط هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب، كان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضي بلدة العيينة وكان شيخاً عالمًا جليل القدر فقراً على أبيه الفقه وسرعان ما ظهرت عليه علائم النجاسة، وبدأ يدرك على الفور ما تردت فيه البادية من همجية وردة عن دين الإسلام، وبدأت تجيش نفسه بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هذا الحال فما إن بلغ من العمر عشرين ربيعاً حتى بدأ يستخدم فصاحته وعلمه في مناقشة انداده وأضرابه - بل ومنهم أكبر منه سناً - في فساد الحال، فلم يجد منهم أدناً مصغية، خوف بطش العامة وطغيانهم».

وبعد أن ذكر سفر الشيخ إلى الحجاز وأدائه فريضة الحج، وذهابه إلى

البصرة ورجوعه ثانية إلى نجد، وهجرته إلى الدرعية واستقراره فيها واتفاقه مع محمد بن سعود، ختم هذا البحث بقوله:

«تلك هي قصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما بدأت والتي لم تكمل حتى الآن، فلا يزال أحفاد محمد بن سعود وأحفاد الشيخ محمد يحملون لواء التوحيد وينافحون عنه، وإذا كان العالم الإسلامي كله اليوم تحت تأثير النور والعرف فإنه قد بدأ يدرك بفطرته هذا الذي دعا إليه محمد بن عبد الوهاب ويتعشقه فسيظل التاريخ يسجل لآل سعود الذين كانوا أول من نصره واستجاب له».

وقال الأستاذ فيليب حتي وهو مؤرخ لبناني في كتابه «تاريخ العرب»:

«ولقد تأثر محمد بن عبد الوهاب بفكرة هي أن الإسلام كما يمارسه معاصروه قد انحرف كثيراً عملياً ونظرياً عن طريق السنة التي استنها القرآن، وقرر أن ينقيها هو بنفسه».

وقد تناول المستر لوثرروب ستودارد الأميركي في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» وقد عرّبه الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان حركة الإصلاح الديني فقال:

«بلغ العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري أعظم مبلغ من التضعف ومن التدني والانحطاط، فاربذَّ جوهُ، وطبقت الطمة كل صقيع من أصقاعه ورجاء من أرجائه، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، أما الدين فقد غشيته غاشية سوداء فألبست الوجدانية التي علمها صاحب الرسالة من الخرافات والقشور من الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء والجهلاء، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمانم والتعاويد والسبحات، ويؤمنون الناس بالأباطيل والشبهات، ويرغبون في الخروج إلى قبور الأولياء، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور».

«وغابت عن الناس فضائل القرآن، ونال مكة والمدينة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الإسلام لغضب.

«وبينما العالم الإسلامي مستغرق في هجعتة، ومدلج في ظلمته، إذا بصوت يدوي من قلب الصحراء في شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام، فيوقف المؤمنين، ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل، والصراط المستقيم، فكان الصاروخ لهذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب، الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت، ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القويم».

وقد تناول المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» الحركة الوهابية بالدرس والتحليل في الجزء الرابع، وهذا ما قاله:

«واصطدم محمد علي باشا بحركة انبعاث وطنية كبرى... ومفصل ذلك أنه ولد في نجد المرتفعة في قلب جزيرة العرب محمد بن عبد الوهاب من قبيلة تميم، ما بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (م)، ونشأ محباً للعلم، واقفاً نفسه على دراسة الفقه والشريعة، وقصد وفقاً للعادة القديمة إلى عواصم الشرق الإسلامي طلباً للعلم في مدارسها، وفي بغداد درس فقه الإمام أحمد بن حنبل^(١) مؤسس آخر المذاهب السنية الأربعة، والذي دافع بشدة وثبات عن مبدأ الأخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتماداً كلياً، ضد نزعة الفقهاء القائلين بالأخذ بالرأي.

«ثم درس مؤلفات الشيخ ابن تيمية الذي كان قد أحيى في القرن الرابع

(١) لم يثبت أنه زار بغداد.

عشر تعاليم ابن حنبل، والواقع أن دراسته لأراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيمان بأن الإسلام في شكله السائد في عصره، وخاصة بين الأتراك، مشرب بالمساوئ التي لا تمت إلى الدين الصحيح بنسب. فلما ذهب إلى بلده الأول سعى أول ما سعى إلى أن يعيد إلى العقيدة والحياة الإسلامية صفاءهما الأصلي في محيطه الضيق، ولكنه لم يكن ينكر مظاهر التقديس التي كان يحاط بها «سعد» وهو الولي الخاص بمسقط رأسه «العينة» ويفرض بين أتباعه القصاص المفروض على الزانية، حتى نفي من البلاد فلجأ في سنة ١٧٤٠ م إلى الدرعية فلقى حفاوة وترحيباً، حتى إذا انقضت فترة قصيرة اكتسبت تعاليمه أنصاراً ومريدين. ولقد أنكر تقديس الرسول والأولياء على اختلاف صوره وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قرون تقليداً للنصرانية - وبعض الطقوس الدينية الأكثر بدائية، رامياً بالشرك أولئك المسلمين الذين يشاركون في هذا التقديس، والذين يأذن القرآن بحربهم حتى يرجعوا عن غيهم أو يبادروا.

«وأخذ الشيخ اتباعه بأداء صلاة الجمعة في شدة لا تعرف الرحمة، ونهى عن كل زينة في اللباس، وعن لبس الحرير خاصة، وحرم أيما تزيين أو زخرفة للمساجد والأضرحة، وليس فحسب بل لقد توسع في فهم التحريم الإسلامي فمختلف ضروب المسكر، فحرم تدخين التبغ الذي أعلن جميع الفقهاء تقريباً من الحنابلة معارضتهم له أول دخوله إلى بلاد الشرق».

«والواقع أن هذا المصلح كان يتأسى بسيرة الرسول ويحذو حذوه، وينحو نحوه في التفكير، وكان الرسول قادراً على إلهاب نار الحماسة في قلوب أصحابه وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب في سبيل قضيته».

وقال الدكتور «أكوبرت فون ميكوس» المؤرخ الألماني في كتابه «عبد العزيز» وقد صدر في ألمانيا سنة ١٩٥٣ ونقله إلى العربية الدكتور أمين رويحة على الحركة الوهابية ما نقله بحروفه:

«وكان لآل سعود إلى جانب سيفهم الذي يستخدمونه في الفتح، سلاح

معنوي آخر يدينون له بأعظم قسط من نجاحهم، ذلك السلاح من صنع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد رجال الدين المطاردين في سبيل عقيدتهم، والذي لجأ إلى «الدرعية» عاصمة آل سعود في ذلك الحين فلقى لديهم الحماية والأمان.

«وكانت تملأ قلب محمد بن عبد الوهاب فكرة تجديد القوى العربية على أساس ديني، ناسباً إلى ابتعادهم عن سيرة السلف الصالح وأنفاسهم إلى شيع، وإلى ابتعادهم عن خلقهم العربي الأصيل سبب تلاشيهم الذي جعلهم في متناول النفوذ الأجنبي، وقد لمس الشيخ محمد في رحلاته المتعددة، وشاهد بأم عينيه ضعف المسلمين وعجزهم عن مقاومة سلطان الغرب الذي كان يتغلغل أكثر فأكثر، حتى أصبحوا ضحايا رخيصة للمدنية الغربية».

«ورأى الشيخ أن سبيل الإنقاذ هو الرجوع إلى تعاليم الدين المشروعة. . إلى تعاليم الرسول الصحيحة، فراح يشر بوحى من ضميره وعقيدته بمحاربة البدع التي أدخلت على الإسلام عبر العصور الغابرة، والضال المضل من تقارير علماء الدين، غير مقيم وزناً إلا لما نص عليه القرآن صراحة، أو لما يمكن نسبته بصورة قاطعة للنبي محمد، وراح يحارب بكل قواه المستمدة من عقيدته الصلبة تقديس الأولياء وجعلهم واسطة بين الله والناس، وينادي بهدم الأضرحة ومزارات الأولياء وإزالة معالمها، اقتداء بالنبي الكريم الذي يحارب بدعة تقديس الهياكل وعبادة الأصنام الموروثة من الجاهلية، كذلك كان يحارب الميوعة والبهرجة في اللباس وطريقة العيش، والمظهر، والتنعم بالملاذ الدنيوية، وهي متع بخلت الطبيعة إلا بالقليل منها على الجزيرة العربية، لذلك كان الحصول عليها يقتضي الخضوع للأجنبي، وكان هدفه أن يجعل من بلاد العرب ومن موطن الإسلام مصدر بعثته الجديدة، فيتمرس أبناءها بالحياة البدائية القاسية، ويتمسكون بوحداية الله الذي هو مصدر كل شيء في الوجود.»

«وكان مثل هذه الأفكار يجول في أذهان آل سعود عندما لجأ إلى

حماهم ذلك المبشر المطارد، وتبنوا تعاليمه فقدموا لدعوته السيف الذي يحتاج إليه، والذي مهد لها طريق الانتشار، فإذا بالحركة الوهابية التي سُميت باسم مؤسسها عاصفة تجتاح البلاد العربية جميعاً.

«وبلغت الدعوة أوجها إبان حكم سعود الكبير في القرن التاسع عشر، الذي تم له احتلال الجزء الأكبر من الجزيرة، حتى لكأن موكب النصر الوهابي يسير بحيث لا يتمكن أحد من الوقوف في وجهه، وفي نفس الوقت الذي كان فيه عرش السلطان «الخليفة» الذي داوم ٤٨٨ سنة مهدداً بالزوال، لاح أن نجم الحركة العربية الذي خبا وتوارى وراء الغيوم ماث السنين يوشك أن ينبثق ولكن الوقت لم يكن قد حان، كما أن الإنسان العربي لم يكن قد تم نضجاً لذلك بعد».

وقال المستشرق الأستاذ ويلفرد كانتول في كتاب «الإسلام في نظر الغرب» ألفه جماعة من المستشرقين: «كان محمد بن عبد الوهاب يقول قبل كل شيء يجب أن تعيشوا حسب الشرع الإسلامي، وهذا هو معنى أن تكونوا مسلمين، لا ذاك السرغاء العاطفي والنفسي والحرارة التي يقدمها لكم الصوفيون، فأساس الإسلام هو الشرع، وإذا كنتم تريدون أن تكونوا مسلمين فيجب أن تعيشوا حسب أوامر الشرع».

وقال برنارد لويس في كتابه «العرب في التاريخ» ما يلي:

«وباسم الإسلام الخالي من الشوائب الذي ساد في القرن الأول، نادى محمد بن عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما أضيف للعقيدة والعبادات من زيادات باعتبارها بدعاً خرافية غريبة عن الإسلام الصحيح».

وقال شيخ المستشرقين جولد تسهير النمسوي في كتابه «العقيدة والشرعة» ما يلي:

«وإذا أردنا البحث في علاقة الإسلام السنّي بالحركة الوهابية، نجد أنه مما يسترعي انتباهنا خاصة من وجهة النظر الخاصة بالتاريخ الديني الحقيقة

التالية: يجب على مَنْ ينصف نفسه للحكم على الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصاراً للديانة الإسلامية على الصورة التي وضعها النبي والصحابة، أن الوهابية تريد إعادة الإسلام كما كان».

وقال المستشرق الفرنسي سيدو في كتابه «تاريخ العرب العام» وهو يتكلم عن الوهابية وسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «فرأى الشيخ أنه إذا حمل المسلمين على مراعاة أحكام القرآن بأحكام، رجعت إليهم تلك الحماسة التي تعود بها شريعة الرسول الخالصة إلى سابق عهدها».

وقال المستشرق البريطاني «جب» في كتابه «المحمدية»:

«وفي جزيرة العرب قام حوالي سنة ١٧٤٤ م (١١٥٧ هـ) محمد بن عبد الوهاب مع أمراء الدرعية آل سعود، لتحقيق الدعوة إلى المدرسة «المذهب» الحنبلية التي دعا إليها ابن تيمية في القرن الرابع عشر».

وقال أيضاً في كتابه «الاتجاهات المدنية في الإسلام»:

«أما في مجال الفكر فإن الوهابية بما قامت به من المقاومة ضد التدخلات العدوانية، وضد الأصول القائلة بوحدة الوجود في الإسلام، فقد كانت عاملاً مفيداً للمخلص الأبدي، وحركة تجديد أخذت تنجح في العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً».

وجاء في دائرة المعارف البريطانية وهي تتكلم عن الوهابية ما يلي:

«الوهابية اسم لحركة التطهير في الإسلام، والوهابيون يتبعون تعاليم الرسول وحده ويهملون كل ما سواها. وأعداء الوهابية هم أعداء الإسلام الصحيح».

النهضة الإعلامية الإسلامية

الدور الثاني: وهو ما يمكن أن نطلق عليه «دور النهضة الإعلامية الإسلامية» وفي هذه المرحلة قام كثيرون من دعاة الإصلاح في معظم بلاد

العالم الإسلامي، حيث أثارت دعوة الحق التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب بعثاً جديداً في الأمة الإسلامية بأسرها، وسرت تعاليمها إلى اليمن والعراق والسودان وشمال أفريقيا، وانتشرت كذلك في بقاع نائية مثل نيجيريا وسومطره^(١)، فظهر في اليمن الإمام الشوكاني^(٢) وسار على نهج الإمام محمد بن عبد الوهاب في دعوته واجتهاده، وأصبح له في اليمن تلاميذ ومريدون، وكانت دعوة «السيد أحمد» في الهند دعوة وهابية خالصة^(٣) فكان يدعو إلى نظام الإسلام الكامل، وتنفيذ الشريعة في الأرض، ومحاربة البدع والخرافات.

«ومع أن حركته لم تنجح في إقامة نظام الإسلام وتأسيس بنيان الحمية الإسلامية الراشدة المنشودة، فإنها نجحت في إيقاظ الحمية الإسلامية وبعث الهمم الراكدة»^(٤).

وانتشرت في الأمة الإسلامية الحركات الإصلاحية التي تدعو إلى العودة إلى المنابع الإسلامية الأولى، وكان بعض هذه الحركات الإصلاحية متأثراً بالدعوة الوهابية، مثل السيد أحمد في الهند، والإمام الشوكاني في اليمن، وكان البعض الآخر متأثراً بالحضارة الغربية التي بدأت تسرب إلى البلاد الإسلامية، مثل السيد أحمد خان، والسيد أمير علي، ومدحت باشا، ومليكم خان، وغير هؤلاء كثيرين، كما تأسست الطرق الدينية المختلفة مثل السنوسية والقادرية والتيجانية والشاذلية^(٥).

الإعلام الإسلامي والجامعة الإسلامية

الدور الثالث: وهو الذي تطورت فيه التيارات الفكرية والحركات

(١) د. عبد الباسط محمد حسن: ص ٦٨.

(٢) عبد المتعال الصعيدي: المجددون في الإسلام من القرن الأول، ص ٤٧٢ - ٤٧٥.

(٣) د. عبد الباسط محمد حسن: ص ٦٨.

(٤) الندوي: نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، ص ٥٣.

(٥) د. عبد الباسط محمد حسن: ص ٦٩.

الإصلاحية حتى أخذت صورتها الأخيرة التي عرفت باسم «الجامعة الإسلامية»، وفي هذا الدور ظهر جمال الدين الأفغاني ولواء بين مختلف التيارات التي ظهرت في الأمة الإسلامية، ودعا إلى تكوين جامعة إسلامية بعد أن تبلورت آراؤه في الإصلاح في المرحلة الأخيرة من حياته، حينما أصدر جريدة «العروة الوثقى» في باريس، وهذه الدعوة إلى الجامعة الإسلامية كان لها مظهرها السياسي من جهة، والاجتماعي من جهة أخرى، فمن الناحية السياسية دعا إلى الوحدة الإسلامية وتمكين الألفة بين المسلمين، وتقوية الروابط بينهم حتى يعودوا كما كانوا إخواناً متآلفين يجمعهم لواء دولة واحدة عظيمة، يقول جمال الدين من مقال «الوحدة الإسلامية» المنشور بجريدة «العروة الوثقى» ص ١٥٣ :

«فالمسلمون لا يحتاجون في صيانة حقوقهم إلا إلى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه، وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار».

وعلى المسلم أن يأخذ بيد أخيه وأن ينظر إليه بما حكّم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب».

«وإن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الإسلام، كل هذه الصفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة».

ثم يسأل الله تعالى «ثباتاً للمسلمين على أصول الاتحاد وقواعد الألفة، وأن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف في المسائل الثانوية سبباً في حل الجامعة الإسلامية التي قوامها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محق ملتهم وإفساد ولايتهم... والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل».

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

ومن الناحية الاجتماعية اتجه جمال الدين إلى التجديد الديني لمواجهة الحملات العنيفة التي شنّها الأوروبيون على الإسلام، وما تضمنته من أكاذيب ومفتريات، وما ذهب إليه مبشروهم المسيحيون إلى إتهام الإسلام بأنه غير قابل للإصلاح والتجديد .

جمال الدين الأفغاني وتجديد الإعلام الإسلامي

وتأسيساً على هذا الفهم اتجه جمال الدين بدعوته إلى التجديد الديني، وطالب المسلمين في «الرد على الدهريين» بتحقيق نهضة دينية ثلاثية مقتضيات العصر الحديث، وذلك بأن «تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة»، وقال: «إن الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبراهين في أصول دينهم، وكلما خاطب العقل، كلما احتكم إلى العقل»، ثم طالب جمال الدين بأن يكون في كل أمة تنظيم إعلامي إسلامي تتولاه طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيفها، ذلك أن الإعلام الإسلامي عند جمال الدين يقوم على أساس أن «الإسلام لم يكن عقبة في سبيل أي لون من ألوان المعرفة»، بخلاف أكاذيب «رينان» الذي قال: «إن الإسلام لا يشجع على العلم والبحث الحر»، ولذلك رد عليه جمال الدين ردّاً علمياً أفحمه وجعله يتنازل عن كثير من هذه الترهات .

فالإعلام الإسلامي - إذن - في هذا الدور دعا على يد جمال الدين المستتيرين من المسلمين إلى النظر في حالتهم لتحقيق نهضة دينية ثلاثية مقتضيات العصر الحديث، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً، وأن يتقدم تقدماً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العلمية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية .

ولقد كانت «الجامعة الإسلامية» نتاجاً للإعلام الإسلامي في هذا الدور التاريخي، وهي الجامعة التي تنظر لوحدة العالم الإسلامي على أساس من رابطة الدين، ورابطة الحج، ورابطة الخلافة .

فالإسلام دين وجامعة، آخى بين المسلمين وجعلهم بنعمته إخواناً، فهو يسمو بهم فوق مستوى الأمم والعصبيات والأجناس، ويدعوهم إلى الاتحاد بقوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»، «لا عصبية في الإسلام».

يقول جمال الدين: «وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملَّتْهم، وذلك أيسر ما يكون عليهم من بعد تمكين الجامعة الدينية بينهم،... وإن لدى المسلمين شدة في دينهم، وقوة في إيمانهم وثباتاً على عقيدتهم وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض».

«وإن اتفقوا فليس ذلك بيدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم».

«وما هذا بغريب على المسلمين، فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة، وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته ما لا يصعب على افهام قارئه، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم».

فالإعلام الإسلامي - عند جمال الدين - عامل أساسي من عوامل تحقيق الإعلام الإسلامي لأغراض الاتحاد بين المسلمين وتعاطفهم، ففي كل عام يلتقي في مكة عدد كبير من المسلمين من مختلف أرجاء العالم، وفي القرن الماضي كانت بلاد الحجاز قبلة كل قاصد علم يبغي التفقه في أمور الدين والانقطاع للعبادة، كما كانت موطن التفكير الديني الخالص، ومنبت كل دعوة وإرشاد حتى قيل «إن الدارس للثقافة العربية ليدھش من السرعة التي كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الإسلامي»، وذلك لأن مكة هي واسطة العقد في الإعلام الإسلامي الذي ينتشر منها إلى أقصى أرجاء العالم، وقد قصد جمال الدين مكة لأداء فريضة الحج، وظل بها نحو سنة فأدرك أهمية الحج في الإعلام الإسلامي، ولذلك يقول: «إن العلماء العاملين لوجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع البعض لأنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت، وليس بعسير عليهم ذلك

بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع، وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين - عشائهم وأجناسهم، وما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم حتى تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب وهذا ما أعدتهم له العقائد الدينية»^(١).

وهو يطالب رجال الإعلام الإسلامي في جميع أنحاء الأمة الإسلامية بأن يرتبطوا معاً «ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدتهم ويجمعوا أطراف الوشائج إلى مقعد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها بيت الله الحرام»^(٢).

ومن ذلك يتضح مكان الحج في الإعلام الإسلامي عند جمال الدين، وأثره في تقوية الروابط بين المسلمين، والاعتماد عليه كوسيلة إعلام عظمى عن الجامعة الإسلامية.

الأمر الذي يرتبط في رؤياه كذلك بالخلافة كوسيلة لجمع الكلمة وإعادة الوحدة بين المسلمين، ولذلك أراد أن يعيد لها مكانتها القديمة حتى تستعيد الأمة الإسلامية مجدها وقوتها، ومن قوله:

«كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية، صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام: عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس، تفرقت بهذه كلمة الأمة، وانشقت عصاها، وانحطت رتبة الخلافة»^(٣).

ثم اتجهت آمال جمال الدين نحو إيران فطالب بالقضاء على الخلافات

(١) جمال الدين الأفغاني: مقال «الوحدة والسيادة» في «العروة الوثقى»، ص ١٦٨.

(٢) جمال الدين الأفغاني: مقال «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك»، في «العروة الوثقى»، ص ٩٤.

(٣) جمال الدين الأفغاني: مقال «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك»، في «العروة الوثقى»، ص ٩١ و ٩٢.

المذهبية بين السنة والشيعة، ليكون ذلك بداية لاتحاد الإيرانيين والأفغانين... وكان يطالب بأن يكونوا للوحدة الإسلامية دعامة، كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية، فليس ببعيد على همم الإيرانيين أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية وتقوية الصلات الدينية^(١).

العروة الوثقى والصحافة الإسلامية

ويعيننا في صدد دراستنا للإعلام الإسلامي، أن نخصص جانباً لجريدة «العروة الوثقى» على اعتبار أنها من الصحف الرائدة للإعلام الإسلامي في العصر الحديث، والذي نعم بالطباعة كوسيلة من وسائل النشر والإعلام، ذلك أنه قد تبين مما سبق أن جمال الدين قد توسل بالوسائل الإعلامية المعروفة في عصره وقبل عصره، ولذلك ذهب إلى باريس ليصدر هذه الصحيفة التي أراد لها أن تعبر عن آراء «جمعية العروة الوثقى» وهي جمعية إسلامية تكونت في ذلك الوقت، وكان القائمون عليها جماعة من أهل مصر والهند سعوا إلى إعادة الحكم الإسلامي، ودعوة الأمم إلى الاتحاد والتضامن ومقاومة الاستعمار في الهند ومصر، وأخذوا ينشرون الدعوة بوسائل الإعلام المعروفة في ذلك الحين، واتخذوا من موسم الحج وسيلة إعلامية بين المسلمين، ثم لجأوا إلى الصحافة كوسيلة حديثة في الاتصال بالمسلمين، وأرادوا أن تكون لهم صحيفة، وتصدر بلسان عربي، في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع شريعتهم، وتذهب مذهبهم^(٢).

وكان الشيخ محمد عبده - في ذلك الحين - بمنفاه في بيروت، وكتب رسالة إلى السيد جمال الدين قال فيها:

(١) جمال الدين مقال «دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانين» في «العروة الوثقى» ص ٢١٦.

(٢) العروة الوثقى خاتمة المقالات، العدد أول، ص ٤٢ - ٤٣.

«وها نحن سالكون في سنتك وعلى سنتك، وكنا كذلك ولا نزال إلى انقضاء الأجيال، ولولا أطفال لنا رضع، ونساء لنا طوع، آيينا لهم الذل، وأنفنا لهم الضيم، فأتينا بهم إلى هنا - إلى حيث أقمنا - لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس».

ولم يلبث السيد جمال الدين أن بعث للشيخ محمد عبده ليوافيه في باريس، وليعمل معه في جريدة العروة الوثقى وليكون محررها الأول، فأجاب الشيخ محمد عبده السيد جمال الدين، وسافر إلى باريس في أوائل عام ١٨٨٤ م، ووسع الشيخ محمد عبده صيغة القسم الذي يربط أعضاء جمعية العروة الوثقى وقد جاء فيه:

«واقسم بالله العالم بالكلي والجزئي، والجلي والخفي، والقائم على كل نفس بما كسبت والأخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكم بكتاب الله في أعمالي وأخلاقي بلا تأويل ولا تضليل، ولأدعون لنصرتي. . أقسم بالله لأبذلن ما في وسعي لإحياء الأخوة الإسلامية. .».

وكانت هذه الجمعية تنفق على الجريدة لتوزع مجاناً على كل من يطلبها، ولقد صدر العدد الأول من العروة الوثقى في ٥ جمادى الأول من عام ١٣٠١ هـ - الموافق ١٣ مارس من عام ١٨٨٤ م، وكان السيد جمال الدين مديراً للجريدة والشيخ محمد عبده محرراً لها، ولذلك جمعت مقالاتها بين روح السيد جمال الدين وقلم الشيخ محمد عبده، فجمعت بين قوة المعنى ورصانة الأسلوب وكان يقوم بالترجمة من الصحف الإنجليزية فارسي اسمه «مرزا محمد باقر» تعلّم في مدارس الهند الإنجليزية وهو صغير، فتنصر وسُمّي «ميرزا يوحنا»، وكان السيد جمال الدين قد عرفه من قبل في ثغر «بوشير» في إيران، وكان يقول الأشعار في هجاء الرسول، ولكنه لم يلبث أن جعل يتردد على السيد جمال الدين من وقت إلى آخر إلى أن وافاه بباريس وأخبره برجوعه إلى الإسلام، وأظهر استعداداه لخدمة الإسلام والمسلمين،

وعرض على «السيد» رغبته في العمل بجريدة العروة الوثقى، فكلفه بالترجمة عن اللغة الإنجليزية التي كان يتقنها نثراً ونظماً.

ولقد لخصت الجريدة إغراضها في عددها الأول، ومنها:

١ - إفهام الشرقيين واجباتهم التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات.

٢ - إفهامهم كذلك أن الأمل في النجاح قريب، وإزالة ما حل بهم من اليأس.

٣ - دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما يصلح به أوله.

٤ - الدفاع عما يؤمى به الشرقيون عموماً - والمسلمون خصوصاً - من التهم، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم.

٥ - إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

٦ - تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية. . وتمكين الألفة بين أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينهم.

ومن تحليلنا لمضمون العروة الوثقى يتضح أنها عنيت بهذه الأغراض جميعاً، في إطار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

يقول السيد جمال الدين:

«إذا تصفحنا تاريخ كل جنس، واستقرأنا أحوال الشعوب في حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظة على حسب تناولها في الغلب. . وما أهلك الله قبلاً إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق».

ويقول أيضاً:

«وليس على المسلمين في استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى

مقامهم الأول، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم».

وكان يبدأ مقالاته بآيات من كتاب الله وأحاديث الرسول، معظمها يدعو إلى الاتحاد ويحض على ترك المنازعات بين المسلمين، من ذلك ما افتتح به بعض مقالاته:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢).

ولقد أحس بعض ساسة الإنجليز بخطر «العروة الوثقى» وأخذت الجرائد الإنجليزية تنادي بضرورة وقفها ومنعها عن الصدور، فرد عليهم في العروة الوثقى بقوله:

«ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية، سواء بهذه أو بوسيلة أخرى إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون».

وكانت العروة الوثقى توزع في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما عנית الجرائد الهندية بترجمة مقالاتها ونقلها إلى اللسان الهندي، وخاصة جريدة «أخبار دار السلطنة» التي تطبع في كلكتا وجريدة «مشير قيصر» التي تطبع في الكهنوا.

ولم تلبث الحكومة الانجليزية أن أمرت بمنع العروة الوثقى من الدخول في مصر والهند، وانعقد مجلس النظار المصري في القاهرة، واهتم بالبحث في شأن «العروة الوثقى»، ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية بأن تشدد في منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية «حفظاً للنظام العمومي». وقد علقت «العروة الوثقى» على هذا القرار بقولها:

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

«وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر التي أعلنت أن كل من توجد عنده «العروة الوثقى» يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً، أما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوى على كرسي الخديوية ميلاً إلى مثل هذا الحكم.

«فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلم أن همم الرجال لا تقعد لها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة، ذلك بعزائم أولي العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى».

ولكن العروة الوثقى لم تلبث أن احتجبت، وسافر الشيخ محمد عبده إلى بيروت بينما بقي السيد جمال الدين في فرنسا، ومع ذلك ظل أثرها عميقاً في الأمة الإسلامية، يقول الشيخ رشيد رضا:

«سمعت أستاذنا الشيخ حسين الجسر - عالم سوريا الوحيد في الجمع بين العلوم الإسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية - يقول: ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الإسلامي لو طال عليها الزمن».

انطلاقة جديدة للإعلام الإسلامي

ومن العروة الوثقى انطلق الإعلام الإسلامي إلى مرحلة جديدة على يد الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رضا، والشيخ مصطفى عبدالرازق، والأستاذ محمد فريد وجدي، والشاعر محمد إقبال، من الذين جعلوا الإعلام الإسلامي في العصر الحديث قائماً على تحكيم العقل، والرجوع إلى القرآن الكريم، فلفت الإعلام الإسلامي في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن أنظار الأوروبيين والمهتمين منهم بالإسلام بصفة خاصة.

فكان على الإعلام الإسلامي في هذه المرحلة أن يدافع عن الإسلام ضد أعدائه من الذين رموه بشتى التهم، على نحو ما فعل السيد

جمال الدين، وعلى نحو ما فعل الشيخ محمد عبده في رده على «جابريل هانوتو» وزير الخارجية الفرنسية، وفي رده على فرح انطوان محرر مجلة «الجامعة»، وكان رده على خصومه قوياً وقائماً على أساس من التفكير المستقيم، كما كانت صحيفتا «اللواء» لمحررها مصطفى كامل و«المؤيد» لمحررها الشيخ علي يوسف في مصر معبرتين عن هذا الاتجاه أصدق تعبير وأحسنه.

إقبال والإعلام الإسلامي

أما إقبال فقد قام بدور كبير في الإعلام الإسلامي، يقول:

«إن على المسلم اليوم عملاً شاقاً، عليه أن يعيد النظر في الإسلام كله دون انقطاع عن الماضي، وقد أدرك جمال الدين الأفغاني خطر العمل وسمعته، وكان حرباً أن يكون حلقة حية بين الماضي والمستقبل بنظره الثاقب، ونفاذه إلى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم، إلى ما أوتي من إدراك واسع يسهل له تجاربه في الناس والأخلاق، فلو قصر جهاده الدائب على الإسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الإنسانية لكانت قواعد الفكر الإسلامي اليوم أقوى وأقوم».

إقحام القومية والعنصرية على الإسلام

ويمكن النظر إلى مواقف وأفكار جمال الدين الأفغاني على أنها كانت في نطاق مقاومة الاستعمار الذي كان يستهدف الأفراد بالتوجيه داخل الشعوب الإسلامية، والتبشير بالفكر الأوروبي وبالمسيحية، وتأسيس المسلمين من مستقبلهم وفي علاقتهم بإسلامهم، وكان للاستعمار دوره في دخول الاضطراب والبلبلة في جوهر أهداف الإعلام الإسلامي في مطلع القرن الحالي، بإقحام القومية والعنصرية وخلق بينهما وبين الإسلام، بصورة تفاعلت بعد ذلك بشكل خطير جداً أدى إلى ما نراه اليوم من تضارب في الأهداف وتباين في وجهات النظر واختلاف في الوسائل.

ولذلك وجدنا جمال الدين الأفغاني يحمل على السيد أحمد خان وينقد اتجاهه الطبيعي نقداً مرّاً في كتابه «الرد على الدهريين». وفي الوقت نفسه يدعو المسلمين جميعاً إلى العودة إلى القرآن الكريم، وبهذا الخصومة المذهبية، والرجوع إلى حال المسلمين الأول قبل انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة، وبقما قنع العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضي الله عنهم^(١).

إقبال يهاجم القاديانية

ووجدنا محمد إقبال يهاجم القاديانية هجوماً عنيفاً من الوجهة الإسلامية، وفي الوقت نفسه يكتب كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام». ويوضح فيه محاولته لتقرير «علم الكلام» الإسلامي في صورة حديثة، كما يوضح مزايا التعاليم الإسلامية في خلق جماعة حية قوية، ويطلب إلى المسلمين أن يفهموا الإسلام في ضوء الحياة المعاصرة، وأن يسعوا في تكييفها وطبعها بطابع إسلامي، بدلاً من وقوفهم عند حد مفاهيم عصر الركود للمبادئ الإسلامية.

محمد عبده يهاجم الاستشراق

ونرى الشيخ محمد عبده يهاجم الاستشراق، ثم يضطره هذا الهجوم إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحية، وفي الوقت ذاته يضع منهجه التربوي لفهم الإسلام في ضوء القرآن والسنة الصحيحة، بدلاً من إسلام المتكلمين وإسلام أرباب الكتب المتأخرة التي كانت تعيش في عزلة عن الحياة العامة نفسها، وهذه الحياة العامة نفسها طابعها هو الانقسام إلى شيع، والتعصب والتقليد الضار، والضعف السياسي والاقتصادي، وسينعكس هذا كله على كتابات العصر لو عاشت فيه.

(١) العروة الوثقى، ص ٧٨.

حملات الاستشراق الصليبي

ولقد واجه الإعلام الإسلامي حملات شرسة من جانب الاستشراق الصليبي الذي تستر بدوره بستار البحث العلمي والمعرفة الفعلية، فيحدثنا المستشرق النمساوي «ليوبولد فايس» الذي أسلم وتسمى باسم «محمد أسد»، وتولى رئاسة قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الباكستانية فترة من الزمن، يحدثنا في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق» عن أثر الحملة الصليبية في تشويه الإسلام، وعن دراسة الاستشراق لتعاليمه، يقول:

«إلا أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً! لقد نشأ تسميم العقل الأوروبي عما شوهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلية في الغرب! في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوروبيين... من أن الإسلام دين شهواني، وعنفي حيواني، وأنه تمسك بفروق شكلية وليس تزكية للقلوب وتغييراً لها، ثم بقيت هذه حيث استقرت!

«إن من أبرز الحقائق على ذلك، الفيلسوف والشاعر الفرنسي فولتير، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها في القرن الثامن عشر - لكنه كان في الوقت نفسه مبغضاً مغالياً للإسلام ولرسول الإسلام»^(١).

أما وصفه لعمل «المستشرقين» فيودعه في عباراته الآتية: «لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة... كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على مدد من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فقط، ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.

«وقد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة «البوذية» أو «الهندوكية» ولكنها

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٥٨، د.

تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير!

«إلا أنها طالما تتجه إلى «الإسلام» يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب، حتى إن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التخريب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام... ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن «الإسلام» لا يمكن أن يعالج على أنه «موضوع» بحث في البحث العلمي، بل إنه «متهم» يقف أمام قضااته!

إن بعض المستشرقين يحتلون دور «المدعي العام» الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام «المحامي» في الدفاع!! فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له - مع شيء من الفتور - اعتبار «الأسباب المخففة»!!

«وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع «دواوين التفتيش»، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى! أي تلك الطريقة التي لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل أملاء عليها تعصبها لرأيها، ويختار المستشرقون «شهودهم» حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون، ثم فصلوها عن المتن، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء قصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر... أي من قبل المسلمين أنفسهم»^(١)...

وهكذا نرى أن الإعلام الإسلامي بعد بداية القرن الحاضر قد عني

(١) المرجع نفسه، ص ٥١ - ٥٢.

بدراسة المستشرقين وواجه تشويههم للإسلام، كما واجه من جانب آخر الفكر المادي المنكر للروحانية أو المستخف بها، وواجه ويواجه كذلك الدعوات المنحرفة التي أوجدها الاستعمار والصهيونية، وسخر لها القوة المادية والفنية ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبلة في أفكار المسلمين على نحو ما يتضح في القاديانية والبهائية بوجه خاص.

ونقدم فيما يلي نماذج من أبحاث المستشرقين نعرض لموقفهم وآرائهم وأثرهم في تشويه جوهر الإعلام الإسلامي :

١ - يتابع يوسف شاخت أستاذ، «جولدتسيهر»، وهما مستشرقان يهوديان الغرض من شأن الشريعة الإسلامية، ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية، وهو ادعاء باطل تصدى له كثير من الباحثين. ومن أكاذيب شاخت وأضاليه: الادعاء بأن للفكر الإغريقي فضلاً على الفكر الإسلامي، وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم مثل «سيديو، دراير، وسارطون» وغيرهم أن الإسلام هو الذي أدخل إلى الغرب المنهج التجريبي، وأن الحضارة العالمية المعاصرة مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذي هو أساس الحضارة الإسلامية.

٢ - أنكر برتلو أن تكون الكتب الكيمائية اللاتينية التي تحمل اسم جابر بن حيان هي كتب عربية الأصل كتبها عالم مسلم، لمجرد أن أصولها العربية فقدت، وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون ردوا عليه خطأه، بل اتهمه بعضهم بالجهل والتحيز، وقال سارطون: إن أي شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقاً في اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية، إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية، سواء كانت لجابر أو لغيره.

٣ - ويزعم سدرسكي أن جانباً مما ورد في القرآن أو التفسير والسير من الأخبار يرجع إلى الإجازة اليهودية والتوراة والأنجيل، وقد أعلن الدكتور بشر

فارس فساد هذا الرأي وقال: إن بين النصوص الإسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات، وإن اتفق بعضها أو تقارب..

٤ - وحاول نلينو أن ينفي حقيقة أن قريشاً كانت أفصح العرب، وله في ذلك مغالطات واسعة ترمى إلى التشكيك في هذه الحقيقة، ويقول: إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول.

٥ - وزعم لويس شيخو اليسوعي أن معظم شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا نصارى، وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العرب في عهد الجاهلية، لأن من الغساسنة من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطائفة كانت تدين بالنصرانية، ومن عداهم نصارى من الشعراء.. الأحنس بن شهاب وامرؤ القيس وأمّية بن أبي الصلت والسمؤال.

وهكذا جرت بحوث المستشرقين وراء الشبهات حول القرآن الكريم ولغته والحديث الشريف والتشريع الإسلامي، ولا يتسع المقام للتوسع في ضرب الأمثال^(١).

لا نكران أن طائفة من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف على تفاوت فيما بينهم، فمنهم من أخطأ وأصاب ومنهم من انتهى به البحث الحر النزاهة إلى الإيمان والإسلام، ويعتبر من الفريق الأول «رينان» الذي انتهى به بحثه عن المسيح عليه الصلاة إلى إثبات أنه لم يكن إلهاً ولا ابن إله، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة، وأن السير العربية للنبي محمد ﷺ كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل المتداولة بين النصاري.

ومنهم: «كارلايل» الذي عد «محمدًا» ﷺ في الأبطال وخصه بصفحات كثيرة من كتابه «الأبطال» يقول فيه: «من العار أن يصغي أي إنسان متمدن من

(١) راجع: «دفاع عن العقيدة والشرعة» للشيخ محمد الغزالي، الإسلام في وجه التغريب ومخططات الاستشراق والتبشير للاستاذ أنور الجندي، د. عبدالباسط محمد حسن: السابق.

أبناء هذا الجيل إلى وَهْم القائلين أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً لم يكن على حق، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التي أداها محمد ﷺ إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت صدق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ومنهم «تولستوي» أكبر كتاب روسيا، فإنه لما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله، كتب رأيه معرباً عن الإعجاب بالإسلام، وتحدث عن المسيحية فأنكر على المسيحيين اعتقادهم بالوهية المسيح، وخلص إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح بل طمسها، والكنيسة زادت تعاليم المسيح في العقيدة غموضاً. . ويقول إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقد جميعهم بالوحي الإلهي، فالمسلمون يعتقدون نبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما اعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانتين، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء، وأنه أوضح في القرآن تعاليم موسى وعيسى، كما قالها دون زيادة ولا نقصان. . وينتهي بالحديث عن رسول الله محمد ﷺ حديث الإكبار والتعظيم، وكان مما قاله تولستوي:

«لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تنجح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، ويكفيه فخراً أنه فتح طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال»، وقد كان جزاؤه على كلمة الحق التي قالها أن حرمه البابا من الرحمة^(١).

(١) «التبشير والاستشراق» أحقاد وحملات المستشار محمد عزت اسماعيل الطهطاوي، ص ٥٩،

ومن المستشرقين الذين انتهى بهم البحث عن الحق إلى الإسلام اللورد هيدلي، وإيتين دينيه «ناصر الدين»، والشاعر الألماني الكبير جوتيه، والدكتور جرينيه الذي كان عضواً في مجلس النواب الفرنسي، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال: «إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعة والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأنني تيقنت أن محمداً، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر، ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً كما قارنت أيضاً، لأسلم بلا شك إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض»^(١).

وصدق الله العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٢).

أيقن أعداء الإسلام.. أنه لا سبيل إليه وعقيدته حية في قلوب المسلمين فكان بداية التبشير.. مع نهاية الحروب الصليبية فشلاً في مهمتها، وهو ما صرح به «ملخص تاريخ التبشير».

ويقول القسيس المبشر زويمر إن جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام لم تنزل نذير خطر للمسيحية، ويكمل وليم جيفورد بالكراف المعنى فيقول: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه.

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة.. أظهرها لنا:

(أ) - المدارس المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم الإسلامي ولم تنجح منها حتى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها، وباشرت تلك المدارس

(١) المرجع السابق ص ٦٧ و«أوروبا والإسلام» للدكتور عبد الحليم نورية.

(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.

التأثير على الطفولة البريئة والشبيه الغضة. . من أبناء المسلمين، وكانت لها نتائج إيجابية محدودة. . لكنها إن لم تنجح في المجموع في تبديل عقائد التلاميذ فيكفي أنها بذرت فيها بذور الشك أو الانحراف، ولا يزال من آثار تلك المدارس. . الجامعة الأمريكية في مصر، والجامعة الأمريكية في بيروت، الأمر الذي لا ينكره رجال الغرب أنفسهم.

ويلحق بهذه الوسيلة تغريب التعليم أو علمانيته، وهو ما فعلته إنجلترا في مصر والهند.

(ب) - ومن أخطر هذه الوسائل البعثات إلى الدول المسيحية الغربية، وأول مثل لأثر البعثات ما حدث لرفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس من سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) إلى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) فقد عاد ذلك الشيخ. . بغير العقل الذي ذهب به.

ورسول الله ﷺ يقول: «لكل بني آدم حظ من الزنا. . فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرّجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبل، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». . صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وتحدث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر الدينية، وراح يثير الجاهلية القديمة فيتحدث عن مصر الفرعونية وينسى مصر الإسلامية، وأعجب الطهطاوي بالحرية لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامي، الذي تتحقق به عبودية المسلم لله وحده، ويحقق تحرره من كل عبودية لسوى الله، لكنه فهمها الفهم الغربي الذي يؤدي إلى التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه! وقس على الشيخ رفاعة من ذهبوا بعده. .

(ج) - ثم تأتي سائر وسائل التبشير. . فتح المستشفيات وبعث الإرساليات الطبية. . التي يقر كثير من المبشرين في مؤتمراتهم وكتاباتهم أنها أدت إلى نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية.

(د) - ثم المحاضرات والندوات . . والكتب والمجلات والصحف والنشرات . . إلخ . .

أما مؤتمرات التبشير فقد تعددت . . نذكر منها:

- ١ - مؤتمر القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) المنعقد في منزل زعيم الثورة العربية المسلم في باب اللوق، تحت سمع الحكومة وبصرها!
- ٢ - مؤتمر ادنبرج سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) في إنجلترا.
- ٣ - مؤتمر لكنوه سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) بالهند.
- ٤ - مؤتمر القدس سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).
- ٥ - مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م).
- ٦ - مؤتمر القدس سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م).

وما بلغنا عنها إلا القليل، وأشهره ما نشرته مجلة «العالم الإسلامي» .
ولا نعتقد أن ما نشر هو كل ما قيل وحدث . .

ومع ذلك تشير الدراسات إلى نماذج من المؤتمرين الأول والثالث.

وقد تناول المؤتمر وسائل تبشير المسلمين بالنصرانية في كتاب خاص عليه «نشرة خاصة»، ليكون قاصراً على فئة من المبشرين . . وهو من إعداد القسيس الأمريكي فليمنج .

ثم تعرض المؤتمر للأزهر فنعى أن باب التعليم مفتوح للجميع، خصوصاً وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجاناً.

وطالب سكرتير المؤتمر في مواجهة ذلك بإنشاء معهد مسيحي لتنصير الممالك الإسلامية. (قيل إن أساس تكوين الجامعة الأمريكية في مصر كان تنفيذاً لتلك الوصية).

ثم عرض المؤتمر لخريطة العالم الإسلامي في هذا العصر.

وقدم القسيس زويمر «رئيس المؤتمر» بمعاونة بعض زملائه كتاباً تحت

عنوان «العالم الإسلامي اليوم» أشار إلى صلابة عقيدة المسلمين «وهو ما يقتضي الاشتداد في حربها»، وقال ما نصه: «لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامي الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقية، وبث في مائتي مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية».

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح من بينها:

- (أ) - وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداءهم.
(ب) - وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.
وأخيراً بشر المبشرين ألا يقطنوا، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوروبيين وإلى تحرير النساء..
وفي مؤتمر لكنوه المنعقد في الهند سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)، كانت مواده كثيرة أخطرها:
(أ) - النظر في حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

(ب) - الارتقاء الاجتماعي والنفسي بين النساء المسلمات «يلاحظ اختيار الألفاظ المهدبة لتغطية المعنى المقصود... فإن المبشرين المسيحيين لا يهتمهم في شيء ارتقاء النساء المسلمات».

وكان أخطرها حديث زويمر الذي أشار إلى أن عبد الحميد «خليفة المسلمين» سجين في سلانيك... أشار إلى أنه لم يبق غير ٨٠٠، ١٢٨، ٢٧ مسلم تحت سلطة الحكومات الإسلامية... وانتقلت السلطة على الباقين من الخلافة الإسلامية إلى أيدي كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا، أشار إلى أن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قرية الحصول؟؟

وكان من بين قرارات المؤتمر:

«من الضروري العاجل تأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتبشير».

«دخول النساء في أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن».

وهم الآن لا يدعون المسلمين إلى المسيحية، بل يحاولون تشويه الإسلام وإضعاف قيمه.

سلبيات الاعلام المعاصر في الأمة الاسلاميه

ومما تقدم جميعاً نحاول في ما يلي استخلاص الإيجابيات والسلبيات التي تكتنف الإعلام الإسلامي في حاضره، ومنها:

(أ) - إنه كان من الضروري لتصدي بقوة لإقحام المفاهيم المستوردة على جوهر الإسلام.

(ب) - التصدي للبلبله التي وقع فيها العالم الإسلامي نتيجة لكثرة الآراء والاتجاهات وإدخال الكثير من الضلالات والمفتريات التي سبقت الإشارة إلى بعضها، مثل الدعوات المنحرفة التي أوجدها الاستعمار والصهيونية، وسخر لها القوة المادية والفنية ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبله في أفكار المسلمين: القاديانية والبهائية بوجه خاص، مع العلم بأن هناك صلات قائمة إلى الآن بين الدعوات المنحرفة وأعداء الإسلام «الاستعمار والصهيونية».

الصهيونية الخطر الدعائي الإعلامي

والصهيونية من أخطر أعداء الإسلام، بما تفرضه من قهر سياسي وقسر فكري وتمايز عنصري، وفي بروتوكولات صهيون يتضح هذا المعنى تماماً، فهي تعتمد على تقويض أركان المجتمع العالمي ويث عناصر للانحلال تعبت في كيانه. وتعمل على إشاعة الفوضى الاجتماعية والفكرية، وسبيلها إلى ذلك الدعاية المنظمة التي تتوسل بأجهزة الإعلام والاتصال بالجماهير بهدف

اغتصاب العقل البشري والسيطرة عليه، سواء كانت هذه الأجهزة منظمات يهودية سافرة، أم منظمات اجتماعية سرية أو علنية، كالجمعيات الماسونية وفرسان المعبد وجماعات الصليب الوردي ويهود يهوه والكيباك وغيرها من الهيئات والمنظمات والجمعيات التي بشوها في أقطار العالم، يعملون فيها على وأد الشعور الديني لدى الممتين إليها من شتى الأجناس والأديان، ويسيطر على وسائل الإعلام كالإذاعة والصحافة والسينما ووكالات الأنباء، يستخدمونها في الحرب النفسية وإشاعة الفوضى وزعزعة القيم الأخلاقية.

ومن بروتوكولات حكماء صهيون التي تعتبر الدستور العلمي للحركة الصهيونية يتضح أن أهدافها تتلخص فيما يلي:

١ - إشاعة الفوضى الشاملة

جاء في البروتوكول الخامس: «إننا نقرأ في قاموس الأنبياء أن الله اختارنا لحكم العالم، وقد وهبنا الله العبقريّة لنقوم بهذا العمل»، وقد تركزت هذه العبقريّة - مع الأسف - في الافتتان في وسائل الفساد والتخريب، وفساد الحكومات والمجتمعات، وتخريب الدول والنفوس، وعلى هذا الأساس فضلت البروتوكولات المناهج العلمية لتقويض الحكم القائم في شتى الدول، وإقامة حكومة يهودية جامعة على أنقاضها: «أروع النتائج التي يمكن الحصول عليها في سبيل حكم العالم، يتحقق باستخدام العنف والتهديد لا بالمناقشات الأكاديمية...» «وإن الذي يحكم يجب أن يلجأ إلى الحيلة والنفاق وفي السياسة تستحيل الصفات الإنسانية من أمانة وصدق إلى رذائل تؤدي إلى سقوط الملك عن عرشه»... «يجب أن يكون شعارنا: جميع وسائل القوة والنفاق تحتم أن يكون البطش هو المبدأ، والحيلة والنفاق هما القاعدة لدى الحكومات التي لا تريد أن تضع تاجها تحت أقدام أعوان أي حكم جديد. وهذا الشر هو السبيل الوحيد لبلوغ الخير، فعلياً ألا نتردد أمام شراء الدم والغدر والاحتياط إذا كان ذلك يخدم قضيتنا».

وتنشأ عن هذه الخطط والوسائل الصهيونية إشاعة الفوضى في العالم

والتسلل اليهودي من خلالها، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم، فوضى عاتية جائحة، سياسية وفكرية وروحية واجتماعية واقتصادية.

٢ - اثره الفتن والوقعة بين شعوب العالم ودوله

كشف الحاخام عمانوئيل راينوفتش عن خطة الصهيونية في خطابه بمؤتمر الربانيين بمدينة بودابست سنة ١٩٥٤ م (١٣٧٣ هـ) حيث قال: «هل تذكرن حملاتنا الدعائية الناجحة عام ١٩٣٠؟ لقد أثارت الحقد على الأمريكيين في ألمانيا والألمانيين في أمريكا وهذا هو ما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، وقد شرعنا شن حملات مماثلة في سائر أنحاء العالم فأثرنا في روسيا موجة من حقد ضد الولايات المتحدة، وفي نفس الوقت أثرنا في الولايات المتحدة شعورا بالخوف والتوجس إزاء الشيوعيين، وتؤدي هذه الحملات إلى دفع الدول الصغيرة إلى تحديد موقفها إما مع روسيا وإما مع أمريكا».

وهذا تطبيق لما رسمته البروتوكولات صراحة، ففي البروتوكول العاشر: «يجب بث الاضطرابات بصفة مستديمة في العلاقات القائمة بين الشعب والحكومات، وإشاعة الأعمال العدوانية والأحقاد، وحتى عذاب الجوع والحاجة والأمراض، لدرجة لا يرى معها غير اليهود مخرجاً للأرزاء التي تحل بهم سوى اللجوء إلى أموالنا وإلى سيادتنا المطلقة».

وفي البروتوكول الحادي عشر: «غير اليهود كقطيع من الأغنام، أما نحن فإننا الذئاب، وهل تعلمون ما تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها؟ إنها تغمض عينيها وسندفعهم إلى ذلك».

ويتضح في البروتوكول الخامس عشر كيف يعمل الصهيونيون لتحقيق أهدافهم: «وإذا ما تولينا السلطة بما نكون قد أعدناه من انقلابات تحدث في جميع الدول في وقت واحد - بمجرد أن يعلن رسمياً عجز حكومات تلك الدول عن حكم الشعب، وقد يمضي على ذلك وقت طويل ربما يبلغ قرناً - سنبدل كل جهنمنا لمنع المؤامرات ضدنا».

وإعمالاً لهذه التعاليم نلاحظ أن اليهود دائماً ضالعون مع كل حركة تخريب في العالم، فقد كانوا وراء الحرب العالمية الأولى يظاهرونها ويذكون أوارها انتقاماً من روسيا التي تصدت لليهود وانتقمت منهم . . . وقد استغل اليهود تلك الحرب الضروس لفائدتهم المالية بإقراض الدول بالربا الفاحش، وترويج تجارتهم في مواد القتال التي يحتكرونها، والقضاء على شعوب أوروبا وتقويض دولها.

كما حاول اليهود استغلال الثورة البلشفية في روسيا، وفرضوا وصايتهم عليها لتحقيق مآربهم العنصرية التي فشلوا في تحقيقها في عهد القيصرية.

وقد نجحت العناصر الصهيونية في حكومة البلاشفة في ممالة اليهود والتستر على ما قد يسيء إليهم ويفضح نواياهم، فلما طبعت البروتوكولات في روسيا سنة ١٩١٧ باللغة الفرنسية صودرت هذه الطبعة رسمياً، ولم يسمح بطبعها بعد ذلك.

٣ - الإرهاب الفكري وإفساد الرأي العام

يشرح البروتوكول الخامس كيفية إفساد الرأي العام وبليلة الأفكار فيقول: «ولكي نظمئن إلى الرأي العام يجب أن نربكه تماماً، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة الدرجة يضل معها غير اليهود الطريق» . . . ويوصي بـ«مضاعفة الأخطاء التي ترتكب، والعادات والعواصف والقوانين الوضعية في البلاد لدرجة يتعذر معها على الناس التفكير تفكيراً سليماً وسط تلك الفوضى، وهكذا يكف الناس عن فهم بعضهم بعضاً . . . وسوف تساعدنا تلك السياسة على بث الفرقة بين جميع الأحزاب، وعلى حل الجماعات القوية، وعلى تثبيت عزيمة كل عمل فردي يمكن أن يعرقل مشروعاتنا».

وفي البروتوكول السابع: «يجب أن نقوم بالتأثير على الحكومات غير اليهودية عن طريق ما يسمونه الرأي العام الذي هيأناه عن طريق أعظم قوة

وهي الصحافة، التي - فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية التي لا قيمة لها - توجد كلها في قبضتنا».

وفي البروتوكول الثامن: «لا يتيسر إسناد المناصب الرئيسية في الحكومة إلى إخواننا اليهود، فإننا سنسند المناصب الهامة إلى أناس من ذوي السمعة السيئة حتى تنشأ بينهم وبين الشعب هوة سحيقة، أو إلى أناس يمكن محاكمتهم والزج بهم في السجون إذا حالوا دون تنفيذ أمرنا».

ولقد بلغ من جرأة اليهود أن استباحوا جلال العلم لإشباع حقدهم ونزواتهم وإفساد العقول والأخلاق، والعبث بالقيم والفضائل الإنسانية، فابتدعوا نظريات علمية تسوغ لهم ما يبيتون من مكر وكيد وما ينفثون من آراء هدامة... فاليهود وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، فاليهودي كارل ماركس وراء الشيوعية التي تهدم قواعد الأخلاق والأديان... واليهودي دركيم وراء علم الاجتماع الذي يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة، ويحاول أن يبطل آثارها في تطور الفضائل والآداب... واليهودي سارتر وراء الوجودية التي جنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعات بأفات السقوط والانحلال^(١).

وفي البروتوكول الثاني: «... نحن الذين هيأنا دارون وماركس ونيتشه، ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود».

٤ - إشاعة الفوضى والفساد في المجتمع

رسم البروتوكول الأول لليهود كيف يكيدون لسائر شعوب الأرض، ويبدرون الفوضى والانحلال فيقول: «إن الشباب لدى المسيحيين أضحى متبلد الذهن تحت تأثير الخمر، كما أن الشباب قد انتابه العته لانغماسه في الفسق المبكر الذي دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والمربيات اللاتي

(١) العقاد: الصهيونية العالمية.

يعملون في بيوت الأثرياء والموظفين، والنساء اللواتي يعملن في أماكن اللهو، ونساء المجتمع اللواتي يقلدنهن في الفسق والترف».

وفي البروتوكول التاسع: «لقد أتلفنا الجيل الحاضر من غير اليهود، وأفسدنا خلقه بتلقيه المبادئ والنظريات التي نعلم أنها مبادئ فاسدة، وعملنا على ترسيخها في ذهنه، ودون أن نعمل على تعديل القوانين القائمة فعلاً أمكننا التلاعب بها وتفسيرها التفسير الذي لم يخطر على بال واضعيتها للحصول على نتيجة فعالة».

٥ - افعال الأزمات الاقتصادية

يفضل البروتوكول الثالث السلاح الاقتصادي الذي يستعين به اليهود على تقويض الحكومات، «وسنعمد إلى خلق أزمة اقتصادية عالمية بكافة الطرق الملتوية الممكنة بواسطة الذهب الذي يجري بين أيدينا».

وفي البروتوكول الرابع: «يجب أن نقيم التجارة على أسس المضاربة، ويكون نتيجة ذلك منع اليهود من الاحتفاظ بالثروات التي انتجتها الأرض، وعن طريق المضاربة تدخل تلك الثروات خزاننا».

ويوضح البروتوكول السادس كيف يعمل اليهود على الإضرار بالإنتاج، «وسنعمل على تقويض الإنتاج من أساسه عن طريق نشر الفوضى بين العمال وتحريضهم على شرب الخمر، كما أنه لا بد من استخدام جميع الوسائل الممكنة لطرد الأذكىء من غير اليهود من وجه البسيطة».

٦ - القضاء على الأديان

في البروتوكول الرابع عشر: «عندما نصيح أسياة الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا... من أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد. وإذا كانت النتيجة التي وصلنا إليها مؤقّتاً قد أسفرت عن خلق الملحدّين، فإن هدفنا لن يتأثر بذلك... بل يكون ذلك مثلاً للأجيال القادمة التي ستستمع إلى دين موسى،

هذا الدين الذي فرض علينا مبدؤه الثابت التابع وضع جميع الأمم تحت أقدامنا».

وفي البروتوكول السابع عشر: «لقد عنيينا عناية خاصة بالعيب في رجال الدين غير اليهود، والخط من قدرهم في نظر الشعب، وأفلحنا كذلك في الاضرار برسالتهم التي تنحصر في تعويق أهدافنا والوقوف في سبيلها، حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام».

«إن حرية العقيدة معترف بها اليوم في كل مكان، ولا يفصلنا عن انهيار المسيحية إلا بضع سنوات، وسيكون القضاء على الأديان الأخرى أيسر من ذلك، لكن الوقت لم يحن بعد لمناقشة هذه الرسالة...».

«وسنعمل على أن يكون دور رجال الدين وتعاليمهم تافهاً، ونجعل تأثيرهم في نفوس الشعب فاتراً إلى حد يجعل أثر تعاليمهم عكسياً».

ومن هنا كان الإسلام بعد المسيحية المجال الرئيسي الذي كرست له الصهيونية نشاطها للنيل منهما بدأب حثيث، وكانت محاربتهما هدفاً لليهود منذ أزمان سحيقة، ففي التلمود: «حيث أن المسيح كذاب، وحيث أن محمداً اعترف به، والمعترف بالكذاب كذاب مثله، فيجب أن نقاتل الكذاب الثاني كما قاتلنا الكذاب الأول»^(١).

وقد جاهر حاخام إسرائيل في الحفل الذي أقيم لوضع الحجر الأساسي للمحفل الماسوني في تل أبيب سنة ١٣٧٧ هـ بقوله: «إننا نعمل جميعاً لهدف واحد هو العودة لكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على ظهر هذه الأرض، وما عدا ذلك فهي أديان باطلة... أديان أوجدت الفقرة بين أهل البلد الواحد، وبين أي شعب وشعب ونتيجة لمجهوداتكم سيأتي يوم يتحطم فيه الدين المسيحي والدين الإسلامي، ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقدتهم المتعفنة، ويصل جميع البشر لنور الحق».

(١) د. محمد الزعبي: «دقائق النفسية اليهودية»، ص ١٢٨، د. عبد الباسط محمد حسن: السابق.

وينبغي ألا ننسى أن الحاخام يوجه خطابه ويوعز بتحريضه إلى أعضاء المحفل الماسوني الذي تزعم تقاليده أنه بنجوة من التعصب الديني، وأنه يتحلى بالجهاد تجاه العقائد.

محاربة الصهيونية للإسلام

حرصت دولة إسرائيل على محاربة الدين الإسلامي في نطاقها المحلي، تطبيقاً للمبادئ التي نص عليها البروتوكولان السابقان، فعمدت إلى إجبار التلامذة المسلمين على دراسة اللغة العبرية والديانة اليهودية وحفظ التوراة، ومنعتهم من حفظ القرآن الكريم ودراسة التاريخ الإسلامي.

وتطاولت إسرائيل على القرآن الكريم فطُبعت في عامي ١٣٨٠ و١٣٨٨ هـ نسخاً مزورة من المصحف الشريف، أسقطت منها بعض الألفاظ أو بعض الآيات وأحياناً سورة بحذفها، أو تناولت بعض الألفاظ بالتحريف - بتبغي بذلك تحريف بعض المعاني القرآنية والتشكيك في سلامة كتاب الله - بيد أن المسلمين كانوا بالمرصاد حريصين على تعقب كل ما يصدره أعداء الله من طباعات محرفة من المصحف، والحيلولة دون تداولها.

ودأب اليهود منذ ظهور الإسلام على محاولة إفساد شرائعه، وتشويه مصدر أحكامه، فدسوا كثيراً من البدع المضللة، ومنهم من انتحل الإسلام نفاقاً ليفتري على الإسلام مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان، ليكيد بها للإسلام ويشير الفتنة بين جمهرة المسلمين. وقد عرفت هذه الزيوف عند المسلمين بالإسرائيليات وهي كل ما دسه اليهود على تفسير القرآن الكريم أو الحديث النبوي من تأويلات فاسدة وأساطير خرافية فيها إغراب وزيف عن المعنى المقصود، قصد بها التضليل والإرهاب والبلبلة وإثارة الشبهات بتشويه حقائق الإسلام الناصعة^(١).

(١) من ذلك تفسيرهم الروح في قوله تعالى ﴿تَنزِلُ الْمَلَائِكَةُ الرُّوحَ فِيهَا﴾ بأنه ملك هائل لو انتم السموات السبع والأرضين السبع، كانت له لقمة واحدة، وغير ذلك.

ومن دهاة اليهود عبد الله بن سبأ الحميري «ابن السوداء» الذي ترجع إليه طوائف غلاة الشيعة، وهو القائل بمذهب الرجعة ومذهب الحلول، يزعم أن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل علياً، وإنما المقتول شيطان تصور للناس في صورة علي، أما علي رضي الله عنه فقد صعد إلى السماء على أن يرجع إلى الأرض بوصفه «المهدي المنتظر» حيث ينتقم من أعدائه ويقيم العدل والحق.

الادب الاسلامي مهمة إسلامية

وإذا كان المسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوروبي، وبغير العين التي ينظر بها المواطن العربي، فإنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية. ومن هنا يصبح الكشف عن استراتيجية للأدب الإسلامي وسط الظروف التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية، مهمة إسلامية من الطراز الأول، وبصرف النظر عن المعنى الأصلي لكلمة «استراتيجية» في الاصطلاحات العسكرية، لأنها استخدمت فيما بعد للدلالة على المهارة في التخطيط والإدارة، بل إن العلوم الاجتماعية حين استعارت هذا الاصطلاح أضفت عليه مفهوماً شاملاً يعني «الخطّة العامة لوسائل تحقيق الأهداف».

الأدب بين الإعلام الانساني والاعلام الدولي

نواصل في هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامي في مسيرته المستقبلية، فنلاحظ ابتداء أن الإعلام الإسلامي قد أرسى دعائم تتفوق على ما يعرف اليوم بالإعلام الدولي، ذلك أن الإسلام قد أرسل للناس كافة، وأكد على الاتصال والتفاهم بين الأمم والشعوب والقبائل فقال الله جل شأنه في كتابه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١).

فالإعلام الإسلامي أشمل من مفهوم الإعلام الدولي بالمصطلح الدولي الحديث ذلك أن القرآن يؤكد أن الإنسانية كلها أمة واحدة .

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

الاعلام الاسلامي والاعلام الدولي

ومن ذلك يتضح ما نعينه بشمولية الإعلام الإسلامي في المصطلح الحديث، ذلك أن القرآن الكريم الذي تنبع منه نظرية الإعلام الإسلامي يؤكد على وحدة الإنسانية.

يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).

فالإعلام الإسلامي يقوم على أساس من صلة الرحم بين بني الإنسان، وعلى أساس من التعارف والمودة وإقرار السلام، ولذلك فإن الأصل في الإعلام الإسلامي هو الود والتراحم لا العداوة القاطعة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول إن الإعلام الإسلامي يتجاوز مصطلح «الإعلام الدولي» إلى أن يكون هو «الإعلام الإنساني» الأشمل الذي يدعو إلى دين الوحدة الإنسانية والوحدة الإنسانية في آن معا، وإن اختلف الناس أجناساً وقبائل، قال جل شأنه في القرآن الكريم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّتَكُمِ وَالْوَنَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٠٨ و ٢٠٩.

(٣) سورة الروم، الآية ٢٢.

ونظرية الإعلام الإسلامي الإنسانية، التي تتجاوز مصطلح الإعلام الدولي المعاصر، تقوم على أساس المساواة كما جاء في قول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(١).

فالمساواة هي أساس الإعلام الإنساني في الإسلام، كما أن التعارف يقتضي من وسائل الإعلام إشاعة المودة والتعاون في كل أنحاء العالم.

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية في الإعلام الإنساني، يقول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَأَنْ تَلُودُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٢).

ودستور الإعلام الإسلامي في العلاقة الإنسانية العامة، قول الله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وقوله جل شأنه :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٤).

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) سورة النساء، الآية ١٣٥.

(٣) سورة المائدة، الآية ٨.

(٤) سورة النحل، الآية ٩٠.

الإعلام الإسلامي والرأي العام العالمي

وليس من قبيل التعصب أن نذهب إلى أن الإعلام الإسلامي قد وضع الحلول الناجعة لكل المشكلات التي يعاني منها اليوم الإعلام الدولي بالمصطلح الحديث International Communication والذي يسعى إلى تكوين الرأي العام الإنساني في إطار من الوحدة الإنسانية، وعلى أسس من العدالة والتعاون والتواد والسلام.

وهنا نتضح الفروق بين ما نعنيه بمصطلح «الإعلام الإنساني» في الإسلام، ومصطلح الإعلام الدولي المعاصر، ذلك أن الأخير يعاني من الاحتكاك والصراع الدولي، وفي كثير من الأحيان يصبح من أهم عوامل هذا الصراع الذي قد يؤدي إلى الحروب والدمار، لأن الإعلام الدولي المعاصر يسعى إلى السيطرة على العقل البشري من خلال عملية الاتصال التطوعية Persuasive Communication وغيرها من العمليات الاتصالية، فالإعلام الدولي تعبير عن طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتي يغلب عليها طابع الحرب النفسية وتحطيم الروح المعنوية لدى الشعوب الأخرى، على نحو ما نعرف اليوم من دلالات المصطلحات التي شاعت في عصرنا كالحرب الباردة والحرب الإيديولوجية وحرب الأعصاب والحرب السياسية وحرب القوة الفكرية وما إلى ذلك، مما يكشف في جموعه عن عدم موضوعية ما يطلق عليه تجاوزاً بالإعلام الدولي، واستهدافه التأثير على آراء وسلوك وعواطف جماعات أو دول أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة، وذلك من أجل متابعة سياسة الدولة ومصالحها.

وعلى هذا الفهم يمكننا أن نتعرف على الحلول الشاملة والجزئية التي يقدمها الإعلام الإنساني في الإسلام لمشكلات الإعلام الدولي، والتي تظهر من خلال المؤتمرات الدولية للصحفيين في شيكاغو وبلجيكا عام ١٨٩٣، والتي لم تحقق شيئاً يذكر غير بعض التوصيات التي محتها الدعاية والرقابة

خلال الحربين العالميتين^(١). ويمكن أن نجد هذا الصديق كذلك في اهتمام عصبة الأمم بمشكلات الإعلام الدولي من خلال المؤتمرات التي عقدت تحت رعايتها عام ١٩٢٧ في جنيف وعام ١٩٣٢ في كوبنهاغن وعام ١٩٣٣ في مدريد . . . وكانت أهداف مؤتمر خبراء الصحافة الذي عقد في جنيف ما يلي :

أولاً: البحث في الوسائل التي تكفل الانتقال السريع للأعمال الصحافية بأقل النفقات، مع نظرة إلى تقليل مخاطر سوء التفاهم الدولي .

ثانياً : مناقشة جميع المشاكل الفنية التي يرى الخبراء أن علاجها سيؤدي إلى تهدئة الرأي العام الدولي في الدول المختلفة وقد ظهرت رغبة عصبة الأمم في القضاء على انتشار المعلومات الكاذبة عن الدول في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد في عام ١٩٣٢، وقد أصر المجتمعون على ألا تكون الإجراءات التي تتخذ لتحقيق هذا الأمر ماسة بالحريات الأساسية للصحافة، وقد نوقشت هذه المشكلة ذاتها في مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذي عقد عام ١٩٣٣ ولكن شيئاً محدداً لم ينبثق عن هذه المؤتمرات^(٢).

الإعلام الإسلامي وحقوق الإنسان

واهتمت هيئة الأمم كذلك بعد الحرب العالمية الثانية بمشكلة حرية الإعلام، وجاء ذلك في ذكر حقوق الإنسان ومن بينها حرية الإعلام سبع مرات في ميثاق الأمم المتحدة، كما نوقشت هذه الكلمة في الجمعية العامة والمجلس الاقتصادي والاجتماعي مرات عديدة. وتضمن دستور اليونسكو أنه «لما كانت الحروب تبدأ في عقول الرجال فينبغي أن تبني دفاعات السلام في عقول الرجال أيضاً» وأشارت إلى ضرورة الاهتمام بالإعلام عن حقائق العلم والثقافة والتربية من أجل بناء وتدعيم السلام.

(١) William Read, «50 Years of Resolutions from States for U.N. Talks.» Editor and Publisher, V.80, No., 16 , April 12, 1947, p.17.

(٢) د. أحمد بدر: الإعلام الدولي، ص ١٣٦.

وهنا نجد أن النظرية الإعلامية في الإسلام تقوم على أساس إنساني، وتؤكد حقوق الإنسان قبل كل الإيديولوجيات والمواثيق الدولية تأكيداً ينبع من مخاطبة الفطرة الإنسانية، وأن دستور الإعلام الإسلامي يتجمع ويتبلور في قول الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١). وفي قوله الكريم الموجه إلى الرسول الكريم ﷺ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢). فالإسلام ليس دين إكراه ولكنه يفرض على الإعلام الإسلامي أن يبشر بالهداية والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ومن الحقائق الثابتة أنه ما أكره على الإسلام فرد واحد من أصحاب العقائد السماوية، في حين أن الدعاية الدولية اليوم تحرص على اغتصاب عقول الجماهير باسم الإعلام الدولي تارة، والاتصال الثقافي تارة أخرى، ولكنها تتفق في عمليات غسل المخ الجماعية، وممارسة أسباب الضغط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة ومعتقدات جديدة، وهذه الأساليب يطلق عليها أساليب قتل العقل Menticide كما يقول العالم النفسي الهولندي ميرلو، لأنها تحيل الإنسان إلى كائن لا حول له ولا قوة، وتخضعه إخضاعاً للتعاليم الجديدة، إذ تتضافر فنون الضغط الثقافي والعاطفي مرتبطة بالضغط البدني للسيطرة على الإنسان.

فالإعلام الدولي بالمصطلح الحديث لا يخرج عن مفهوم الدعاية كنشاط أوفن لإغراء الغير بالتصرف بطريقة معينة، على نحو ما نعرف عن الدعاية التبشيرية في المسيحية، والدعاية السياسية في وسائل الإعلام العالمية، والدعاية الرمزية في الحرب النفسية... على نحو ما نعرف عن عمليات الانتقام النازية التي كان يقصد منها إرهاب الفئات الأخرى التي قد تحاول المقاومة، وما نعرفه عن الغارة الإنجليزية التي وجهت إلى برلين أثناء القاء الوزير جورنج خطاباً له من الإذاعة، كانت أصوات القنابل الإنجليزية وهي تفجر في سماء برلين تكذب ما كان يزعمه جورنج من أن سماء برلين لا يمكن أن تقهر. وكذلك ما قامت به العصابات الصهيونية يومي ٨، ٩ أبريل سنة

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

١٩٤٨ إبّان الحملة التي شنها اليهود لتعبيد طريق تل أبيب - إلى القدس الذي وقع فيه أعنف قتال شهدته الحرب، فقد احتل أعضاء عصائتي أرجون وشتيرن القرية العربية «دير ياسين» التي تقع بالقرب من القدس، ولقد زعم مناحم بيجين فيما بعد أن قوات الأرجون فعلت ذلك لبث الرعب في قلوب عرب فلسطين.

فالدعاية الدولية مفهوم متدهور لا يرمي إلى الإقناع بقدر ما يرمي إلى الاغتصاب النفسي وانتهاك حقوق الإنسان، ولكن الإعلام الإنساني في الإسلام ينطلق أساساً من الحرص على حقوق الإنسان، ويتوسل بالإقناع والتعبير الموضوعي عن عقلية البشر في وضوح وصدق وأمانة، وهو لذلك يقوم على التنوير والتثقيف، وضمان حريات الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وأغراضهم، فالإسلام الذي حرر العبيد، هو نفسه الذي رسم السبيل لتحرير الإنسان وضمان حقوقه، ولذلك فإن نظرية الإعلام في الإسلام هي النظرية المثلى في معالجة مشكلات الإنسان المعاصر التي حار في علاجها المفكرون والفلاسفة في شتى بقاع العالم... إذ أن الإعلام الإسلامي هو الذي يسكب في النفس الطمأنينة والرضا ويحفظ على الإنسان كرامته وحرية، وينشئ لديه رقابة ذاتية تحميه وتحمي مجتمعه وأمته الإنسانية.

ولذلك يمكن القول إن النظريات الإعلامية المعاصرة هي نظريات تهتم بالجانب المادي للإنسان، والتقدم العلمي للسيطرة على عقول الناس، وتروج للفلسفات المادية والإلحادية والنزوات الشريرة تَطْفَى على الإنسان، فأصبح الإنسان أسيراً لوسائل الإعلام المعاصرة التي جعلته يعيش في فراغ وضياح، وفقد جوهر إنسانيته فأصبح على الرغم من التكنولوجيا الحديثة مفتقداً لإنسانيته، وهنا لا مفر من الرجوع إلى الإسلام في الوصول إلى نظرية إعلامية تواجه حقوق الإنسان، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١).

(١) سورة الصف، الآية ٩.

وفي سورة الفاتحة الدعاء الذي يتغياه الإعلام الإنساني في الإسلام:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

الإعلام الإنساني في الإسلام

والإعلام الإنساني في الإسلام إعلام إيجابي يصل بين الإنسان وخالفه، ويوضح حقائق الهداية، ويوجه الإنسان إلى البناء من أجل الدنيا والآخرة.

ويقوم الإعلام الإسلامي على أساس من الخير الشامل الذي لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية الإعلامية أن يكفله مبراً من الإنسانية، أو الاستجابة لنوازع الأهواء الدعائية سياسياً أو دينياً، ذلك أن الإعلام الإسلامي ينهل من الأخلاق المثلى التي وضعها الإسلام لتحقيق الخير المحض للإنسان في كل زمان ومكان، كما تمتاز نظرية الإعلام الإسلامي بأنها نظرية صالحة لكل الشعوب في كل زمان ومكان، لا إرهاق فيها ولا أعنات.

يقول الله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(٢).

ويقول جل شأنه:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٣).

ويقول تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤).

(١) سورة الفاتحة، الآيتان ٦ و٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

هذه الصلاحية وهذا اليسر محققان في الإعلام الإسلامي، على حين أن مذهب السلطة الإعلامية أو مذهب الحرية أو المسؤولية الاجتماعية في الإعلام هي مذاهب ضيقة المجال في بنائها وزمانها، ولكن الإسلام يصلح لكل المجتمعات لأنه دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، وفي الثواب والعقاب، وفي الحسنات والسيئات، الأمر الذي يجعل الإعلام الإسلامي مستهدفاً الحض على الأخلاق الكريمة، والفضائل العليا التي تصلح للأفراد والمجتمعات في كل مكان وزمان.

هذه الصورة المثلى التي نشدها علماء الإعلام لا تتحقق إلا في نظرية الإعلام الإسلامي، ذلك أن النظريات الإعلامية الوضعية في عالم اليوم إنما هي خضم عجيب... الأخلاقيات أصبحت تحكمها المصالح، والوطنية أناشيد رنانة يطرب لها الناس، والمصالح المشتركة شباك تطلق من الجانبين يصطاد بها كل جانب ما وسعه أن يصطاد على حساب الطرف الآخر، والوفاق الدولي شبكة كبيرة تقع تحت طائلتها مصالح الدول والدويلات المسكينة التي يسمح لها بالعيش في إطار حماية العملاق أو العملاقين أصحاب الشبكة التي تم صنعها بالوفاق، وكذلك حماية المصالح.

الإعلام الإسلامي والمذاهب الوضعية

يتعثر تشكيل النظام الإعلامي بالبيئة الفكرية إلى حد كبير، فالأفكار السائدة في مجتمع ما تشكل مؤسساته، كما تشكلها كذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك شاع اصطلاح «النظام الإعلامي» وخاصة منذ اتخذه البعض معياراً للتفرقة بين البلاد التي تعتنق أي أيديولوجيات مختلفة، كالرأسمالية والاشتراكية مثلاً.

و«النظام الإعلامي» اصطلاح متشعب العناصر، يكاد يشمل كافة جوانب الحياة المجتمعية، بغض النظر عن الأيديولوجية التي يدين بها سواء عن اقتناع بضرورتها أو كانت مفروضة عليه بفعل القهر والإكراه من قوى في الداخل أو بالضغط من الخارج «نقول هذا لأنه كثيراً ما تكون ظروف المجتمع العامة

لا تسمح بالأخذ بمذهبية معينة، إما لأن الذين يدعون إليها قلة، وإما لأنها مستوردة من مجتمع خارجي، ولكن تنجح قوى معينة، لسبب أو لآخر، في القفز إلى ذرى السلطة فتكره الناس على اتباع هذه المذهبية فيرضخون ويستسلمون»^(١).

من أجل ذلك نرى أن العصر الحديث أحوج ما يكون إلى دراسة النظم الإسلامية بعامة والإعلامية بخاصة، لعدد من الأسباب منها:

أولاً: الهجوم السياسي والثقافي على العالم الإسلامي بسبب الدعايات الرأسمالية (الليبرالية) والاشتراكية، فإن كلاً من المعسكرين - الرأسمالي والاشتراكي - يحاول جاهداً أن يضم البلاد الإسلامية إليه، وكانت أخطر هذه المحاولات هي التي تحاول التقريب بينها وبين الإسلام، وادعاء كل الفريقين - الرأسمالي الليبرالي والاشتراكي - أن الإسلام ينتمي إليه، فلما رفض المسلمون ذلك احتاجوا إلى إظهار النظام الإسلامي في الإعلام والسياسة والاجتماع والاقتصاد وبيان الفرق بينه وبين هذين النظامين^(٢).

ثانياً: إن ميل بعض الدول الإسلامية المعاصرة إلى النظام الرأسمالي الليبرالي وميل بعضها الآخر إلى النظام الاشتراكي أدى إلى الخلاف والشقاق، بل والصراع المسلح أحياناً مما كان له أسوأ الأثر في التضامن الإسلامي وأدى إلى عجز المسلمين عن مواجهة المشاكل التي تبدد مصالحهم المشتركة، وقد فطن المسلمون أخيراً إلى خطورة هذا الانقسام وحاجتهم إلى كلمة سواء تجمعهم جميعاً^(٣).

ثالثاً: فشل الشعارات القومية والعنصرية في تجميع المسلمين العرب وعدم كفايتها في إقامة صرح الدفاع عن مصالحهم... ففي مستهل القرن

(١) د. راشد البراوي: القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة، ص ٩.

(٢) د. مصطفى كمال وصفي: خصائص النظام الإسلامي، ص ٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥.

الحالي - عندما أزمعت الدول الأجنبية تصفية الدول العثمانية - جنح المسلمون إلى إحياء أصولهم القديمة - كالفرعونية والحثية والفينيقية ونحو ذلك - ففضوا بذلك على وحدتهم الإسلامية، ثم عادوا وتمسكوا بالقومية العربية ولكنها لم تثمر كثيراً، لأن العروبة ليس لها نظام أو نظرية خاصة بها، بخلاف الإسلام الذي ينطوي على جميع القيم الحضارية بدون عنصرية.

ولذلك فقد تطلبت هذه الظروف مجتمعة - وغيرها - الاهتمام بإبراز النظام الإسلامي وتحديدده لصد الغزو السياسي والفكري - من ناحية - وإقامة أساس للتكامل السياسي والاقتصادي بين المسلمين العرب من ناحية أخرى. ولم تتقبل الأفكار الوضعية في الدول الإسلامية هذا المنافس الجديد - وهو النظام الإسلامي - بسهولة، بل واجهته بالعنف والشدة أحياناً، أو بالممالة أحياناً أخرى.

ويمكن القول بأن هذه المواجهة اتخذت ثلاثة أدوار متميزة^(١):

الدور الأول: الإنكار التام لوجود نظم إسلامية سياسية أو اقتصادية أو غيرها، والادعاء بأن الدين عقيدة وعبادة فقط ولا شأن له بالحياة العامة. وكان ذلك في بدء ظهور الوعي الإسلامي بالنظم الإسلامية والمطالبة بأن تطبق هذه النظم على البلاد في الثلاثينات من هذا القرن، وكان المنكرون لوجود النظم الإسلامية من أصحاب الثقافة الأوروبية التي تشبعت بالفصل بين الدين والدنيا بعد انتصار الحكومات على الكنيسة في صراعها الطويل على السلطة.

فلما تبين - من مراجعة الكتب الفقهية الإسلامية - أن الحقيقة هي أن الإسلام هو نظام اجتماعي ومنهج للحياة، وأنه ليس قاصراً على العقيدة والعبادة فقط، لم يجد المنكرون بداً من التسليم بهذه الحقيقة الواقعة والاعتراف بوجود النظم الإسلامية.

(١) المرجع نفسه، ص ٦.

الدور الثاني: الادعاء بأن النظم الإسلامية هي نظم قديمة رجعية، وكان ذلك عقب التسليم بوجود هذه النظم، وقالوا إنه لا يعقل أن نظاما ظهر منذ أربعة عشر قرنا يصلح للتطبيق في هذا الزمان.

ولكن تبين من الحوار الذي دار حول هذه المسألة الهامة أن النظام الإسلامي ليس متخلفا ولا متأخرا وأنه صالح لهذا الزمان، بل هو أفضل من سائر النظم المطبقة في العصر.

الدور الثالث: محاولات التقريب بين الإسلام والنظم المعاصرة فإنه لما تبين فضل النظام الإسلامي ومتانته، اتجهت الأفكار الوضعية إلى تملق الإسلام والالتصاق به، فأشاد الرأسماليون الليبراليون بما يتميز به الإسلام من الحرية في القول بالتشابه بين النظامين، وأشاد الاشتراكيون بما يتميز به الإسلام من النظام والتضامن للقول بتشابههما واستند كل فريق بحجج من آيات القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء لتدعيم ما يذهب كل منهما إليه.

ولإزاء هذا اللبس اتجهت جهود علماء الإسلام ومفكره إلى الفصل بين الإسلام والنظم الحديثة والتمييز بينهما، وصدر في مصر دستور عام ١٩٧١ ناصا على أن مبادئ الشريعة مصدر أساسي للتشريع وأعدت مشروعات قوانين متعددة على الأساس الإسلامي، وأسست بنوك إسلامية ونشطت فكرة التضامن الإسلامي، ثم فكرة الإعلام الإسلامي من بعد.

الأدب والأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية

تمهيد

نتناول في هذا الفصل الأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية، على النحو الذي تيسر لنا استقراؤه من دراسة الإعلام في صدر الإسلام، وما أسفرت عنه الدراسة من نتائج تفيد الدراسات الإعلامية المعاصرة فتؤكد على إيجابياتها، وتعالج سلبياتها بهدف الوصول إلى النظرية المثلى المستقرة من الإعلام الإسلامي... استنادا إلى جوهر الدعوة الإسلامية ذاتها التي خاطبت الإنسانية كلها برسالة واحدة، على نقيض ما اتسمت به الدعوات السابقة للإسلام من خصوصية، حيث كان الرسول قبل الإسلام يأتي لقومه فقط، فكان ما يناسب بيئته لا يناسب أخرى، ومن هنا تعددت الرسائل قبل الإسلام وفقا لتعدد البيئات.

وبنظرة موضوعية في تاريخ الرسائل نرى أن الدعوة الإسلامية هي الرسالة العامة إلى كل الخلق، وأن الرسائل السابقة تعتبر تمهيدا للإسلام، وقد صور النبي ﷺ هذه الحقيقة بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون: أهلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١).

(١) صحيح مسلم، ج ٧، ص ٦٤ و ٦٥.

ومع هذا الترابط بين دعوات الله في الناس فإن الدعوة الإسلامية تتميز عن سائر الدعوات الإلهية بميزات نرى أنها تمثل سمات الإعلام الإسلامي، ومنها:

١ - أن الإعلام الإسلامي وسيلة لدعوة اكتملت فيها نعمة الله باكتمال دعوته في العالمين، ومناسبتها لرفي الإنسان في أرقى مظاهره في كل زمان ومكان.

٢ - أن الإعلام الإسلامي يحقق التعادلة بين المادة والروح في الحياة الفردية والجماعية، وبذلك يخالف الماديين الذين يتجهون إلى نيل أكبر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعاني الإنسانية ويخالف الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان.

وعلى ذلك فإن التحليل الوظيفي للإعلام الإسلامي يذهب إلى أن يُرضي ضرورات الجسد والروح معاً: النفس والنسل والعقل والدين والمال، وهي الضرورات التي تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة، ويتحقق بها السلام والسعادة، يقول الشاطبي «ومجموع الضرورات خمس: وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد والرجوع بالخسران المبين».

٣ - أن الإعلام الإسلامي - كما تقدم - ينبع من شمول التشريع الإسلامي لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الإنسان، وبذلك تشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره، ولا تفرقة بين ذكر وأنثى ولا ميزة للون أو لجنس، أو لعارض من عوارض الدنيا، وبذلك يسمى الإعلام الإسلامي لتحقيق الإخاء والعدل والحرية والمساواة.

٤ - يراعي الإعلام الإسلامي طبيعة الإنسان ويتفق مع فطرته في كل أمور دينه ودنياه، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٧١.

الاعلام الاسلامي والفطرة الانسانية

تقوم الأسس الاتصالية للإعلام الإسلامي على قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي القوانين التي تدفع بمفكري العصر إلى المناداة بدراسة الإنسان، فالإعلام الإسلامي إذن يقوم على «إنسانية الإنسان»، يقول سبحانه وتعالى في سورة العلق:

﴿إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.

فعبادة الإنسان لله سبحانه وتعالى إرادية وواعية في جانب منها على الأقل، بخلاف عبادة غيره من الكائنات، فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة لا إرادة فيها ولا وعي، وإذا كان الكون والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة، فإن الإنسان إلى جانب هذا اللون من الطاعة قد ألهم طريقين لا طريقاً واحدة: طريق الطاعة وطريق العصيان، وأعطى القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضي فيه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(١)، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢)، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٣).

ومن ثم فالإنسان هو المخلوق الوحيد - من مخلوقات الأرض - الذي يعبد الله عن وعي وفهم وإدراك، وهو كذلك المخلوق الوحيد في الأرض الذي يعصي الله حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان. ولكنه في الحالتين «يدرك» وجود الله سبحانه وتعالى، ويدركه بالفطرة...

(١) سورة البلد، الآية ١٠.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٣.

(٣) سورة الشمس، الآيات ٧ - ١٠.

﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾^(١).

وللفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله سبحانه وتعالى، والإيمان بوجوده، والاتصال به، والاستعانة به، والزود من زاده^(٢).

وانطلاقاً من هذا الفهم، فإن الإعلام الإسلامي يقوم على الفطرة، ويخاطب العقول ويقنعها بالدليل، ذلك أن الإسلام يقدر العقل المدرك، وقد حفل القرآن الكريم بخطاب «العقل» بل ملكة من ملكاته، قبل أن يصبح العقل «درسا» يتقصاه الدارسون كنهاً وعملاً، وأثراً في داخله وفيما يخرج عنه، وفيما يصدر منه، وما يؤول إليه... على حد تعبير العقاد... فالعقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه التكليف، والعقل فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور... والعقل رشد يميز بين الهداية والضلال، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾^(٣).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٤).

فالإيمان بالعقل المسؤول، إذن، هو أساس الإعلام الإسلامي على نقیض ما يحدث اليوم في أنحاء العالم من ضغوط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة والإيمان بمعتقدات جديدة، وعلى نقیض ما يسميه عالم النفس الهولندي ميرلو بأساليب قتل العقل Menticisal، وهنا يصبح الإعلام الإسلامي هو النموذج الأمثل في تحقيق ما تسعى إليه النظريات الإعلامية من جعل الإعلام يزود الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(٢) محمد قطب: دراسات في علم النفس الإنسانية، القاهرة، دار الشروق، ص ٢١٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٩١.

(٤) سورة الروم، الآية ٨.

تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم.

فالإعلام الإسلامي يقوم على الوضوح والصراحة ودقة الأخبار والمعلومات، لأنه يخاطب العقل في المحل الأول، انطلاقاً من فهم القرآن الكريم، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

ومن فهم الآيات الكونية التي خاطبت العقل، والتي منها قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

ويعيب القرآن الكريم على من يهمل عقله، يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك، ويوضح الزمخشري في تفسيره هذا وهو يقول: أفلا تفتنون لقيح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول فإنها في الواقع تأباه وتدفعه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

ومن أجل ذلك يشترط الإعلام الإسلامي الالتزام بمعايير الصدق والأمانة، وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذي تنبع منه أو تنسب إليه، وقد

(١) سورة يوسف، الآية ١.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٢٢.

بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١).

يقول ابن كثير بعد أن عدد بعض ما في هذه الآيات من عجب إنها
لأصحاب العقول التامة التي تدرك الأشياء بحقائقها على طبيعتها، ذلك لأن
اللب هو كمال العقل.

وتأسيساً على هذا الفهم يمكن القول إن الإعلام الإسلامي يخاطب
الفطرة الإنسانية، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في أحسن
تقويم، وكرمه على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات وابتلاه بالخير والشر
فتنة، ونفخ فيه من روحه، ووهبه العقل، ومنَّ عليه بالرسول والأنبياء ينبرون له
طريق الحياة ويهدونه سواء السبيل، ثم جعله مسؤولاً، وإن أحسن فلنفسه وإن
أساء فعليها.

والصفات الآتية هي الصفات التي فطر الله الناس عليها كما وردت في
القرآن الكريم:

* كَرَّمَهُ وَرَزَقَهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَخَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢).

* خلقه الله تعالى في أحسن تقويم... خَلَقَا وَخُلِقَا وَعَقَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا
الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا
كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣).

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

(٣) سورة الانفطار، الآيات ٦ - ١٠.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١﴾.

* نفخ الله فيه من روحه: ﴿ذَلِكَ عَالَمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

* استخلفه الله تعالى في أرضه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

* مكّنه الله تعالى في الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا فِيهَا مَعَاشٍ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٤).

* الصالحون منهم يرثون الأرض: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٥).

مسؤول: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٦).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم مِمَّنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمِمَّنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (٧).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٨).

(١) سورة التين، الآيات ٤ - ٦.

(٢) سورة الحج، الآيات ٦ - ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(٦) سورة النساء، الآية ١١١.

(٧) سورة الكهف، الآية ٢٩.

(٨) سورة الإسراء، الآية ٣٦.

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾^(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٢).

* فقير إلى الله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣).

* خلق في كبد : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حَلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٤).

مبتلى من الله تعالى : يتليه الله بالخير والشر فتنه، ليعجم عوده وبين الغث من السمين، والمؤمن الصابر من الكافر الجزوع : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٥).

﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٦).

﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ خِيَارَكُمْ﴾^(٧).

ومن هذه الآيات القرآنية الكريمة يتضح لنا أن للإعلام الإسلامي في مخاطبة الإنسان خصائصه المميزة، التي تفرده من سائر النظريات الإعلامية، وتجعل له الريادة والكشف والسبق لكل ما يستحدث من نظريات، تتطور في إطاره وتنمو وتتقدم.

(١) سورة النجم، الآية ٣٩ - ٤١.

(٥) سورة الإنسان، الآية ٢ و ٣.

(٢) سورة المدثر، الآية ٣٨.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٥٥.

(٣) سورة فاطر، الآية ١٥.

(٧) سورة محمد، الآية ٣١.

(٤) سورة البلد، الآيات ١ - ٤.

وهذه الخصائص التي تخاطب الفطرة الإنسانية، هي التي جعلت الدراسات الإعلامية المعاصرة تذهب إلى أن الناس يقبلون على الإعلام إذا كانوا يجدون فيه فائدة محقة لهم، أو إشباعاً لحاجاتهم، وقد تفيد المعلومات فائدة عاجلة كما قد تفيد فائدة آجلة، على النحو الذي يجعل الناس في وسائل الاتصال بالجماهير يجدون معلومات ترشدتهم وتفيدهم، وفضلاً عن ذلك تساعد المعلومات على تأكيد الثقة بالنفس وتحقيق الانسجام الداخلي والائتلاف الاجتماعي، وهو الأمر الذي تحققة مبادئ الإعلام الإسلامي التي تنبع من الإيمان بالله، من حيث تنظيم علاقة الفرد بنفسه، وعلاقة الفرد بالفرد الآخر، ثم علاقة الفرد بأمنته ومجتمعه، وبالكون الذي يعيش فيه. كما أن الإعلام الإسلامي يخاطب المجتمع العالمي الإنساني بالوشائج القوية من الإخاء والمحبة والتسامح والتعاون والتكامل.

وإذا كانت الدراسات الإعلامية الحديثة تذهب إلى أن الرسالة الإعلامية التي يحتاجها المستقبل ويشعر بأنها تلبي حاجاته، تظفر منه بالتقبل والاهتمام والسعي للحصول عليها. فإن الإعلام الإسلامي يدور في إطار يشمل الإنسانية في كافة أقطارها وأزمانها، ويمنح قلب المستقبل راحة وهدوءاً، ويتيح لعقله طمأنينة واستقراراً، حيث يجد أنه - إذ يتصل بالله سبحانه وتعالى - يتصل بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود، كما هي في عالم الحقيقة والواقع، كما يصفى ضمير المستقبل من الغرور، ويخلص نفسه من الكبرياء، ويمحو ما أصاب عقله من جهالة، ومن ثم يدور الإعلام الإسلامي في صور متعددة، تتناول كل صورة منها بعداً من أبعاد الإنسان المستقبل بالتهذيب والتوجيه حتى تتناسق الجماعة كلها، وتتلاقى في مجتمع حي الضمير، متماسك البنيان، واعي الفكر، مرهف المشاعر، واقعي النظرة، خيّر النزعة، مستقيم السلوك، يشيع بين أفرادِهِ إحساس بالمسؤولية، ويسودهم شعور بالتساوي يلزمهم بالحرية.

وإذا كان الإعلام يقبل عليها الناس في عصرنا لأنه يعطيهم من الأفكار والمعلومات ما يستخدمونه في رفع مستوى معارفهم، فإن الإعلام الإسلامي

قد أكد على ذلك، وأدى إلى دعم اتجاهاتهم النفسية وتعزيز قيمهم ومعتقداتهم، قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»^(١).

فمن هذا الحديث الشريف يتضح أن الإسلام الذي ينبع منه الإعلام الإسلامي يعني التصديق بالقلب والتصديق باللسان، مع الوفاء بالفعل والاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر. والشهادة قول صادر عن علم حصول المشاهدة بصراً وبصيرة، وتقال لمطلق الإقرار والاعتراف بالإله المعبود والصلاة في الأصل الدعاء، وتقال للعبادة المعروفة لما فيها من الدعاء. والتوجه إلى الله، وإقامتها وتقويمها بالخشوع فيها، والتفكير في معانيها، وتذكر مَنْ تُقِيمت له، فهي من أقام العود إذا قَوَّمَهُ. والصلاة إذن توثق صلة العبد بربه، فيفيض عليه من خيره، وتطهر نفسه من التكالب على أغراض الدنيا، وتعوده الإخلاص والابتعاد عن النفاق. أما الزكاة فقد أطلقت في عرف الشارع على ما يخرج الإنسان من ماله حقاً لله تعالى ليصرف لذوي الحاجات وفي المصالح العامة. والصوم يذكي في الإنسان روح التفكير، إذ البطنة تذهب بالفطنة، ويذكر في كل لحظة بالله رب نعمته، فترطب بذكره لسانه. والحج في اللغة القصد، والمراد به في لسان الشارع قصد البيت الحرام - الكعبة - وفيه يتجلى الإعلام الإسلامي في أوضح صورته، والوقوف على حال المسلمين في الأقطار المختلفة، والإعلام أول خطوة إلى العمل بدعائم الإسلام وقيمه الأصلية.

الأسس الاتصالية في الاعلام الاسلامي

وانطلاقاً من هذا الفهم يتضح أن الإعلام الإسلامي يقوم على أسس اتصالية رائدة بالقياس إلى النظريات الإعلامية المعاصرة، ذلك أنه خاطب

(١) رواه البخاري ومسلم.

الفطرة الإنسانية على نحو غير مسبوق، وهو الأمر الذي تسعى إليه جاهدة نظريات الإعلام في عصرنا هذا بهدف دراسة وتحليل محددات السلوك -Deter- minants Behavior وبعض هذه المحددات هي :

المحددات الوراثية الخاصة بالجينات Genetic : المحددات البيولوجية والفسولوجية، المحددات اللاواعية أو اللاشعورية . . . إلخ .

ومن هذه الدراسات المعاصرة يحاول علماء الاتصال (من أمثال البورت ١٩٤٧^(١) وبارتليت ١٩٥٨^(٢) - وبيرونر ١٩٥٨^(٣) وهوفلاندر^(٤) وشرام ١٩٦١^(٥))، التعرف على التعرض للاتصال وتفسير المضمون، وتذكر الاتصال والنتائج السلوكية والوقفية المترتبة على الاتصال، كل ذلك بحكمة - بصفة خاصة - الاستعداد المسبق لدى الشخص المستقبل .

وتركز هذه الدراسات على التغيير السلوكي من خلال دراسة مكونات عملية الاتصال والمتغيرات التي ترتبط بكل منها، وتتضمن عملية الاتصال كما سبق وأوضحنا في الفصل الأول :

(أ) - المصدر .

(ب) - الرسالة .

(١) Allport, G. W., «The Historical Background of Modern Social Psychology» in Lindsey G. (Ed.), Handbook of Social Psychology, vol., 1, Reading Mass: Addison Wesley, 1959.

And Postman, L., The Psychology of Rumor N.U.: Hal, 1947.

(٢) Bartlett, F.C., «Social Factors in Recall» in Maccoby, E.E. Neucombs, T.M. Eds., Reading in Social Psychology, N.Y. Rinehart and Winston, Inc., 1958, pp.47- 54.

(٣) Bruner J.S., «Social Psychology and Perception» in Maccoby, E. E., (Eds.) Reading in Social Psychology N.Y.: Alot, Rinehart and Winston, 1950, pp.85- 94.

(٤) Hovland, C. I., Janis, I.L., and Kalley. H.A., Communication and Persuasion. New Haven, Conn., Yale University Press, 1953.

(٥) Schramm, W. ED.. The Process and Effects of Mass Communication, Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1961.

(ج) - المستقبل .

(ج) - قناة الاتصال .

ونحاول في هذه الصفحات دراسة العناصر المتعلقة بالمصدر، مرجئين دراسة قناة الاتصال لكتابنا التالي على اعتبار أنها تمثل القاسم المشترك بين العصور المختلفة في تطور الإعلام الإسلامي، وعلى اعتبار أننا درسنا عنصر الرسالة في الفصول المتقدمة.

مصدر الاتصال

إن مصدر الاتصال - كما تقول الدراسات الحديثة - هو منشئ الرسالة وفي مجال الإعلام الإسلامي فإن المصدر هو القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويكون الدعاة الإعلاميون هم الذين يمثلون عناصر «المرسل» الذي يؤدي رسالة المصدر، ولذلك فإن الدراسات الحديثة تركز في هذا العنصر على قابلية المرسل والمصدر للتصديق، فقد وجد هوفلاند ووايس (١٩٥١)^(١) وكليمان وهوفلاند (١٩٥٣)^(٢) في تجاربهم على المصادر، أن المعرضين للاتصال يكتسبون نفس الكمية من المعلومات بغض النظر عن درجة قابلية المصدر للتصديق... وإذا كان الاتصال منسوبا بالمصدر قليل القابلية للتصديق، فإن المعرضين للاتصال سيحكمون على المعلومات بصورة أقل عدلاً وسيجدون أن الاستنتاجات تبريرها أساسه ضعيف.

وتوضح هذه الدراسات أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة جانب هام من جوانب قابلية المصدر للتصديق.

(١) Hovland, C.I. and Weiss, W., «True influence of Source and Credibility on Communication Effectiveness» Public Opinion Quarterly Vol. 15 (1951, pp. 635-650).

(٢) Kelman, H.X. and Hovland, C.I., «Reinstatement of the Communication Delayed Measurement of Opinion Change Journal of Abicor Wal and Social Psychology, Vol., 1053, pp.327- 335.

ولقد أكد الإعلام الإسلامي على ضرورة توافر الصفات المثلى في الدعاة ورجال الإعلام لكي يكونوا موضع تصديق، ذلك أن هؤلاء هم ورثة النبي ﷺ في مهمته الإعلامية، والقائمون مقامه في إبلاغ دين الله، وكان النبي ﷺ يؤكد للمسلمين على ذلك، فقال لأصحابه: «ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»^(١).

وانطلاقاً من هذا الفهم نتناول هنا في ضوء دراسة هذا العنصر الإعلامي المبادئ التي قام عليها الإعلام الإسلامي وفي مقدمتها:

الصدق

ذلك أن الإسلام جعل الصدق فضيلة للإنسان، بوجه عام، وهي بالقياس إلى الإعلام الإسلامي تكون أهم مقومات تصديق المصدر أو المرسل الذي يبلغ دعوة الله كما جاءت، ويبين غوامضها، وينقل كل بيان قيل في شأنها. ولذلك كانت أهم صفة اشتهر بها الرسول ﷺ هي صفة «الصادق الأمين».

ولما سأل هرقل أبا سفيان - ولم يكن قد أسلم بعد - عن محمد قائلاً: وهل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا... فقال هرقل: أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله^(٢).

وهرقل هنا يمثل دور المستقبل الذي يشترط الصدق في المصدر، لأن من يلتزم الصدق مع الناس يكون صادقاً مع ربه سبحانه وتعالى، وكان النبي ﷺ يؤكد على هذا المعنى الاتصالي في بدء الدعوة والجهار بها حينما قال للناس: «لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدّقي؟»، قالوا جميعاً: «ما جرينا عليك كذباً»^(٣).

(١) صحيح البخاري، ج ١، ص ٣٧، كتاب العلم، باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

(٢) الفتح الرباني، ج ١، ص ٢٦٤، كتاب العلم، باب فضل تبليغ الحديث.

(٣) صحيح البخاري، ج ١، ص ٥ - ٦، باب بدء الوحي.

(٤) صحيح البخاري، ج ٦، كتاب التفسير.

وفي القرآن الكريم يؤكد الله تعالى في أكثر من آية على التزام الصدق في كل شيء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣).

وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(٤).

ويقول النبي عليه الصلاة وأزكى السلام: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة»^(٥).

والمرسل في الإعلام الإسلامي يظهر صدقه في وجهه وصوته وما يخطه قلمه، فقد كان ﷺ يتحدث إلى من لا يعرفونه فيقولون: والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب^(٦).

وليس من شك في أن ظهور أثر الصدق في القائم بالإعلام الإسلامي يؤثر في الجمهور المتلقي ويحمله ذلك على قبول رسالته الإعلامية واحترامها.

الصبر والثبات

فالمثابرة على الدعوة من أهم صفات الإعلامي المسلم، وهذه المثابرة تقتضي الصبر الذي يعد نصف الإيمان، وهو لغة: الحبس والكف، وشرعا على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على

(١) سورة التوبة، الآية ١١٩.

(٢) سورة مريم، الآية ٥٤.

(٣) سورة الحشر، الآية ٨.

(٤) سورة الزمر، الآية ٣٣.

(٥) موطأ مالك، ج ٤، ص ٢٢٧، ما جاء في الصدق.

(٦) تذكرة الدعاة، للبهي الولي.

المصائب والبلاء. ذلك أن الإعلاميين والدعاة مبتلون بأذى الكفار والمارقين بالقول والكيد. . . قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

وقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٣).

فالصبر والثبات هما عدة الإعلاميين والدعاة في الإسلام، وقد أودى أصحاب الرسول عليه السلام في قلة أشد الأذى، وكان ﷺ يأمرهم بالصبر (صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة)، فالإعلاميون والدعاة المسلمون يقابلون الأذى بالصبر الجميل، ولذلك يؤكد الدارسون المسلمون في علم الدعوة على ضرورة توافر عدد من الشروط في المرسل وفي المرسل في نظرية الإعلام الإسلامي:

١ - أن يدعو الإعلامي المسلم إلى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها النبي عليه السلام، فإذا أدت هذه الوسائل إلى أذى يصيب الداعي فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع وبالثبات لا بالفرار.

٢ - إذا كان الإعلامي المسلم قادراً على توقي الأذى، فعليه أن يتقاه حسب الظروف والأحوال، لأن فيه فتنة مهولة العاقبة، جاء في الحديث الشريف:

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٤.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٩٧ - ٩٩.

(٣) سورة الروم، الآية ٦٠.

«لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق»^(١).

٣ - من الأدعية المأثورة أن يسأل المسلم ربه العفو والعافية، وفي وصيته عليه السلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميراً على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه السلام بأيام، قال له: «ولا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرّون لعلكم تبتلون بهم، ولكن قولوا اللهم اكفناهم واكف بأسهم»^(٢)، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٣)، ولقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة فراراً بدينهم وتخلصاً من أذى قريش، فذل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هي ملك الله، فلا يجوز اتلافها بلا فائدة تعود إلى الإسلام، والإعلامي أو الداعي المسلم لا يستدعي الأذى لنفسه، بل يعمل على عدم وقوعه. وإذا وقع عمِل على دفعه بكل وسيلة مشروعة في ضوء القرآن والسنة.

٤ - إذا وقع الضرر والأذى على الإعلاميين والدعاة المسلمين رغم التزامهم بالسَّير المشروعة في الدعوة والإعلام الإسلامي، فعليهم أن يستعينوا بالله ويصبروا الصبر الجميل، وليعلموا أن الأمور كلها بيد الله تعالى^(٤).

الرحمة والعفو والتواضع

وهذه الأخلاق الإسلامية جميعاً تعد من صفات الداعية المسلم ورجل الإعلام الإسلامي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»، «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»، «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء».

(١) إمتاع الأسماع، ص ٢٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ص ٣٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.

(٤) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ج ١، ص ٥٣.

ذلك أن رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام وقد وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

فالرحمة إذن مبدأ من المبادئ المثلى في الإعلام الإسلامي، لأنها تؤدي في نهاية الأمر إلى تحقيق التواصل في كيان الأمة الإسلامية على أرفع مستوى، تحكم به كل نظريات الاتصال والإعلام في القديم والحديث.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»^(٢).

والتراحم لغة: التواد والتعاطف، وكلها من باب التفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وكذلك التواصل، وبينها - وإن تقاربت في المعنى - فرق لطيف، فالتراحم: رحمة بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب آخر، التواد: التواصل الجالب للمحبة، والتعاطف إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له. وتداعوا: دعا بعضهم بعضاً، وهكذا يستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الألفاظ الدالة على جوهر الاتصال والإعلام ودلالة التراحم فيهما، فيمثل ﷺ المؤمنين في هذه الخلال بالجسد الواحد إذا مرض منه عضو تألم له كل أعضائه. فكذلك المؤمنون يسعون بالتعاطف لدفع الألم عن أي مصاب فيهم، ويجلبون له الخير، فالمسلمون في نظرية الاتصال الإسلامي كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم والشر يصيبه كأنما أصاب جميعهم.

ونخلص مما تقدم إلى أن نظرية الإعلام الإسلامي تذهب إلى العمل على نشر الدعوة الإسلامية بكل الوسائل المشروعة، لأفراد الأمة الإسلامية ولغيرها من الأمم الأخرى.

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

